علم السنن الإلهية

من الوعي النظري إلى التأسيس العملي

تأليف

الدكتور أبو اليسر رشيد كهُوس

مراجعة وتقديم

قسم الدراسات والنشر والشؤون الخارجية

مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

خدمة متميزة... وعطاء مستمر

٢٤١
ك هـ و ع

كهوس، أبو اليسر رشيد
علم السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي / تأليف أبو اليسر رشيد كهوس ؛ مراجعة وتقديم قسم الدراسات والنشر والشؤون الخارجية. ـ ط. 1. ـ دبي : مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥ م.
٣٣٦ ص. ؛ ٢٤ سم.
ببليوجرافيا: ص. ٣٠٨-٣٣٠
يتضمن فهارس.
ردمك ٩٧٨٩٩٤٨١٨٧٨٤٤.
١- الله ـ السنن الإلهية ـ السنن النبوية ـ القرآن الكريم ـ الإيمان ـ النبوة ـ محمد صلى الله عليه وسلم ـ قصص القرآن ـ التغيير. أ. العنوان.

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م.

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة،سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ"فوتوكوبي" أو التسجيل، أو التخزين أو الاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission of the publishers.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد الله مكور الليل على النهار، الذي عنده كل شيء بمقدار، والصلاة والسلام على من أوتي الحكمة وخزائن الأسرار، وعلى آله وصحبه الطيبين الأطهار، أما بعد:

فإن الله سبحانه وتعالى لما خلق السموات ومن الأرض مثلهن في ستة أيام، قدر في كل منها مالا يحيطه علم بشر، ولا يحصيه عدد، من القوانين والسنن التي يسير بها هذا الكون، وتحكم حركاته وسكناته، وكل ما يلج في الأرض، وما يخرج منها، وما يعرج في السماء وما ينزل منها، مهما تناهى ذلك الشيء في الصغر.

فمن تلك السنن الإلهية ما كشف عنه سبحانه وتعالى في كتابه، وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، ومنها ما دعا الناس إلى تلمسها والبحث عنها في الآفاق وفي أنفسهم، ثم النظر فيها وتدبرها والتفكير فيها، وهناك من السنن ما استأثر الله به في الغيب عنده، وقد يكشف العلم في المستقبل شيئًا منها.

وفي الكتاب الذي بين أيدينا سعى مؤلفه للخوض في هذا البحر، وسبر ما تيسر من أغواره؛ فقام بتعريف السنن الإلهية وتأصيلها، ثم حدد أقسامها مبينًا خصائصها وصفاتها، وكذا مقاصدها وآثارها، والقواعد الكلية التي بنيت عليها،منبهًا إلى الدواعي التي تدعو الإنسان إلى الاهتمام بالسنن الإلهية، ثم شرح منهج القرآن والسنة النبوية في عرض السنن الإلهية خاتمًا كتابه بنماذج من السنن الإلهية.

ونظرًا لأهمية الكتاب العلمية، رأى مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث طباعته خدمة للباحثين والدراسين في هذا الحقل، وإثراء للمعارف الفكرية من خلال مناقشة ما استجد فيها من أبحاث، وما حصل حولها من اجتهادات.

مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث – دبي

ولا يفوتنا ونحن نخرج هذا العمل أن نتوجه بالشكر الجزيل إلى كل من ساعدنا وسهل لنا إخراجه، وعلى رأسهم معالي جمعة الماجد رئيس المركز.

وأخيراً نأمل أن تسد هذه اللبنة ثغرةً من ثغور الفكر الثقافة الإسلامية، وأن تكون نبراساً لأولئك الباحثين عن كنوز المعرفة في حضارتنا الإسلامية.

مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

خطبة الكتاب

الحمد لله الذي هدى عباده المؤمنين إلى سنن السابقين، وأتم نعمته عليهم بما أنزله من الحق في كتابه المبين، وحث خلقه على السير في الأرض للوقوف على آثار الغابرين، ووعدهم بالكشف عن سنن الأنفس والآفاق في سائر العصور إلى يوم الدين، والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا ومولانا محمد المؤيد بأوضح المعجزات والبراهين، وآل بيته المصطفين الطاهرين، وصحابته الأبرار المنتجبين.

أما بعد؛ فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨)﴾(آل عمران).

أطلق الله جل جلاله على قوانينه التي بثها في هذا الوجود اسم "السنن"، وهي مجموعة من القوانين التي تحكم كل مفردة في هذا الكون ضمانًا لحفظ توازنه، وتكاملاً لكل عناصره؛ مراعاة لاستمرارية الحياة إلى أجلها.

إن السنن الإلهية هي حقائق ثابتة تقدم تفسيرًا صحيحًا عن الكون والإنسان وحركته في المجتمع والتاريخ، وقد كشف الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم عن الكثير من هذه السنن الإلهية -وبينها النبي ﷺ في سنته الطاهرة- وأخفى الكثير منها ليكتشف منها الإنسان في كل زمان ومكان ما يحقق به إنجازاته في شتى مجالات الحياة، وينهض بخلافته ويبني حضارته وعمرانه، ويسعد في آخرته، وما يكون دليلاً من الأدلة التي تؤكد صدق ما جاءت به الرسالة السماوية الخاتمة: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣)﴾(فصلت).

علم السنن الإلهية هو التصور المستنبط من فهم القرآن وفلسفته في فهم الحياة وتفسير الظواهر الاجتماعية والتاريخية والكونية، وهو الدعامة الرئيسة لتحقيق الوقاية الحضارية والتجديد والتدافع الحضاري.

وبهذا يستبين أن الكون كلّه خاضع في نظام سيره وتركيب عناصره لهذه السنن الإلهية، مما يستدعي الاهتمام بها، وبذل الجهود لاستنباطها واستكناهها ثم تسخيرها وتوظيفها في استرجاع فاعلية الأمة وشهادتها على الأمم، وتجديد الحياة، والقضاء على جوانب التخلف والعجز والتراجع فيها.

كما أن ما حلَّ بواقع الأمة من أزمات يأخذ بعضها برقاب بعض، يفرض التوجه نحو القراءة السننية القاصدة والإيجابية للواقع، لاكتشاف مواطن الضعف والإصابة والخلل، وأسباب الأزمة وعواملها ومكوناتها، وإبصار العواقب والمآلات؛ لوضع خطة محكَّمة -في ضوء السنن- للخروج من واقع الأزمة.

وإذا كان علم السنن الإلهية بهذه المكانة والأهمية، فإنه ينبغي أن تتوجه إليه همم العلماء والدارسين والباحثين بالتدوين والاهتمام كما فعلوا بسائر العلوم الإسلامية.

وعليه؛ فإن مما دفعني للبحث في هذا الموضوع ودراسته ما لمسته من قلة المؤلفات التي تناولت هذا العلم إذا قورنت مع المصنفات الكثيرة الأخرى في باقي العلوم الشرعية.

كما أن الدراسات في هذا الموضوع كانت تأسيسًا نظريًا لجانب من جوانب علم السنن الإلهية أو لرصد الجانب التطبيقي منها في قصص السابقين في القرآن الكريم، وتأتي هذه الدراسة لتتمم الجهود السابقة وتسد ثغرة وتضيف جديدًا إلى المكتبة الإسلامية.

ومن خلال ما سبق تظهر أهمية البحث في هذا الموضوع؛ لكونه جديدًا في بابه، مفيدًا في محاوره ومباحثه.

هذا ويتضمن هذا البحث الموسوم بـ"علم السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي": مقدمة وتسعة مباحث وخاتمة.

المقدمة.

المبحث الأول: السنن الإلهية: تعريف وتأصيل.

المبحث الثاني: أقسام السنن الإلهية.

المبحث الثالث: السنن الإلهية: خصائص وصفات.

المبحث الرابع: السنن الإلهية: مقاصد وآثار.

المبحث الخامس: القواعد الكلية للسنن الإلهية.

المبحث السادس: دواعي الاهتمام بالسنن الإلهية.

المبحث السابع: الوعي العملي بعلم السنن الإلهية.

المبحث الثامن: منهج القرآن والسنة في عرض السنن الإلهية.

المبحث التاسع: نماذج من السنن الإلهية.

خاتمة: أهم نتائج البحث.

والله أسأل أن يجعل جهودنا خالصة لوجهه الكريم. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، والحمد لله رب العالمين.

كتبه أبو اليسر رشيد محمد كُهُوس في فرخانة إقليم الناظور المغرب الأقصى. صبيحة يوم الاثنين ٨ جمادى الأولى ١٤٣٥ هـ/ ١٠ مارس (آذار) ٢٠١٤م.

المبحث الأول:

السنن الإلهية: تعريف وتأصيل

أولاً: تعريف السنن الإلهية

١ – السنة لغة:

تطلق السنة في اللغة على: "الطريقة والسيرة، حميدة كانت أو ذميمة... وسُنَّةُ اللَّه: أَحكامه وأَمره وَنَهْيُهُ.. وسَنَّها اللهُ لِلنَّاسِ: بَيَّنها. وسَنَّ اللهُ سُنَّة أَي: بَيَّن طَرِيقًا قَوِيمًا"[١]، "وسنّ الماء على وجهه: صبّه صبًّا سَهْلا، (...) وسَنّ الأمير رعيته: أحسن سياستها. (...) وسَنّ اللهُ على يديْ فلان قضاء حاجتي: أجراه"[٢].

قال الشاعر:

فلا تجزعَنْ من سُنة أنتَ سرتها فأوّلُ راضٍ سنةً من يسيرها[٣]

فالسنة هنا في قول الشاعر: الطريقة.

وقال لبيد:

من معشر سنَّت لهم آباؤهم ولكل قوم سُنَّة وإمَامُها[٤]

والسنة في قول لبيد: الإمام المتبع المؤتم به.

قال العلامة الراغب الأصفهاني(ت: ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م)-رحمه الله-: "السنن جمع

---

[١] لسان العرب، لابن منظور، مادة (سنن)، ١٣/ ٢٢٥؛ مختار الصحاح، لأبي بكر الرازي، مادة (سنن)، ١٤٣؛ المصباح المنير، لأحمد الفيومي المقرئ، مادة (سنن)، ١٥٢.

[٢] أساس البلاغة، للزمخشري، حرف السين مادة (سن)، ٤١٨.

[٣] البيت للشاعر خالد الهذلي يخاطب أبا ذؤيب الهذلي؛ تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ٤/ ٩٦.

[٤] تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ٤/ ٩٦.

سنة، سنة الوجه طريقته، وسنة النبي ﷺ طريقته التي كان يتحراها، وسنة الله تعالى: قد تقال لطريقة حِكمته، وطريقة طاعته"[١].

ومن التعريفات السابقة نستطيع القول: إن معنى السنة في اللغة يدل على جريان الشيء أو الحكم على طريقة واحدة معتادة.

أما معنى سنة الله في اللغة فهي: طريقة حكمة الله تعالى في مجازاته لخلقه التي تجري على نسق واحد منذ بدء الخليقة إلى يوم القيامة، وطريقة طاعة الخلق له بما شرعه من أوامر ونواه.

٢- السنة في الاصطلاح الشرعي.

١.٢- السنة عند أهل الحديث.

أما السنة عند المحدثين فهي "ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خِلقية أو خُلقية أو سيرة، سواء أكانت قبل البعثة أم بعدها، وهي بهذا ترادف الحديث عند بعضهم"[٢].

فالسنة القولية: هي أحاديث المصطفى ﷺ التي حدث بها في مناسبات وأغراض شتى أو توجيهاته ووصاياه لأصحابه ولأمته من بعده.

والسنة الفعلية: هي أفعاله ﷺ المنقولة عنه، كصيامه وصلاته وحجه وعبادته وحركاته...

والسنة التقريرية: هي ما عمله صحابته فأقرهم عليه من أقوال وأفعال، والتقرير يكون إما بسكوته وعدم إنكاره، وإما بموافقته على ذلك الفعل أو القول واستحسانه.

---

[١] مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، مادة (سنن)، ٤٢٩؛ بصائر ذوي التمييز من لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مادة:(بصيرة السنن)، ٣/ ٢٦٧.

[٢] السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى السباعي، ٥٧؛ مكانة السنة في بيان الأحكام الإسلامية والرد على ما أثير حول حجيتها وروايتها، علي الخفيف، ٩.

٢.٢- السنة عند الفقهاء.

أ- السنة مرادفة للمستحب.

السنة هي: "الصفة الشرعية للفعل المطلوب طلبًا غير جازم، بحيث يثاب المرء على فعله ولا يعاقب على تركه"[١]. وبهذا تكون مرادفة للمستحب عندهم؛ أي"ما ليس بواجب"[٢].

وبمعنى آخر، "تطلق على المستحبات والآداب فيقال سنن الوضوء كذا..."[٣].

وهي عند "أكثر الشافعية (وجمهور الأصوليين بالنسبة إلى معناها الفقهي) ترادف المندوب، والمستحب، والتطوع، والنافلة، والمرغب فيه"[٤].

ب - السنة بمعنى ما واظب النبي ﷺ على فعله ولم يوجبه.

السنة في فقه الحنفية: "ما واظب ﷺ على فعله مع ترك ما بلا عذر"[٥]، وهي نوعان؛"سنن هدي، ويقال لها: الحسنة المؤكدة كالأذان والإقامة (...)، وسنن الزوائد: كأذان المنفرد والسواك"[٦].

والحقيقة أن ليس هناك شيء زائد في الشريعة الإسلامية، فكل سنة من السنن يمكن أن تستنبط منها آداب كثيرة، ومن ثمَّ فإن هذا التقسيم فيه نظر.

وعند المالكية: "وسنته ﷺ طريقته التي كان عليها، عاملاً بها، نادبًا إليها"[٧]، وسيرته

---

[١] الإسلام عقيدة وشريعة، محمد شلتوت، ٤٩٤.

[٢] إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، محمد بن علي الشوكاني، ١/ ١٥٥.

[٣] القاموس الفقهي، حسن مرعي، ١١٥، حرف السين، مادة (سنن).

[٤] حجية السنة، عبد الغني عبد الخالق، ٥١.

[٥] تيسير التحرير، محمد أمين أمير بادشاه الحنفي، ٣/ ٢٠.

[٦] التعريفات، ١٢٥.

[٧] التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر النمري، ٥/ ٣١١.

العطرة، " أصبحت إذا أطلقت لا تنصرف إلا إليها"[١].

فتطلق السنة إذن، عند فقهاء المالكية: "على ما أمر به ﷺ وواظب عليه وأظهره ولم يوجبه"[٢].

ت - السنة بمعنى ما جاء منقولاً عن النبي ﷺ.

تطلق السنة في اصطلاح فقهاء الشافعية "على ما كان نقلاً منقولاً عنه ﷺ"[٣].

قال الشيخ مصطفى الزرقا (ت١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)-رحمه الله-:"يطلق لفظ السنة على ما جاء منقولاً عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، وهي بهذا المعنى مرادفة للفظ «الحديث».

وقد تطلق على معنى الواقع العملي في تطبيقات الشريعة في عصر النبوة؛ أي الحالة التي جرى عليها التعامل الإسلامي في ذلك العصر"[٤].

٣.٢- السنة عند علماء الأصول.

أما السنة عند علماء الأصول فإنهم يستعملونها بمعنى المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، هذا على وجه الإجمال، أما على وجه التفصيل فإنهم يستعملونها كما يستعملها المحدثون، لكنهم لا يدخلون فيها الصفات الخُلقية والخِلقية ويعتبرونها سنن زوائد.

أ - السنة بمعنى الواجب والمستحب والمباح وهي ضد البدعة.

قال الإمام الشافعي ﷺ(ت٢٠٤هـ/ ٨٢٠م): "سنن رسول الله ﷺ مع كتاب الله وجهان: أحدهما نص كتاب، فاتبعه رسول الله كما أنزل، والآخر جملة بين رسول الله فيه عن

[١] مدرسة الحافظ أبي عمر بن عبد البر في الحديث والفقه وآثارها في تدعيم المذهب المالكي بالمغرب، إعداد: محمد بن يعيش، ١/ ٣٢٧.

[٢] نشر البنود على مراقي السعود، عبد الله بن إبراهيم العلوي الشنقيطي، ٢/ ٩.

[٣] المصدر نفسه، ٢/ ٩.

[٤] المدخل الفقهي العام، سلسلة الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد، مصطفى الزرقا، ١/ ٧٥.

الله معنى ما أراد بالجملة، وأوضح كيف فرضها: عامًا أو خاصًا، وكيف أراد أن يأتي به العباد، وكلها اتبع فيه كتاب الله"[١].

قال الشيخ أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي (ت٣٨٨هـ/ ٩٨٨م)–رحمه الله-: "أطلقها بعض الأصوليين هنا على الواجب، والمندوب، والمباح، وتطلق في مقابلة البدعة، كقولهم: فلان من أهل السنة"[٢].

ب – السنة طريقة رسول الله ﷺ وما صدر عنه من قول أو فعل أو تقرير.

جاء في كتاب البحر المحيط عن القاضي أبو زيد الدبوسي الحنفي (ت٤٣٠هـ - ١٠٣٩م) –رحمه الله– أنه قال: "ذكر أصحاب الشافعي أن السنة المطلقة عند صاحبنا تنصرف إلى سنة رسول الله ﷺ، وأنه على مذهبه صحيح؛ لأنه لا يرى اتباع الصحابي إلا بحجة، كما لا يتبع من بعده إلا بحجة، ويحتمل؛ لأنه لم يبلغه استعمال السلف إطلاق السنة على طرائق العمرين والصحابة.

أما في الاصطلاح: فتُطلق على ما ترجَّح جانبُ وُجُوده على جانب عدمه ترجيحًا ليس معه المنع مع النقيض، وتطلق وهو المراد هنا: على ما صدر من الرسول ﷺ من الأقوال، والأفعال والتقرير، والهمم، وهذا لم يذكره الأصوليون، ولكن استعمله الشافعي في الاستدلال"[٣].

وقال العلامة محمد صِدِّيق القِنَّوجِي (ت١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م) –رحمه الله-:"هي قول النبي ﷺ وفعله وتقريره"[٤].

ويقول الدكتور وهبة الزحيلي وهي –السنة– عند الأصوليين: "كل ما صدر عن

---

[١] الرسالة، ٩١.
[٢] انظر: البحر المحيط في أصول الفقه، لبدر الدين محمد الزركشي، ٦/ ٥.
[٣] البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين محمد الزركشي، ٦/ ٦.
[٤] الجامع لأحكام وأصول الفقه، ١١٢.

رسول الله ﷺ من الأدلة الشرعية مما ليس بمتلو، ولا هو معجز، ولا داخل في المعجز. وبعبارة أخرى هي: كل ما صدر عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير. وهذا هو المقصود في البيان هنا"[١].

وهي ما انضاف إلى الرسول ... من صفة كَلَيْسَ بالطويل
والقول والفعل وفي الفعل انحصر ... تقريره كذي الحديث والخبر[٢].

ت - السنة بمعنى ما نقل عن النبي ﷺ ولم ينص عليه القرآن الكريم.

وقال الإمام الشاطبي (ت: ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م) -رحمه الله-: "يطلق لفظ السنة على ما جاء منقولاً عن النبي ﷺ على الخصوص، مما لم ينص عليه في الكتاب العزيز، بل إنما نص عليه من جهته عليه الصلاة والسلام، كان بيانًا لما في الكتاب أو لاً"[٣].

فإذا أردنا تعريف السنة، قلنا: "هي الشيء الصادر عن محمد ﷺ لا على وجه الإعجاز"[٤].

ث - الفرق بين اصطلاح الفقهاء واصطلاح الأصوليين.

فالفرق إذن، بين "اصطلاح الفقهاء واصطلاح الأصوليين، أنها عند الأصوليين: اسم دليل من أدلة الأحكام، فيقال: هذا الحكم ثبت بالسنة أي لا بالقرآن، أما عند الفقهاء فهي: حكم شرعي يثبت الفعل بهذا الدليل، فيقال: هذا الفعل سنة أو حكمه السنية؛ أي ليس فرضًا، ولا واجبًا، فهي على هذا حكم من الأحكام، لا دليل من الأدلة"[٥].

---

[١] أصول الفقه الإسلامي، ١/ ٤٥٠.

[٢] نشر البنود على مراقي السعود، عبد الله بن إبراهيم العلوي الشنقيطي، ٢/ ٩.

[٣] الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، ٤/ ٣٨٩.

[٤] الإبهاج في شرح المنهاج، علي السُّبكي وولده تاج الدين السبكي، ٥/ ١٧٥٠.

[٥] الإسلام عقيدة وشريعة، محمد شلتوت، ٤٩٤.

٤.٢- السنة في القرآن الكريم.

أنزل الله تعالى وتقدس القرآن الكريم بلسان عربي مبين، وكان معجزة خالدة على مر الأزمان والعصور، أعجز الفصحاء والشعراء والأدباء. وبهذا فإن ألفاظه لا تخرج عن معانيها في اللغة العربية إلا بقرينة، فلفظ السنة في القرآن الكريم أُطلق على ما هو عليه في لغة العرب؛ أي "الطريقة والخطة المتبعة"[١]، وسنة الرسل: "هي الشرائع الإلهية المنزلة لهداية الأمم"[٢]، والسُّنن جمع سنة، وسنة الله: "ما جرى به نظامه تعالى في خلقه"[٣].

وقد وردت كلمة السنة في القرآن الكريم بجميع صيغها ست عشرة مرة: بصيغة "سنة" المفرد ثلاث عشرة مرة، بصيغة الجمع (سنن) مرتين، بصيغة "سنتنا" مرة واحدة[٤]، وهي كالآتي:

- ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (الأحزاب: ٣٨).

- ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: ٦٢).

- ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الفتح: ٢٣).

- ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الأنفال: ٣٨).

- ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر: ٤٣).

---

[١] معجم ألفاظ القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مادة (سنن)، ١/ ٦٢٤.

[٢] موسوعة الألفاظ القرآنية، مختار فوزي النَّعال، مادة: (السنة)، ٤١٣.

[٣] القاموس القويم في القرآن الكريم، إبراهيم أحمد عبد الفتاح، ١/ ٣٣١.

[٤] انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ٤٥١.

- ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (غافر: ٨٥).

- ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٧).

- ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ (الكهف: ٥٥).

- ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الحجر: ١٣).

- ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٧).

- ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النساء: ٢٦).

وباستقراء كل هذه الآيات الكريمة[1] يتضح لنا أن المراد بالسنة في سياق هذه الآيات ما يأتي:

- سنة الأنبياء والمرسلين السابقين وشرائعهم وطرائقهم في الأوامر والنواهي، والتحليل والتحريم.

- سنة الله في عقاب الأمم الكافرة وإهلاكها، ونصر عباده المؤمنين الصالحين المصلحين من الأنبياء والرسل والأولياء وتأييده لهم والتمكين لهم.

وللوقوف على فوائد أخرى في كتب التفسير أذكر بعض تعريفات المفسرين للسنة:

---

[1] تلك الآيات الكريمة جاءت في سياق واحد هو السياق الاجتماعي. أما السنن الكونية فقد عبر عنها القرآن الكريم بالآيات، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٤).

- الإمام أبو بكر الجصاص (ت: ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م)-رحمه الله-: سنة الله هي: "الطريقة المأمور بلزومها واتباعها"(١).

- الشيخ أبو علي الطبرسي (ت: ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م)-رحمه الله-: "السنة: الطريقة المجعولة ليقتدى بها. ومن ذلك سنة رسول الله ﷺ" (٢).

- الإمام القرطبي (ت: ٦٧١هـ/ ١٢٧٣م)-رحمه الله-: "سنة الله: يعني طريقة الله وعادته(٣)"(٤).

- الإمام ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م)-رحمه الله-: سنة الله: "عادته في خلقه"(٥).

- الإمام أحمد بن عجيبة (ت: ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٨م) رحمه الله: "السنن: الطرق المسلوكة"(٦).

- العلامة محمد بن أحمد أبو زهرة (ت: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م)-رحمه الله-: "إن الكون يسير على سنة الله وعلى نواميس محكمة يدبرها منشئ الكون وخالقه، والقيوم عليه بحكمته وإرادته المختارة، فهو الفعَّال لما يريد"(٧).

- العلامة محمد المكي الناصري (ت: ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م)-رحمه الله-: السنن الإلهية والنواميس الكونية هي: "التي يسير الكون بمقتضاها سيرًا محكمًا منظمًا"(٨).

---

(١) أحكام القرآن، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي، ٣/ ٤٨٧.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل الطبرسي، م٢/ ج٤/ ٢٠٥.

(٣) العادة كما جاء في كتاب التعريفات هي: "ما استمر الناس عليه على حكم المعقول وعادوا إليه مرة بعد أخرى" (التعريفات، للجرجاني، ١٤٩). وبناء عليه؛ فتعريف سنة الله بكونها "عادته في خلقه" فيه نظر؛ لأن استخدام مصطلح (العادة) في حق الأفعال الإلهية ألصق بالأفعال الخاصة بالبشر كما رأينا في التعريف السابق للعادة.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، ١٦/ ٢٨٠.

(٥) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، اختصار: أحمد محمد شاكر، ٣/ ٣٢٦.

(٦) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن عجيبة، ١/ ٣٧٥.

(٧) زهرة التفاسير، ٦/ ٢٩٠٦.

(٨) التيسير في أحاديث التفسير، ٤/ ١٠٧.

- الشيخ الشعراوي (ت: ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م)–رحمه الله-: "السنن هي الطرق التي يصرف الله بها كونه بما يحقق مصلحة ذلك الكون؛ ليضمن للإنسان –السيد في هذا الكون- ما يحقق مصلحته. ومصلحة الإنسان تتمثل في أن يسود الحق في حياة الإنسان المختار كما ساد الحق في الكون المسيّر قبل الإنسان"(١).

وكل التعريفات السابقة متقاربة، تجمع على أن سنة الله هي: طريقته وحكمته وتدبيره لهذا الكون وما فيه.

٣- معنى السنن الإلهية في الفكر الإسلامي.

إن سنن الله جاءت تفك لغز الكون ومغزاه، وتكشف الغبش واللبس، وتحل المعضلات التي عجزت المدارس المادية الوضعية عن حلها؛ إنها بكل بساطة معايير ثابتة الجذور، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تتحقق بإذن ربها وقدره ومشيئته. فهي بناء مرصوص، لا تزعزعها العواصف ولا القواصم، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً ولا تغييرًا.

لنقف مليًّا عند بعض التعريفات المختلفة للسنن الإلهية:

- الإمام ابن قيم الجوزية –رحمه الله-: "سنته سبحانه وتعالى: عادته المعلومة"(٢).

- الشيخ محمد عبده –رحمه الله- هي: "الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون وعلى حَسَبِهَا تكون الآثار، وهي التي تسمى شرائع أو نواميس ويعبر عنها قوم بالقوانين"(٣).

- الأستاذ محمد جابري: "إنها جملة المواثيق والعهود التي عهد الله بها لكل شيء في هذا الوجود أو بعبارة أصح هي كلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر أو بعبارة أدق،

---

(١) تفسير الشعراوي، ٣/ ١٧٦٣.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لشمس الدين أبي عبد الله ابن قيم الجوزية، ٤٠٨.

(٣) انظر: "الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية"، محمد عبده، مجلة المنار، ١٦ جمادى الآخرة ١٣٢٠هـ، المجلد الخامس.

فالسنن هي أفعال الله تعالى"[١].

- الدكتور عبد الكريم زيدان: "هي الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة"[٢].

- الدكتور محمد أمحزون : "إن السنن عادات الله تعالى وكلماته التي لا مبدل لها في الكون، وهي مستخلصة من سلوك الظواهر نفسها المتسمة بالاطراد والشمول والثبات والصرامة"[٣].

- الدكتور مجدي عاشور: "سنة الله هي ما اطرد من فعل الله في معاملة الأمم بناء على أفعالهم وسلوكهم وموقفهم من شرع الله وأثر ذلك في الدنيا والآخرة"[٤].

- المفكر الإسلامي الشيخ جودت سعيد: "السنة قانون الله"[٥].

- الدكتور حامد محمد خليفة يقول: إنها "أقدار الله الحاكمة في الأرض وفي الخلق"[٦].

- الدكتور محمد السيسي: هي "النواميس والقوانين المطردة التي تحكم نظام الكون بما فيه الإنسان، وفق إرادة الله في خلقه"[٧].

- الدكتور عمر عبيد حسنه: "السنة هي: القانون المطرد الممتد، الذي لا يقبل التحويل، ولا

---

[١] انظر كتبه الآتية: التجديد في علم أصول الفقه بين السنن الإلهية وجهود الصادقين وانتحال المبطلين، ٦٦ و ٨١؛ والدراسات المستقبلية بين السنن الإلهية والدراسات المعاصرة، ٣٠؛ والعلوم الاحترازية والوقائية القرآنية دراسة مقارنة مع توقعات الدراسات المستقبلية لكل من فوكوياما وهتنغتون، ٢٧، ضمن سلسلة السنن الإلهية ضوابط العلوم والمعارف.

[٢] السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، ١٣.

[٣] في بحثه تحت عنوان: "الإعجاز السنني في القرآن الكريم"، الذي شارك به في المؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، والذي انعقد في دولة الكويت في الفترة من الخامس حتى الثامن من شهر ذي القعدة لعام ١٤٢٧، ٣٢.

[٤] السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم: أصول وضوابط، ٣٦.

[٥] العمل قدرة وإرادة، سلسلة سنن تغيير النفس والمجتمع، ٧٣.

[٦] الموقف من التاريخ الإسلامي وتأصيل الهوية، حامد محمد الخليفة، ٥٨.

[٧] "السنن الاجتماعية في القرآن الكريم"، مقال لمحمد السيسي، المنشور بمجلة رسالة القرآن –المغرب–، العدد الأول: الأول: محرم–صفر–ربيع الأول ١٤٢٥هـ/ مارس– أبريل– ماي ٢٠٠٤م، ٤٩.

التبديل"(١).

- الدكتور شريف الخطيب: "السنن الإلهية منهج الله في تسيير الكون وعمارته وحكمه، ونواميسه في سير الحياة الإنسانية، ونواميسه في إثابة الطائعين وعقاب المخالفين طبق قضائه الأزلي على مقتضى حكمته وعدله"(٢).

- الدكتور أحمد كنعان: "هي مجموعة القوانين التي سنها الله عز وجل لهذا الوجود، وأخضع لها مخلوقاته جميعًا على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها"(٣).

- الأستاذ محمد هيشور: "القوانين التي يسير وفقها الوجود كله، وتتحرك بمقتضاها الحياة، وتحكم جزئياتها ومفرداتها فلا يشذ عنها مخلوق وما في الكون ذرة أو حركة إلا ولها قانون وسنة"(٤).

- الدكتور بكار جاسم: السنة هي حكم الله المطرد في المكوَّنات؛ ذلك أن القول بـ"حكم الله" تأكيد لمرجعية السنة فهي تجري بحكم الله وأمره، وليست بحكم الطبيعة أو المجتمع أو الأنفس، فالفعل الحقيقي هو "الله تعالى".

والقول "بالمطرد"؛ أي: التتابع في جريان الحكم، والاطراد لا يعني الإلزام والجبر، بل مجرد التتابع؛ إذ لا مُلْزِم لحكم الله تعالى.

والقول "في المكونات" شامل للأنفس والمجتمع والطبيعة، فهذه كلها مكوَّنة بقوله: ((كن))"(٥).

---

(١) من فقه التغيير ملامح من المنهج النبوي، ٤٠.

(٢) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، شريف الخطيب، ١/ ٥ بتصرف يسير.

(٣) أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في خلقه، ٥٢.

(٤) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، محمد هيشور، ٢٧.

(٥) سنن الطبيعة والمجتمع في القرآن الكريم دراسة تأصيلية تطبيقية، بكار محمود الحاج جاسم، ٢٩.

- الدكتور علي محمد الصلابي: "السنن الربانية هي أحكام الله تعالى الثابتة في الكون، وعلى الإنسان في كل زمان ومكان"[1].

- وعرفتها بالقول: "سنة الله هي: إرادته الكونية، وأمره الشرعي، وفعله المطلق، وكلماته التامات، وحكمته في آفاق الكون وتسلسل التاريخ، الجارية بالعباد عبر رحلة الأعمار إلى المعاد".

وبناء عليه، فإن سنن الله ليست فقط ما عهده البشر وما عرفوه وما تم استنباطه والتوصل إليه، وما يعرف البشر من سنة إلا طرفًا يسيرًا يكشفه الله لهم بمقدار ما يطيقون وما يبذلون من جهودهم للتوصل إلى تلك السنن واستنباطها والوقوف عليها عبر الزمن الطويل، لكن هناك سنن أخرى وهي لا تعد ولا تحصى، وإن كان البشر يدركون بعضها لكنهم يدرجونها في الخوارق؛ لأنهم لم يعهدوها ولم يعرفوها، لكنها في ميزان الله، ليست هناك خارقة الكل يسير في فلك سنته وقدرته ومشيئته المطلقة.

خلاصة التعريف.

مما سبق ذكره من تعريفات في معنى السنن الإلهية يمكنني أن أخرج بتعريف جامع وشامل، فأقول السنن الإلهية هي: الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر -بناء على سلوكهم وتصرفاتهم وأفعالهم-، والنظام الذي أقام عليه الكون والحياة، والقوانين التي بثها في هذا الوجود وأخضع لها جميع مخلوقاته، وهي توصف بصفة الربانية والتكامل والشمول والثبات والتسخير والتوازن والانتظام والنفاذ والصلاحية لكل زمان ومكان.

ثانيًا: السنن الإلهية والقول بالصدفة.

كل شيء في الكون من دوران الكواكب وحركة النجوم، وما يحدث فيه من تقلبات وحركات تاريخية واجتماعية، ومن رقي أمم وانحطاط أمم أخرى، ليس هذا كله من قبيل

---

[1] السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث (دروس وعبر)، علي محمد الصلابي، ١/ ١٤٤.

الصدفة والعبثية كما يعتقد الماديون الجاهليون، وإنما كل ذلك يدور في فلك سنن الله التي لا محيد عنها ولا محيص، وليس ثمة حادث عارض في هذا الكون؛ إذ يسير في انضباط ووفق قوانين محكمة. والذين يرون أن كل ذلك فوضى لم يدركوا كنه سنة الله وحكمته سبحانه في خلقه؛ ذلك أنهم يعتمدون على عقولهم ويقطعون الصلة بربهم -الفعال لما يريد والمدبر الحكيم لهذا الوجود- ويفسرون كل ذلك تفسيرًا ماديًا مقطوعًا عن ربانيته التي يتحرك كل شيء في هذا الوجود بمشيئتها وقدرتها وفق سنن مطردة.

فليس ثمة صدفة؛ قال الحق جل وعلا: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (سورة القمر: ٤٩)، وكل التغييرات الحادثة بالليل والنهار هي وفق سنة الله العادلة.

وما ارتفعت الحضارات السابقة وازدهرت صدفة ثم سقطت وأبيدت صدفة وعبثًا، وإنما ارتفعت وسقطت وفق سنن الله التي ارتضاها لها.

ثم إن تفكير البشر إذا لم يدرك سنن الله في خلقه، وجهل جريانها على كل شيء في هذا الكون، فلا يعني ذلك نفي السنن وإثبات نقيضها؛ أي الصدفة.

"والأمة التي كتب لها النجاة من علل الاجتماع أو الشفاء منها عند الالتياث بها، تتعرف تلك السنن، وتطبق أعمالها عليها، والأمة التي أصيبت بالعمى الحضاري وقُدِّر عليها الاضطراب أو الفناء تغبى عن هذه السنن، وتتنكب طريقها، وتجري من أعمالها على غير هدى"[1]، وتظن أن الظواهر الاجتماعية والأحداث الكونية والوقائع التاريخية نهر من الصدف يصب في بحر العدم.

"إن فقه السنن الإلهية يقود إلى الإيمان بوجود غاية من وراء خلق هذا الكون وتسخيره للإنسان؛ فإن وجود قوانين تحكم سير الجماعات البشرية بضبط ودقة وانتظام، دليل على

[1] مهمة الدين الإسلامي في العالم: دعوته إلى تعرف السنن الإلهية في الجماعات البشرية، محمد فريد وجدي، مجلة الأزهر، القاهرة، السنة السادسة، الجزء الخامس، ١٣٥٤هـ، ٢٩٨. بتصرف.

وجود غاية من وراء خلق هذا الكون واستخلاف هذا الإنسان فيه، كما أنه دليل على انتفاء العبثية في الكون والخلق بأكمله.

إن حركة أي جماعة بشرية في التاريخ ليست اعتباطية، بل هي مسؤولة مسؤولية كاملة عن نتائج حركتها، وتبعات تصرفاتها، وهي مدعوة إلى القيام بعمل مدرك مخطط، يقف به الإنسان أمام الله بمسؤولية تجاه إعمار الكون ورقيه وتقدمه، وسيرًا على هدي الله الذي جاء به الأنبياء"[١]، ولولا اطراد هذه السنن وثباتها ذلك الانتظام في سيرها واستمرارها، لكانت الحياة نوعًا من العبث، وصورًا من اللعب والانفلات وانعدام الأهداف، ولكانت المصادفة والعشوائية هي التي تسود الحياة، ولما كان هناك ميزة ولا معنى لعقل العقلاء، ورسالات الأنبياء، ونصب الشرائع والقوانين التي تنظم مسالك الناس، ولما كان هناك فرق بين فعل الخير وثمراته، ومسالك الشر وعقابيله، ولا بين الصراط المستقيم والسبل المتفرقة التي تضل الناس وتصل بهم إلى التيه"[٢].

إن كثيرًا من العباد، بل كثيرًا من المسلمين-حاشا أهل الذكر والاطمئنان- يأتيهم الشيطان وتأتيهم الشكوك النفسية من قِبَل جهلهم بالقضاء والقدر أو غفلتهم عن الحكمة الإلهية في خلق الموت والحياة وما بينهما، وكثير من العباد ينسوْن أن الله عز وجل حكيم في أفعاله، وتدبيره دقيقٌ، وتصريفه لطيفٌ، وصنعه متقن. فلعل أحداثًا مما قدره سبحانه أو سنَّة ممّا سنه، مما يخرج عن نطاق الفهم البشري، ولا يدخل في منطق العامة، يصدِم العقول الغافلة الناشئة فتتهم حكمة الله بالخروج عن مقتضى العدل والإخلال بمقتضى النظام، فيظن الظانون الغافلون أن العالم فوضى وصدف وفرص، وأن ما ثَمَّ إلا صَنْعة العباد وتكايُدُهم وحروبهم وقوتهم وتطاحنهم. ويأسف العقل المريض على الفيضانات والكوارث والطفل المريض والعاهات

[١] حول إعادة تشكيل العقل المسلم، عماد الدين خليل، ٥٣.

[٢] حتى يتحقق الشهود الحضاري، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١: ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، ٧٤.

والمصائب وشقاء البشر في الحياة والمجاعات. ففريق يقضي بأن العالَم ملتقى الصدف، وأنه وما فيه عبث، وفريق من المسلمين يخطط ويدبر بإخلاص وصدق لينصر الله، وفي خياله المطموس بالعادة والغفلة أن قوة أعداء الله غَلَبَتْ، وأن ميزان القوى في العالم كِفَّةٌ منه راجحةٌ هي صنعُ الأعداء والكفة المرجوحة من صنع المسلمين، وكأن رب العزة غائب عن المعادلة.

هذا الوهم الناتجُ عن ظهور المخلوق على المسرح وغيبة الخالق عز وجل الذي لا تدركه الأبصار بلاءٌ بالغٌ وامتحان شديد لعقيدة المسلم وعلمه وعمله وسلوكه كله في الدنيا، ومصيرِه فيها وفي الآخرة[1].

وهكذا فإن سنن الله يخضع لها كل شيء في هذا الوجود حتى يستقيم على نسق يضمن استمرار الحياة ودوامها. ﴿وَعْدَ اللهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾(سورة النساء: ١٢٢).

وما ربك بظلام للعبيد، ويكفي ما وقع للأمم الغابرة، وما آل إليه أمر أمتنا الإسلامية في الفترة المعاصرة، من انحطاط وتخلف وتبعية ... ، ما هو إلا نتيجة إغفالها لهذه السنن.

ثالثًا: بين الإرادة والمشيئة الإلهيين.

إن الله إذا أراد شيئًا جعله أمرًا ساريًا مفعولاً، وسنة ماضية إلى يوم القيامة، وأما مشيئته فهي نافذة لا راد لها، وما شاءه الله كان، وما لم يشأه لم يكن، لكنه جل في علاه علق أشياء بمشيئته؛ شحذًا للذمم ورفعًا للهمم، وإيقاظًا للوسنان، وللإقبال على الحنان المنان.

ومن خلال استقرائنا لآيات القرآن الكريم وقفنا على بعض الأشياء التي علق الله جل وعلا عليها مشيئته:

- تخصيص من شاء برحمته: ﴿وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (البقرة: ١٠٥).

[1] الإحسان، ياسين، ١/ ١٢١-١٢٢.

- الهداية والاصطفاء والاجتباء: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾(البقرة: ٢٧٢). ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾(آل عمران: ١٧٩).

- المغفرة لمن يشاء: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٨٤).

- جمع الناس على الهدى وجعلهم أمة واحدة: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (المائدة: ٤٨).﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾(الأنعام: ٣٥).

- رفع الدرجات لمن شاء: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام: ٨٣).

- إيتاء ملكه من يشاء: ﴿وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٤٧).

- يورث الأرض من يشاء: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾(الأعراف: ١٢٨).

- تنزيل الملائكة بالروح على من يشاء: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (النحل: ٢).

- محوه ما يشاء...: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد: ٣٩).

- إيتاء الحكمة لمن يشاء: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ٢٦٩).

- إيتاء الفضل من يشاء: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٧٣).

والله الذي يمحو ما يشاء ويثبت، وهو الذي جعل لهذا الكون نواميس وسننا، لا تعرف التبديل ولا التغيير، فلا عبث في قانون الله ولا لعب، وكل شيء عنده بمقدار، ولا

يخلف الله وعده. وهذا لا يعني تقييد فعله سبحانه وتعالى، الذي يفعل ما يشاء في ملكه وهو العزيز الحكيم، لكن وفاء بوعده، ومن جملتها سنن الله تعالى التي قال فيها: ﴿سُنَّةَ اللهَّ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهَّ تَبْدِيلًا﴾ (الفتح: ٢٣).

وإن مشيئة الله تعالى التي تجري في العالم لا تكون إلا بمقتضى سننه في ارتباط الأسباب بمسبباتها، والنتائج بمقدماتها.

وهكذا فإن إسناد الأمور إلى مشيئة الله تعالى لا يعني في حال من الأحوال الخروج عن مقتضى السنن الإلهية التي أقام الله تعالى عليها نظام الكون والحياة، ومِن ثَمَّ لا يجوز للمسلمين تبرير تقصيرهم في أمور حياتهم، ونسبة هذا التقصير إلى مشيئة الله تعالى للتهرب من المسؤولية، فهذا الأمر لا يجوز شرعًا، ولا ينطبق البتة على حقيقة المشيئة الإلهية[1].

يقول الشيخ محمد رشيد رضا(١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م): "إن من الناس من يظن أن معنى إسناد الشيء إلى مشيئة الله تعالى هو أن الله تعالى يفعله بلا سبب ولا جريان على سنة من سننه في نظام خلقه، وليس كذلك فإن كل شيء بمشيئة الله تعالى ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: ٨)؛ أي: بنظام وتقدير موافق للحكمة ليس فيه جزاف ولا خلل... ولا يصح لنا الاعتذار بمشيئة الله عن التقصير في إصلاح شؤوننا اتكالاً على ملوكنا ؛ ذلك أن مشيئته تعالى لا تتعلق بإبطال سنته تعالى وحكمته في نظام خلقه"[2].

وفي ضوء ما سبق، فإن "النظام الكوني كله، والإنسان جزء منه بكل ما فيه حتى إرادته الحرة، واقع ضمن مشيئة الله وهي محيطة به، فبإرادة الله وجد، وبإرادته قدرت خططه وسننه وقوانينه، ولهذا كان عالمًا به قبل حدوث حوادثه؛ لأنه هو المقدر للسنن التي تجري هذه الحوادث تبعًا لها، كالمهندس يقدر لآلة يصنعها صرعةً معينة واتجاهًا معينًا، فهو يعرف لذلك

[1] انظر: مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي، محيي الدين، ١٣٦.
[2] تفسير المنار، ٢/ ٣٧٩-٣٨١.

موقعها قبل أن تكون فيه، والله مقدر سنن الكون، والقاضي بحدوث حوادثه حين تحدث وفقًا لتلك السنن، فهو يعرف قَدَرَها المقدر لها، وقضاءها حين تقع"[١].

رابعًا: السنن الإلهية والجبرية.

إن حاكمية السنن الإلهية –التي لا تبديل لها ولا تحويل- لا تعني الجبرية التي تجرد الإنسان من حريته واختياره، وتسخره لقوانين هذه السنن، وإنما تعني أن وعي الإنسان بقوانين هذه السنن وقواعد حركتها هو الذي يجعل الإنسان قادرًا على تسخيرها في الاتجاه الذي يريد؛ ذلك أن كل ما في هذا الكون –بما في ذلك السنن والقوانين- هو مُسَخر من الخالق سبحانه وتعالى للإنسان الذي استخلفه الله لحمل أمانة عمارة هذه الأرض، وفق الشرائع والقوانين التي وضعها الله.

فاكتشاف السنن، والوعي بقوانين حركتها، هو الذي يحقق سيطرة الإنسان عليها، ويجعله قادرًا على مغالبتها وتسخيرها في أداء الأمانة التي استخلفه الله للنهوض بها، بينما غفلة الإنسان عن هذه السنن وغيبة وعيه عن قوانين حركتها هي التي تجعله ضحية لهذه القوانين التي لا تبديل لها ولا تحويل، حتى ولو حسنت نوايا هذا الإنسان، وعاش غارقًا في بحار الأمنيات والأحلام...[٢].

إن السنن الإلهية ليست قوالب صلبة قسرية يُصبّ فيها الإنسان فتفقده حرية اختياره وكرامته وتميزه عن سائر المخلوقات، وإنما هي دينامية فاعلة متفاعلة، تتولد عن تدافعها حركة الحياة وتميز الأشياء، وتمنح العقل القدرة على المغالبة وتوليد الحلول ودرء المشكلات[٣].

---

[١] نظام الإسلام، العقيدة والعبادة، محمد المبارك، دار الفكر، دمشق، ط١: ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ٨٥-٨٦.

[٢] المذهب الإصلاحي عند محمد عبده، محمد عمارة، ٧٦.

[٣] المنهج السنني أفق حضاري متجدد، ٢٥.

وعليه؛ فإن السنن في مجال المادة والكون والأحياء هي أشبه ما تكون بقضبان الحديد التي يسير عليها القطار، وتحكم وجهته بصرامة، حيث لا يستطيع أن يعدل عنها أو يخرج عليها، فإذا حاد عنها تعرض للخطر، بينما السنن التي تحكم قضايا الإنسان هي أقرب لحركة السيارة التي تحدد الاتجاه والهدف، ويمتلك السائق معها حرية الحركة أكثر في الوصول إلى غايته، وكل محكوم باتجاه، وإن اختلفت طبيعة حركته ومداها[١].

ولعل من الرحمة الإلهية بالإنسان والتكريم له أن تكون السنن والقوانين التي تحكم حركته وتنظم منهاج حياته توجهات عامة دون التفاصيل الدقيقة، وبذلك تتضاءل الأخطاء ويمكن تجنبها، وتكون مساحة التفاعل والانفعال والحرية أوسع مدى، ومن ثم يكون أهلاً للمسؤولية والتكليف وتحمل تبعات أعماله في الدنيا والآخرة[٢] ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (فصلت: ٤٦).

خامسًا: مصادر المعرفة السننية.

فيما يأتي بيان لأهم المصادر التي تساعد على كشف السنن الإلهية:

١ - القرآن الكريم (الكتاب المسطور).

إن القرآن الكريم هو الكتاب الإلهي الأول الذي مكّن من ظهور مفهوم السنن الإلهية وتبلوره على المستوى النظري والعملي من خلاله، وهو المصدر الذي أسبغ المشروعية الكاملة على هذا المفهوم، وأعطاه مكانة محورية رئيسة في العقل[٣].

والقرآن الكريم في كثير من آياته يدعو الإنسان إلى التفكر والتدبر لسنن الله في الأنفس والآفاق، والكشف عن دلالتها التاريخية والحضارية والاجتماعية والنفسية.

---

[١] مراجعات الفكر والدعوة والحركة، عمر عبيد حسنة، ٩.

[٢] السنن الإلهية، مجدي عاشور، ٥٥.

[٣] مفهوم السنن في الفكر الإسلامي، حازم محي الدين، ٣٢.

بل إن لفظة "السنة" وردت في القرآن الكريم ست عشرة مرة ورودًا صريحًا مباشرًا في سياق ذكر الأمم الغابرة والمجتمعات السابقة، ولم يكتف القرآن الكريم بهذا، بل جعل القصص القرآني كله ميدانًا وساحة لاستعراض السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، ودعا أولي الألباب والبصائر إلى الاعتبار واستلهام الدروس واستمداد السنن منها، وسبر أغوار هذه الوقائع لتبين أسباب الهلاك والبوار، وأسباب التقدم والاستمرار، وضرب لنا الأمثال ليوضح عدالته ونفاذ سننه وصرامتها واستمرارها في الخليقة، وعدم مجاملتها لأحد.

وملاك الأمر إن الله تبارك وتعالى خصص الكثير من سور القرآن الكريم للحديث عن قصص الغابرين، لينبهنا ويلفت أنظارنا إلى ما آلت إليه تلك الأمم من تغير أحوالها إيجابًا أو سلبًا حين اختارت لنفسها طريقًا معينًا، ولينبهنا كذلك إلى أن المجتمعات البشرية محكومة بنوع من السنن والنواميس المطردة الثابتة العامة، التي تضبط حركتها وتطورها، وتحدد مصيرها في النهاية.

وهكذا فإن ما وقع للأمم والمجتمعات الماضية "التي تكررت وقائعها رغم اختلاف أشكالها وتباين الظروف الزمنية والمكانية التي وقعت فيها، يسجل القرآن الكريم وجود قانون أو سنة كونية مطردة تحكم سير هذه المجتمعات كما دل على ذلك استنطاق جزئياتها؛ إذ يصرح القرآن أن لله سننًا في الأمم والجماعات، يدعو إلى التفكير فيها والتدبر في مغزاها واكتشاف دلالتها الاجتماعية ولمس معانيها التاريخية...فالحديث القرآني يكشف على أن هناك حوادث تاريخية متشابهة في دلالتها ومضمونها وإن اختلفت في شكلها، وهذا التماثل هو الذي يضمن لهذه الحوادث نوعًا من التكرار والاطراد، ومن ثم يخبر القرآن الكريم أن هذا الاطراد غير قابل للتبديل والتحويل.

وهذه السنن لها وظيفة اجتماعية هامة فهي تكشف عن أسباب الخلل وتزيل الستار عن أسباب الدمار وتثير في الإنسان فطرة الخير والصلاح، وتدعوه إلى الاستقامة ومراجعة مواقفه

ووقفاته والعمل على ضبط حركاته، ومن جهة أخرى تكشف هذه السنن عن تجربة تاريخية كاملة تجد فيها الشعوب والجماعات ما ينير طريقها ويفتح بصيرتها للوقوف على نتائج اختيارها"[١].

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: "لم يعرف كتاب قبل القرآن نطق بأن للأمم في قوتها وضعفها وحياتها وموتها سننًا ثابتة لا تتبدل ولا تتحول"[٢].

ولذلك فقد "قدمت معرفة الوحي في الكتاب والسنة الخلاصات والنماذج المطلوبة من قصص الأنبياء التي تعد منجمًا زاخرًا بالعبر والدروس، وعطاء لا ينفذ للتدافع والصراع بين الخير والشر، والنتائج والمآلات التي تحققت وفق هذه السنن الإلهية في التاريخ الذي يعد المختبر البشري الدقيق لفاعلية هذه السنن"[٣].

والحاصل أن الفهم العميق للسنن الإلهية يمكننا من دراسة الأحداث دراسة متأنية تنظر إلى القرآن من زاوية: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾([العلق: ٢]، وتنظر للكون من زاوية أخرى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[الروم ٥٠] .

وهي الرؤيا التي تجعلنا نعيش تلك الرابطة القوية والعلاقة المتينة مع الله ؛ فهما لفرائض الوقت ومتطلبات ظرفي الزمان والمكان، بل نتعداها لنلمس من كثب ترابط الأشياء بمسبباتها حتى نكون على بينة من ربنا، ونجنب أنفسنا أسباب سقوط الحضارات وتقلبات أيامها، ونكون بعلم على بينة من أسباب الهزائم ودروبها، لنرى وبصدق بأننا أمام عالم مجنون يبذر خيرات البلاد، ويبددها عبثًا، ويهدم الحضارات، وينتحر وهو مصر على ذلك، وتحسبهم أيقاظًا وهم رقود.

[١] منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، محمد محمد أمزيان، ١٨٩-١٩٠. بتصرف يسير.

[٢] الحق والباطل والقوة، مجلة المنار، غرة المحرم ١٣٢٤هـ، ٥٥.

[٣] أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات في سورة الأعراف، عبد الحميد محمود طهماز، ٩٤.

وإذا تسلحنا بسلاح فقه السنن والفهم عن الله سننه الأمرية والكونية وترابطهما الوثيق، كنا على بينة وعلم من ربنا وأسعفنا ذلك لدخول باب التاريخ لنزداد يقينًا وتصديقًا بكتاب ربنا.

"ومهما يكن من أمر فقد قدم لنا القرآن الكريم نماذج عديدة للمعطيات التاريخية، وحدثنا عن الماضي في جل مساحاته، لكن ما يلبث أن يخرج بنا إلى تبيان (الحكمة) من وراء هذه العروض، وإلى بلورة عدد من المبادئ الأساس في حركة التاريخ البشري، المستمدة من صميم التكوين الحدثي لهذه العروض، تلك المبادئ التي سماها (سننًا)، ودعانا أكثر من مرة إلى تأملها واعتماد مدلولاتها في أفعالنا الراهنة، ونزوعنا المستقبليّ.

ومن ثم يتأكد لنا مرة أخرى أن هذه العروض ما جاءت لكي تلقي المتعة في نفوس المؤمنين، كما هو الحال في أي نشاط فني، قبل أن تبرز للعيان الاتجاهات التعليمية الحديثة في ميادين الفنون؛ إنما جاءت لكي (تعلمهم) من خلال تجاربهم الماضية و(تحركهم) عبر الأضواء الحمراء والخضراء التي أشعلتها لهم هذه التجارب في طريق الحياة المزدحم الطويل"[1]، ولتكون نبراسًا يستضاء به، ويقتبس منه صدق المسار أو انحرافه.

ومن هنا تأتي أهمية القرآن الكريم في الكشف عن السنن الإلهية؛ حيث نستقي منها الرؤية الصحيحة للكون، والتي تتلخص في أن الكون قد أُبدع بإرادة إلهية.

أضف إليه الأهمية الثانية التي تتجلى في رفع المظنة للرؤية الكونية إلى درجة المئنة، فأخبار الوحي ثابتة لا تتبدل ولا تتحول، بخلاف النظرة العلمية والفلسفية، فكثيرًا ما تأتي أحكامها متضاربة ومتخالفة.

وكذلك الشأن في سنن المجتمع، فالوحي يعمق فكرتنا عن تجارب الأمم السالفة، فيأتي بخلاصة شاملة وافية، وإذا كان القرآن الكريم يفيدنا في معرفة الواقع والماضي، فكذلك

[1] التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل، ٩٧-٩٨.

يفيدنا في معرفة المستقبل، وهذه هي الأهمية الثالثة للوحي في صياغة السنن الإلهية، وهي التنبؤ بما سيكون عليه الكون، سواء أكان ذلك في الآفاق أم الأنفس أم المجتمع.

وخلاصة القول: إن الأصل في السنن الإلهية الغيب، وبالوحي أو العلم يكتشف بعضها، وما يُكتشف منها بالعلم لا يخلو من الغيب أيضا، وذلك بشهادة أهل العلم أنفسهم، والحكمة في ذلك –والله تعالى أعلم– ليكون الإنسان باحثًا وراء تلك الأسرار فيكتشف منها ما يدل على أن مدبرها هو الله سبحانه وتعالى[1].

٢– السنة النبوية.

إن للسنة النبوية الشريفة أهمية كبرى في معرفة السنن الإلهية، فمنها نستقي الرؤية الصحيحة للكون والحياة، باعتبارها التجلي العملي الحي للقرآن الكريم، والتفسير التطبيقي لسننه وقوانينه ومقاصده.

ولذلك فالسنة النبوية الشريفة غنية بالتوجيهات النبوية في الدلالة على السنن الإلهية، يكفي أن السيرة العطرة ساحة كبرى تجلت فيها هذه السنن الإلهية في جانبها العملي التطبيقي، أضف إليه توجيهه ﷺ إلى معرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها، والنتائج بمقدماتها. وحديث تأبير النخل والكسوف والخسوف والأمراض الخطيرة التي تصيب الأمة والجفاف والقحط وكثرة الموت وغير ذلك دليل واضح على الدعوة إلى معرفة الأسباب الصحيحة وراء الظواهر الكونية والاجتماعية.

أضف إليه العشرات من أحاديثه ﷺ الشريفة التي تتحدث عن المستقبل وتحقق تنبؤاته إذا توافرت شروطها، وأحاديثه ﷺ التي تذكر بقصص السابقين من المؤمنين والكافرين؛ بغرض الاعتبار والوقوف على سنن الله تعالى في الهدى والضلال، والحق والباطل.

أضف إليه نهيه وتحذيره ﷺ التنبؤات القائمة على التخمين والتنجيم، والتعليلات

---

[1] سنن الطبيعة والمجتمع في القرآن الكريم، بكار جاسم، ٧٧ وما بعدها.

الأسطورية؛ وذلك لما يترتب عليها من نتائج سيئة على أفكار الأمة وحياتها، مع تناقضها والمنهج العلمي في البحث والتجربة.

وخلاصة القول: إن السنة النبوية هي المصدر الثاني للكشف عن السنن الإلهية، كيف لا وهي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، والبيان العملي لما جاء في القرآن الكريم من سنن الله في الكون والحياة.

٣- التاريخ.

إن التاريخ هو السجل المستمر لدورة الحياة، وحركة الأحياء وتقلبات الزمن؛ ولذلك حض القرآن الكريم الإنسان وحثه على دراسة علم التاريخ، ومتابعة حركة المجتمعات والأمم فيه في أطوار تكونها ونشأتها ونموها وانحطاطها وسقوطها وموتها، من خلال الدعوة إلى السير في الأرض لاكتشاف سنن الله تعالى في الأمم والأفراد والجماعات عن طريق استقراء الوقائع التاريخية والحوادث الزمنية، والبحث عن القوانين التي تحكم الأحداث من الداخل؛ أي: البحث عن السنن التي أجرى الله تعالى عليها حركة التاريخ ونظام الأفراد والأمم والجماعات؛ لأن هذه نفسها ستتكرر معنا، "والتاريخ يعيد نفسه"(١).

يقول مؤرخنا الحكيم عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله: "اعلم أنّ فنّ التّأريخ فنّ عزيز المذهب، جمّ الفوائد، شريف الغاية؛ إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتّى تتمّ فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدّين والدّنيا، فهو محتاج إلى مآخذ متعدّدة ومعارف متنوّعة وحسن نظر وتثبّت يفضيان بصاحبهما إلى الحقّ، وينكّبان به عن المزلّات والمغالط"(٢).

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا: "التاريخ هو المرشد الأكبر للأمم العزيزة اليوم إلى ما

---

(١) انظر: مفهوم السنن في الفكر الإسلامي، حازم محي الدين، ٣٨.

(٢) تاريخ ابن خلدون، ١/ ١٣.

هي فيه من سعة العمران وعزة السلطان، وكان القرآن هو المرشد الأول للمسلمين إلى العناية بالتاريخ ومعرفة سنن الله في الأمم منه، وكان الاعتقاد بوجوب حفظ السنة وسيرة السلف هو المرشد الثاني إلى ذلك، فلما صار الدين يؤخذ من غير الكتاب والسنة أهمل التاريخ، بل صار ممقوتًا عند أكثر المشتغلين بعلم الدين، فإن وجد من يلتفت إليه، فإنما يكون متبعًا في ذلك سنة قوم آخرين"[1].

ويقول الدكتور عمر عبيد حسنة: "التاريخ هو المختبر الحقيقي في إطار علوم الإنسان، وهو الأب الشرعي لكل العلوم الاجتماعية التي لابد من الإحاطة بها، والرسوخ فيها، ومعرفة قوانينها وسننها التي تحدد المداخل الصحيحة للشهادة على الناس، وتقود إلى صناعة تاريخية مستقبلية علمية بعيدة عن التنبؤ والظن والتخرص.

إن طلب السير في الأرض، والنظر في العواقب والمآلات، جعله النص الإلهي من الفروض الكفائية التي تُفضي إلى التبيُّن والتبصُّر، والاهتداء إلى السُّنن الاجتماعية في السقوط والنهوض، واختزال التاريخ الإنساني، وتحقيق الاعتبار، وإضافته إلى عمر الأمة المسلمة وتجربتها، لحقق الوقاية الحضارية، وتتعظ بأحوال السابقين"[2].

ولذلك فإن التوغل في التاريخ، واكتشاف قانون الحركة الاجتماعية، وقراءة دروس التاريخ وعبره، منذ بدء الخليقة وحتى نهايتها، حتى النشأة الآخرة، هو أمر وتكليف من الله سبحانه وتعالى، والنظر والتفكير هو عبادة وطاعة لله، وميدان ذلك ووعاؤه هو تاريخ الحياة والأحياء واستكناه سنن الله في الأنفس والآفاق، الممتدة إلى يوم القيامة، والنظر في فضاء لا حدود له وجوانب سيرورة الحياة بكل تنوعاتها.

ذلك بأن الهدف من السير والنظر واضح، فهو ليس دعوة إلى غيبوبة وانحباس في

---

[1] تفسير المنار، ١/ ٢٥٨-٢٥٩.

[2] الشاكلة الثقافية مساهمة في إعادة البناء، ٨٢.

الماضي، وإنما يتمثل ويقصد إلى استصحاب التجارب والمعارف والكشوف والمعلومات لتحقيق الاعتبار؛ والاعتبار يرشد إلى الصوابية في بناء الحاضر، ويمنح القدرة على عبور الحاضر إلى استشراف المستقبل، وامتلاك الرؤية على تصويب الخلل، وتجنب الإصابات، واكتشاف أفق جديد للنهوض الحضاري من خلال الإمكانات المتاحة والظروف المحيطة.

ولعلنا نسارع إلى القول: إن هذه الفريضة من التفكير في سيرورة الحياة وتاريخ الأمم والشعوب وقيام الحضارات وسقوطها، هو السبيل لاكتشاف السنن التي تحكم الحياة، وقوانين السقوط والنهوض، والقواعد الاجتماعية والنفسية والمادية التي تحكم الحياة والأحياء؛ فالتاريخ يبقى هو المصدر الأساس لاكتشاف السنن والقوانين في الأنفس، وهو المختبر الحقيقي للفعل البشري والتأكد من فاعلية السنن، والنظر في العواقب والمآلات[١].

وعليه؛ فإن دراسة التاريخ ليست مجرد سرد للوقائع والأحداث، وإنما هي دراسة تستهدف تفسير وقائع وأحداث التاريخ، من أجل استخلاص الدروس والعبر التي تساعد الإنسان على تعرف أمثل الطرق لتنظيم حياته على النحو الذي يحقق له الخير في الدنيا والآخرة[٢].

وعلاوة على ذلك، فإن الفترة الحرجة التي تجتازها أمة الإسلام اليوم تحتاج إلى رؤية واضحة لتاريخها يضيء لها معالم الطريق وآفاق الطموح.

ونحن أمة عريقة مرت بها على مسار تاريخها الطويل عصور ازدهار وانحطاط، سايرت يقظتها ووعيها أو غفوتها وخمولها، وهي لا تستطيع أن تحمي وجودها وتتابع سيرها على مراقي تقدمها، ما لم تستقرئ ماضي خطواتها على درب الزمن، وتدرك سر قوتها وبقائها، وعوامل ضعفها وذرائع تخلفها[٣].

---

[١] المنهج السنني، عمر عبيد حسنة، ٣٩-٤٠.

[٢] أضواء على الاقتصاد الإسلامي (١١)؛ المدخل لدراسة التاريخ الاقتصادي والحضاري رؤية إسلامية، حسين غانم، ٥.

[٣] القرآن وقضايا الإنسان، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، ٢٦١.

إننا ونحن نبحث عن سبل القيام والنهوض لا نستطيع أن نتخطى تاريخنا، فأخذ الدروس واستلهام العبر من التاريخ من سمات أولي الألباب، فكيف نبني حضارة وعمرانًا دون البحث في سنن التاريخ للوقوف على أسباب بناء الحضارات واستمرارها، وازدهارها واستقرارها.

وعليه، فإن أغفلنا دروس التاريخ، ولم نأخذ العبرة منها كانت حركاتنا وسعينا دوَّامة تتكرر فيها مآسي الماضي.

ولله دَرُّ أمير الشعراء القائل:

"اقــرأ التاريخ إذْ فيه العِبَرْ ضاع قومٌ لا يدرونَ الخبر"[١]

لذلك يجب أن نتدبر جيدًا، ولا نقفز فوق تاريخنا كي لا تفوتنا العبرة والاستبصار، وكي لا يختلط علينا الأصل بالفرع والظاهر بالباطن واللب بالجوهر ؛ إذ بفوات ذلك نرتطم بالواقع الذي نريد تطهيره وبناءه، بدءًا من أنفسنا؛ إذ تغيير الواقع مرتبط بتغييرها.

ولهذا فقراءتنا للتاريخ قراءة قرآنية كفيلة وحدها بأن تكتشف مواطن الخلل وتحصر آلام الحاضر وهزائمه ونكساته وانكساراته في أبعادها النسبية.

ذلك بأن المتفقه في سنة الله، والدارس للتاريخ بهذه النظرة الثاقبة والعقلية الواعية "يستطيع أن يسعى للحصول على سنن التمكين، والابتعاد عن سنن التدمير، واقتفاء سنن الصالحين والمجاهدين، واجتناب سنن المجرمين المفسدين، كما هو مقرر -بأن التاريخ يعيد نفسه- فمن عرف سنن الله في خلقه والتزمها زادته صلابة وقوة في المواقف التي ترضي الرب تبارك وتعالى بخلاف من يجهلها؛ لأن من يجهل مصدر الأحداث وسنن الله ﷻ فإنه يكون في حيرة وقلق لا يعلمه إلا الله!!"[٢].

---

[١] ديوان شوقي، أحمد شوقي، قصيدة رسالة الناشئة، ٤/ ٢٠٠.

[٢] صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي، علي محمد الصلابي، ١/ ٢٣.

ومجمل القول: باستقراء التاريخ وفهم الراهن يمكن للإنسان أن يقف على معرفة علمية سننية عن هذا الكون والحياة، وعن مسيرة التاريخ وحركات المجتمعات والواقع البشري.

٤- الكون (الكتاب المنظور).

لقد حمل القرآن الكريم الإنسان المسؤولية لاتباع الطريق الذي رسمه في كتابه الحكيم، ودعاه إلى السير في الأرض والتفكر في آيات الكون لاستكشاف السنن الإلهية الأخرى المبثوثة في الكون والمجتمعات، ودعاه إلى دراستها عن طريق تقليب النظر في الكون، وإعمال التجربة، وكل وسائل المعرفة فيه، وتسخير كل ما يصل به إلى معرفة قانون مصلحة الإنسان وسعادته[١].

وقد دعانا القرآن الكريم إلى النظر إلى الآيات الكونية من زاوية ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ...﴾ [الروم: ٥٠]. فرحمة الله لا يمكن إبصارها، ولكن آثارها تبقى بارزة في الأرض.

والقرآن الكريم كتاب الله تعالى يحثنا على السير في الأرض حثًّا لا مزيد عليه في سبعة أوامر مفادها:

١- ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١].

٢- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩].

٣- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

٤- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢].

٥- ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

---

[١] مفهوم السنن في الفكر الإسلامي، حازم محي الدين، ٣٨.

٦-﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [سورة النحل: ٣٦].

٧-﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ﴾ [سورة سبأ: ١٨].

ولم يكتف سبحانه وتعالى بحثه البشرية للسير في الأرض ودراسة أحوال الأمم الغابرة ومصائرها ومصارعها، والاعتبار بما جرى لها، لتدرك عاقبة الأمور؛ بل استنكر عليها قعودها لتلمس من كثب ما يزيدها يقينا ويعطيها قوة إيمان لا تتزلزل عندما تزيغ قلوب فريق من الناس. لنستمع إلى كتاب ربنا وهو يردد على مسامعنا آيات بينات تستحث هممنا للسير في الأرض في مهمة الكشف عن السنن الإلهية ومحاولة تسخيرها والعمل بمقتضاها:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة يوسف: ١٠٩].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[سورة الحج: ٤٦].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[سورة الروم: ٩].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾[سورة فاطر: ٤٤].

﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ﴾[سورة غافر: ٢١].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾([سورة غافر: ٨٢].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [سورة محمد: ١٠].

يقول الأستاذ عمر عبيد حسنة: "إن طلب السير في الأرض، والنظر في العواقب والمآلات، جعله النص الإلهي من الفروض الكفائية التي تُفضي إلى التبيُّن والتبصُّر، والاهتداء إلى السُّنن الاجتماعية في السقوط والنهوض، واختزال التاريخ الإنساني، وتحقيق الاعتبار، وإضافته إلى عمر الأمة المسلمة وتجربتها؛ لتحقق بذلك الوقاية الحضارية، وتتعظ بأحوال السابقين"[١].

وهنا من الأهمية بمكان التنبيه إلى أن أداة التعامل مع الوحي تختلف –إلى حد ما– عن أداة التعامل مع هذا المصدر (الكون)، فالوسيلة التي تكتشف بها السنن الإلهية من القرآن والسنة، هي حسن الفهم والاجتهاد، وصواب الاستنباط من نصوص الوحي، طبعًا مع عرض هذا الاستنباط على الواقع، وتأكيده من خلال شواهد التاريخ. أما هذا المصدر فوسيلته النظر العقلي الحر، والتفكير العلمي المستقل في ملاحظة الظواهر الكونية، واستقراء الظواهر البشرية والاجتماعية، هذا مع العلم أن القرآن الكريم نفسه هو الذي دعا إلى استخدام العقل والتفكير والبحث عن هذه السنن، وذكر عددًا وافرًا من هذه السنن في جميع المجالات والوقائع المادية والبشرية والاجتماعية، بالإضافة إلى أنه يمكننا التأكد من صواب اكتشافاتنا واستنتاجاتنا السننية

[١] الشاكلة الثقافية مساهمة في إعادة البناء، ٨٥.

في الكون والواقع من خلال عرضها على السنن المستنبطة من القرآن الكريم، وعدم معارضتها لما قرره، على اعتبار أن السنن القرآنية هي سنن قطعية تصلح أن تكون معيارًا للسنن المستخرجة بجهود بشرية محضة تبقى عرضًا للظن والاحتمال[١].

[١] انظر: مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي، حازم محيي الدين، ١٢٣؛ ومنهج البحث الاجتماعي، محمد أمزيان، ٢٧٦ وما بعدها.

المبحث الثاني

أقسام السنن الإلهية

بتتبع الآيات القرآنية المتعلقة بالسنن الإلهية نجد أنها تنقسم باعتبار مجال تطبيقاتها وسريانها إلى أربعة أقسام.

١ - السنن الكونية (آيات الآفاق).

قال الله تبارك وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: ٥٣).

﴿في الآفاق﴾ ما أخبر الله تعالى به من آياته في السَّمَوَات وَالْأَرضين، وَذَلِكَ من رفع السَّمَاء، وَخلق الْكَوَاكِب، ودوران الْفلك، وإضاءة الشَّمْس وَالْقَمَر، وَمَا أشبه ذَلِك، وَكَذَلِكَ بسط الأَرْض، وَنصب الجِبَال، وتفجير الْأَنْهَار، وغرس الْأَشْجَار، إِلَى مَا لَا يُحْصى"[١].

قال الرازي: "إِنَّ الْمُرَادَ بِآيَاتِ الْآفَاقِ: الْآيَاتُ الْفَلَكِيَّةُ وَالْكَوْكَبِيَّةُ وَآيَاتُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآيَاتُ الْأَضْوَاءِ وَالْإِظْلَالِ وَالظُّلُمَاتِ وَآيَاتُ عَالَمِ الْعَنَاصِرِ الْأَرْبَعَةِ[٢] وَآيَاتُ الْمَوَالِيدِ الثَّلَاثَةِ[٣]"[٤]. أي كل الآيات الموجودة في العالم الأعلى والأسفل.

فالآية الكريمة تستوعب المستقبل كله، مستقبل مَنْ عاصر نزول القرآن، ومستقبل مَنْ يأتي بعد إلى قيام الساعة، بل مستقبل مَنْ تقوم الساعة عليه.

---

[١] انظر: تفسير السمعاني، ٥/ ٦١. وتفسير الماوردي، ٥/ ١٨٩.

[٢] يقصد بالعناصر الأربعة: الماء والأرض والنار والهواء.

[٣] يقصد بالمواليد الثلاثة: المعادن والنبات والحيوان.

[٤] تفسير الرازي، ٢٧/ ٥٧٣.

فالقرآن الكريم لم ينزله الله ليُفرغ كل أسراره وكل معجزاته في قَرْن واحد، ولا في أمة واحدة، ثم يستقبل القرون والأمم الأخرى دون عطاء، الله يريد للقرآن أنْ يظل جديدًا تأخذ منه كل الأمم وكل العصور، وتقف على أسراره ومعجزاته وآياته في الكون[1].

وخلاصة القول: سنن الكون هي: القوانين الحاكمة في الطبيعة وفي العالم المادي وفي نظام الكون وتركيبه، وتسمى الآيات الكونية، وآيات الآفاق، والسنن الطبيعية، وتسمى بلسان العصر علوم الفلك والفضاء والأرض والبحار والأحياء.

وهذا النوع من السنن "تخضع له جميع الكائنات الحية في وجودها المادي وجميع الحوادث المادية، ويخضع له كيان الإنسان المادي وما يطرأ عليه مثل نموه وحركة أعضائه ومرضه وهرمه ولوازم بقائه حيا ونحو ذلك"[2].

وهذه السنن الآفاقية جميعها تمثل إعجازًا قرآنيًا خالدًا، وقانونًا ثابتًا ومطردًا، يمثل قوانين الحياة الأساسية التي سخرت للإنسان.

وقد وجه القرآن الكريم عناية كبيرة للسنن الكونية وحث الأمة على السعي لاكتشافها وتسخيرها.. "فمن زرع وأحسن اختيار البذور، واختيار التربة وروى بنظام يأتي له الزرع بالثمر لأنه أخذ بالأسباب، وهذا اسمه عطاء الربوبية وهو عطاء عام لكن مَن خلق الله، مؤمنًا كان أو كافرًا، عاصيًا أو طائعًا، لكن عطاء الألوهية يكون في اتباع المنهج بـ(افعل ولا تفعل) وهذا خاص بالمؤمنين، فإذا ما أحسنوا استعمال أسباب الحياة في السنن الكونية يأخذون حظهم منها، والكافرون أيضًا يأخذون حظهم منها؛ إذا أحسنوا الأخذ بالأسباب. ويكون ذلك بتخليد الذكرى وإقامة التماثيل لهم، وأخذ المكافآت والجوائز وحفلات التكريم. أما جزاء الآخرة فيأخذه من عمل لرب الآخرة، وأما من لم يفعلوا من أجل لقاء الله

[1] تفسير الشعراوي، ١٩/ ١١٥٦٩.
[2] السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، عبد الكريم زيدان، ٧.

فهو سبحانه يقول في حقهم: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً﴾ [الفرقان: ٢٣]"[١].

وهكذا نجد سنن الكون سخرت للإنسانية كلها، والدين الإسلامي أرشد إليها "وأمر بالنظر في الكون والتفكر والاعتبار، وفصل ما تمس إليه الحاجة، وهدانا إلى أن لكل عمل أثـرًا لا يتعداه، وأن الأسباب مربوطة بمسبباتها، وكل سبب يفضي إلى غاية، والأمور الدنيوية لا يمنعها الله عن طلابها إذا أتوا البيوت من أبوابها، والتمسوا الرغائب من طرقها وأسبابها، سواء أكانوا مؤمنين أم كافرين، وإنما الإيمان شرط للمثوبة في العقبى وكمال السعادة في الدنيا[٢]: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هؤلاء وهؤلاء مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [الإسراء: ٢٠]. فالكون فضاء مفتوح أمام الجميع، ومسخَّر لكل أحد، لا فرق بين مؤمن وكافر، فمن سخَّره وفق قوانين التسخير حصَّل خيره ودفع عنه شره، ومن قعد عن ذلك وتوانى فقد فاته خير كثير، وأصابه ضر كبير.

وهذا الكون الذي خلقه الله تعالى بناه على نظام دقيق من أجل أن تسير السنن الكونية في مجالاتها التي حددها الله؛ وعندما تنتظم هذه السنن في حركتها فهي تعطي النتائج للإنسان ولو بعد حين، حتى إن بعض المفسرين والمتكلمين بعمق يقولون: إن الأمراض الوراثية التي تنتقل من أجيال سابقة إلى أجيال لاحقة كان السبب فيها تقصير آباء واجترائهم على أشياء مخالفة لمنهج السماء، فإذا شرع الله سنة كونية للفرد ثم خالفها تصيبه نتيجتها السيئة من بعد ذلك، وكذلك الأمة والجماعة[٣].

وعليه، فإن النصوص القرآنية معدة للعمل في جميع الأوساط والبيئات والظروف

---

[١] تفسير الشعراوي، ٧/ ٤٣٥٨.

[٢] "وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ"، محمد رشيد رضا، فاتحة مجلة المنار، العدد ٣١، الصادر في ٢ جمادى الآخرة سنة ١٣١٦.

[٣] تفسير الشعراوي، ٤/ ٢٤٤٣.

والأحوال، قادرة على إعطاء رصيد معين لكل نفس ولكل عقل ولكل إدراك. كل بقدر ما يتقبل منها وما يطيق.

وكلما ارتقى الإنسان في المعرفة، واتسعت مداركه، وزادت معلوماته، وكثرت تجاربه، واطلع على أسرار الكون وأسرار النفس.. ارتقى نصيبه، وتضخم رصيده، وتنوع زاده الذي يتلقاه من نصوص القرآن...

ولقد وجد الذين سمعوا هذا القرآن أول مرة من آيات الله في الأرض وآياته في النفس نصيبهم، وتسلموا رصيدهم، وفق معارفهم وتجاربهم وإشراقات نفوسهم، ووجد كذلك كل جيل أتى بعدهم نصيبًا يناسب ما تفتح له من أنواع العلوم والمعارف والتجارب. ونجد نحن نصيبنا وفق ما اتسع لنا من رقعة العلم والمعرفة والتجريب، وما تكشف لنا من أسرار لا تنفد في هذا الكون الكبير، وستجد الأجيال بعدنا نصيبها مدخرا لها من الآيات التي لم تكشف لنا بعد في الأرض والنفس، ويبقى هذان المعرضان الإلهيان الهائلان حافلين بكل عجيب وجديد إلى آخر الزمان[1].

والجدير بالذكر هنا أن سنن الكون سخرها الله تعالى للإنسان؛ ليقيم حياته ويبني عمرانه، وما يلقى به ربه، فهي تحت سلطة العقل والتجربة والخبرة مباشرة؛ حيث يمكن أن يكتشف الإنسان الكثير من قوانينها عبر الملاحظة والتجربة، ومن خلال الاستفادة من التجارب البشرية السابقة وخبراتها، ويمتلك القدرة على استثمار معطياتها المتنوعة في تلبية حاجات خلافته في الأرض ومواجهة التحديات التي تعترضها. قال الله تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣)﴾[إبراهيم]، وقال عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ

[1] في ظلال القرآن، ٦/ ٣٣٧٧.

لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[لقمان].

لقد أظهر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم الكثير من سنن الكون وأخفى الكثير منها كذلك؛ ليكتشف منها الإنسان في كل زمان ما يناسبه، وما يكون دليلاً جديدًا من الأدلة التي تؤكد صدق ما جاءت به الرسالة المحمدية الخاتمة. قال الله تبارك وتعالى: ﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (الروم: ٤٨)، وقال جل وعلا: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾(يس).

٢- السنن الإنسانية.

السنن الإنسانية هي: القوانين المتحكمة في الإنسان -بوصفه فردًا وجماعة وأمة- وفي فكره وسلوكه وحركته في المجتمع وفاعليته في التاريخ.

وبتعبير آخر هي: أحكام علوية ثابتة ومطردة تحكم الحياة الإنسانية، سواء أكانت على مستوى الأفراد والنفوس أم على مستوى المجتمعات والحضارات والأمم.

ويتفرع عن السنن الإنسانية قسم آخر من السنن وهي: السنن الاجتماعية والسنن التاريخية.. ومصطلح "الإنسانية" جامع لهذين القسمين من السنن وشامل لكل مدلولاتها.

فنقول السنن الاجتماعية؛ لأن الإنسان هو الفاعل في المجتمع بسلوكه وتصرفه سلبًا أو إيجابًا، ونقول السنن التاريخية: عندما ننظر إلى المجتمعات وحركية الإنسان فيها من زاوية تاريخية.

وهنا لابد أن أشير إلى أن السنن الإنسانية والاجتماعية والتاريخية والكونية هي كلها سنن إلهية، وإضافتها إلى الإنسان أو المجتمع أو التاريخ أو الكون أو الأنفس من قبيل المجاز، وذلك باعتبار المفعول الذي تجري عليه السنن.

وقد "شغلت الدراسات والبحوث المتعلقة بالإنسان حيزًا كبيرًا من العلوم والمعارف التي تحاول أن تكشف عما في الإنسان من عجائب خلق الله وبدائع صنعه، عضويًا ونفسيًا، عقليًا وروحيًا، لكن لا تزال جوانب عديدة من هذا الكائن المعلوم و(المجهول) في آن واحد، الذي هو الإنسان، لغزًا من ألغاز الخليقة، وسرًا من أسرار الطبيعة، إلى الآن وحتى الآن"[١].

إن هذا المخلوق الإنساني تنطوي فيه أسرار هذا الوجود كله، وهو العجيبة الكبرى في هذا الكوكب الأرضي، ولكنه يغفل عن قيمته، وعن أسراره الكامنة في كيانه، حين يغفل قلبه عن الإيمان، وحين يحرم نعمة اليقين.

إنه عجيبة في ظاهره وعجيبة في باطنه، وهو يمثل عناصر هذا الكون وأسراره وخفاياه:

وتزعم أنك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر[٢]

والقرآن الكريم أولى فقه السنن الإنسانية اهتماما كبيرا من خلال حديثه عن مجموعة من السنن النفسية والاجتماعية العامة، وتوجيه الاهتمام للعناية الشديدة بها من خلال الدراسة السننية للتاريخ الاجتماعي والحضاري للمجتمعات البشرية عامة، قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٧). فالقرآن الكريم "يربط ماضي البشرية بحاضرها، وحاضرها بماضيها، فيشير من خلال ذلك كله إلى مستقبلها.

---

[١] التيسير في أحاديث التفسير، ٥/ ٥٥.

[٢] في ظلال القرآن، ٦/ ٣٣٧٩-٣٣٨٠.

وهؤلاء العرب الذين وجه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم، ولم تكن معارفهم، ولم تكن تجاربهم- قبل الإسلام- لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة. لولا هذا الإسلام- وكتابه القرآن- الذي أنشأهم به الله نشأة أخرى، وخلق به منهم أمة تقود الدنيا"[١].

ولذلك فإبراز السنن الإنسانية المبثوثة في القرآن الكريم؛ تُعَرِّفنا حقيقة أنفسنا وسلوكنا وعلاقاتنا، وعلى حقيقة المجتمعات الإنسانية، كما تمكننا من فهم طبيعة المجتمع المعاصر وحاجاته وتحدياته والتحكم فيه من ناحية أخرى، وفهم شروط تحقيق الفعالية في حركة الخلافة والعمران البشري.

ويمكن للإنسان أن يكتشف الكثير من سنن الوجود البشري عبر الملاحظة المنظمة والتجربة والاستقراء والاستنباط والاستفادة من الخبرات البشرية السابقة، ويبني عليها حركة عمرانه البشري.

٣- سنن الهداية (التشريعية).

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النساء: ٢٦).

قال الزمخشري –رحمه الله-: "يريد اللهُ أن يبين لكم ما هو خفي عنكم من مصالحكم وأفاضل أعمالكم، وأن يهديكم مناهج من كان قبلكم من الأنبياء والصالحين والطرق التي سلكوها في دينهم لتقتدوا بهم وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ويرشدكم إلى طاعات إن قمتم بها كانت كفارات لسيئاتكم فيتوب عليكم ويكفر لكم"[٢].

ومعناه أيضًا أنه يريد بما شرعه لكم من الأحكام الموافقة لمصالحكم ومنافعكم، وتزكية نفوسكم بالأعمال التي تقوم الملكات وتهذب الأخلاق، أن يهديكم سنن الذين أنعم عليهم

[١] في ظلال القرآن، ١/ ٤٤٩.
[٢] تفسير الزمخشري، ١/ ٥٠١.

من قبلكم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين؛ أي: طرقهم في العمل بمقتضى الفطرة السليمة، وهداية الدين والشريعة، كل بحسب حال الاجتماع في زمانه"[١].

قال سيد قطب (ت١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م) –رحمه الله-: "﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.. فهذا المنهج هو منهج الله الذي سنه للمؤمنين جميعًا، وهو منهج ثابت في أصوله، موجد في مبادئه، مطرد في غاياته وأهدافه.. هو منهج العصبة المؤمنة من قبل ومن بعد، ومنهج الأمة الواحدة التي يجمعها موكب الإيمان على مدار القرون.

بذلك يجمع القرآن بين المهتدين إلى الله في كل زمان ومكان، ويكشف عن وحدة منهج الله في كل زمان ومكان، ويربط بين الجماعة المسلمة والموكب الإيماني الموصول، في الطريق اللاحب الطويل، وهي لفتة تشعر المسلم بحقيقة أصله وأمته ومنهجه وطريقه.. إنه من هذه الأمة المؤمنة بالله، تجمعها آصرة المنهج الإلهي على اختلاف الزمان والمكان، واختلاف الأوطان والألوان، وتربطها سنة الله المرسومة للمؤمنين في كل جيل، ومن كل قبيل"[٢].

فسنن الهداية إذن هي: الأصول اللازمة لهداية الناس في كل زمان ومكان، من قضايا أصول الدين والعبادات والمعاملات والأخلاق والقيم وثوابت الفطرة وأصول الاجتماع والعمران البشري.

وبصيغة أخرى هي: مجموعة من القواعد والقوانين التي رسمها الله تعالى من أجل إصلاح الناس في الدنيا حتى يسعدوا في الآخرة، على مقتضى حكمته ومشيئته المطلقة.

وتسمى هذه السنن أيضًا السنن التشريعية أو الشرعية والسنن التكليفية وسنن الأمر.

وهذه السنن لا يمكن للإنسان أن يصل إليها منفردًا، ولا تحصل عن طريق التجربة والخبرة والعقل.. بل تأتي عن طريق واحد فقط هو الوحي السماوي؛ إذ لا قِبَل للعقل

---

[١] تفسير المنار، ٥/ ٣٠.

[٢] في ظلال القرآن، ٢/ ٦٣٠.

البشري بها، - إلا بذل الجهد في استنباطها للعمل بمقتضاها-. قال الإمام ابن تيمية -رحمه الله-: "إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ -صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ- أَكْمَلُ النَّاسِ كَشْفًا، وَهُمْ يُخْبِرُونَ بِمَا يَعْجِزُ عُقُولُ النَّاسِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، لَا بِمَا يُعْرَفُ فِي عُقُولِهِمْ أَنَّهُ بَاطِلٌ، فَيُخْبِرُونَ بِمُحَارَاتِ الْعُقُولِ[1] لَا بِمُحَالَاتِ الْعُقُولِ"[2].

وإلى هذا أشار قوله تبارك وتعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(١٢٤)﴾(طه). فمن اتبع سنن الهداية فهو في أمان من الضلال والشقاء، ومن أعرض عنها وتنكبها فسيعيش حياة الحيرة والقلق والشك مقطوع الصلة بالله ورحمته الواسعة..

وعليه؛ فخلافة الإنسان في الأرض مشروطة باتباع سنن الهداية التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية، وإلا تعرضت حياته الدنيوية لمعيشة الضنك، ليس في أبعادها المادية والاجتماعية فحسب؛ ولكن في عمق إنسانيته، ولحق حياته الأخروية خسران مبين، مصداقًا لقوله تبارك وتعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٧)، وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (الجاثية: ١٥).

يقول الأستاذ إبراهيم الوزير في سنن الهداية أو التشريعية: "أما من حيث سلوك الأفراد والأمة والنظام الذي يجب أن يكون شريعة للفرد والأسرة والجماعة هي القواعد والضوابط التي تضمنتها السنن التشريعية التي جاء بها الرسل منسجمة مع سنن الفطرة وناموس الكون مكملة لها في الجانب الاختياري الحر، مضيئة للعقل سبل الحقائق.. عاصمة له من التيه والضلال!! تحقيقا لموعود الله يوم أمر الكائن الإنساني ممثلا في أبويه آدم وحواء –

[1] محارات العقول :أي بما قد تتحير فيه العقول مما جاء من الأمور الغيبية كالصراط والميزان ونحوهما.

[2] الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ٤/ ٣٠٩.

عليهما السلام- بالهبوط إلى هذا الكوكب بعضهم لبعض عدو... ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٣٨)...

وهذه الشريعة الهادية تضع أمام الاختيار الحر للإنسان معالم المنهج لحياته، وهدى الله له في مسيرته ومختلف ما تقتضيه حياته من المهد إلى اللحد.

وكمال الأمم في الذروة هو أن تجمع في فقهها وتطبيقاتها بين السنن الكونية الماضية في الكون وما فيه ومن فيه، والسنن التشريعية الهادية الموضوعة أمام الاختيار الحر للإنسان، والتي على أساسها تكون الحياة الطيبة المطمئنة للفرد والجماعة على هذه الأرض، والسعادة الأبدية في الدار الآخرة"[1].

وعليه فإذا كانت السنن الكونية فعل الله تعالى في هذا الكون؛ فإن سنن الهداية قوله وأمره، ومحال أن يخالف قوله فعله وأمره، بل قوله تعالى وفعله متكاملان لا متعارضان، ومتلازمان لا منفصلان.

٤- سنن التأييد.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (آل عمران: ١٣)، وقال جل وعلا: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)﴾(آل عمران)، وقال سبحانه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (الأنفال: ٩)، وقال جل وعلا: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٤٠)، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ

[1] دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر، ١٠-١١.

خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (يس: ٩)، وقال جل ثناؤه: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٩)، وقال الله تعالى على لسان المسيح عيسى بن مريم –عليهما السلام–: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ٤٩).

كل هذه الآيات الكريمة وغيرها تتحدث عن سنن الغيب والعون الإلهي، وتدخلات العناية الربانية لتأييد أنبيائه ورسله خاصة، وعباده المؤمنين السائرين على منهاج الإسلام وسننه عامة.

فسنن التأييد هي: السنن المتعلقة بالتأييد الإلهي ومدده المباشر وغير المباشر لعباده في كافة مراحل الخلافة البشرية على الأرض، وخاصة عندما يتعلق الأمر بحالة عجز قدراتهم التسخيرية المستمدة من السنن الكونية والإنسانية والتشريعية عن مواجهة الواقع وتحدياته، فيلجؤون حينئذ إلى من بيده الأمر كله، فيطلبون العون والمدد والتأييد. وتشتمل هذه السنن على المعجزات التي يؤيد الله تعالى بها أنبياءه ورسله –عليهم السلام–، والكرامات التي يؤيد بها أولياءه، وكل ما يؤيد الله به عباده المؤمنين في مسيرتهم في الحياة الدنيا.

وتسمى أيضًا السنن الخارقة؛ أي الخارقة للعادات ولنظام السببية الذي يعرفه البشر، لكن تسميتها بسنن التأييد أفضل وأحسن.

- السنن منظومة واحدة.

إن السنن الإلهية بكل أقسامها متناسقة ومتكاملة وتشكل منظومة واحدة، والقرآن الكريم في غير موضع يؤكد الطبيعة التكاملية بين مجموعة من السنن -(سنن عالم الغيب وسنن عالم الشهادة، وسنن الآفاق وسنن الأنفس، وسنن الخلق وسنن الأمر، وسنن الوجود المادي وسنن الوجود البشري)- التي تضبط حياة الأمم وحركة المجتمعات، حينما يمزج ما

بين المادي والمعنوي، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح؛ ليخلق منها إنسانًا سويًا مؤهلاً للخلافة والعمران، وأمة خلاّقة رائدة شاهدة على الأمم.

قال صاحب الظلال: "قد تأخذنا في بعض الأحيان مظاهر خادعة لافتراق السنن الكونية، حين نرى أن اتباع القوانين الطبيعية يؤدي إلى النجاح مع مخالفة القيم الإيمانية.. هذا الافتراق قد لا تظهر نتائجه في أول الطريق ولكنها تظهر حتما في نهايته.. وهذا ما وقع للمجتمع الإسلامي نفسه. لقد بدأ خط صعوده من نقطة التقاء القوانين الطبيعية في حياته مع القيم الإيمانية، وبدأ خط هبوطه من نقطة افتراقهما، وظل يهبط ويهبط كلما انفرجت زاوية الافتراق حتى وصل إلى الحضيض عند ما أهمل السنن الطبيعية والقيم الإيمانية جميعا..

وفي الطرف الآخر تقف الحضارة المادية اليوم. تقف كالطائر الذي يرف بجناح واحد جبار، بينما جناحه الآخر مهيض، فيرتقي في الإبداع المادي بقدر ما يرتكس في المعنى الإنساني ويعاني من القلق والحيرة والأمراض النفسية والعصبية ما يصرخ منه العقلاء هناك.. لولا أنهم لا يهتدون إلى منهج الله، وهو وحده العلاج والدواء.

إن شريعة الله للناس هي طرف من قانونه الكلي في الكون. فإنفاذ هذه الشريعة لا بد أن يكون له أثر إيجابي في التنسيق بين سيرة الناس وسيرة الكون.. والشريعة ما هي إلا ثمرة الإيمان لا تقوم وحدها بغير أصلها الكبير. فهي موضوعة لتنفذ في مجتمع مسلم، كما أنها موضوعة لتساهم في بناء المجتمع المسلم، وهي متكاملة مع التصور الإسلامي كله للوجود الكبير وللوجود الإنساني، ومع ما ينشئه هذا التصور من تقوى في الضمير، ونظافة في الشعور، وضخامة في الاهتمامات، ورفعة في الخلق، واستقامة في السلوك ... وهكذا يبدو التكامل والتناسق بين سنن الله كلها سواء ما نسميه القوانين الطبيعية، وما نسميه القيم الإيمانية.. فكلها أطراف من سنة الله الشاملة لهذا الوجود.

والإنسان كذلك قوة من قوى الوجود، وعمله وإرادته، وإيمانه وصلاحه، وعبادته

ونشاطه... هي كذلك قوى ذات آثار إيجابية في هذا الوجود، وهي مرتبطة بسنة الله الشاملة للوجود.. وكلها تعمل متناسقة، وتعطي ثمارها كاملة حين تتجمع وتتناسق بينما تفسد آثارها وتضطرب، وتفسد الحياة معها، وتنتشر الشقوة بين الناس والتعاسة حين تفترق وتتصادم:

﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَّ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾[الأنفال: ٥٣] .. فالارتباط قائم وثيق بين عمل الإنسان وشعوره وبين مجريات الأحداث في نطاق السنة الإلهية الشاملة للجميع.

ولا يوحي بتمزيق هذا الارتباط، ولا يدعو إلى الإخلال بهذا التناسق، ولا يحول بين الناس وسنة الله الجارية، إلا عدو للبشرية يطاردها دون الهدى وينبغي لها أن تطارده، وتقصيه من طريقها إلى ربها الكريم.. "[1].

والمتدبر لآيات القرآن الكريم يلحظ ذلك التناسق العجيب بين السنن بكل أنواعها، قال الله تباك وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)﴾[سورة ص]، فخلق السماوات والأرض تعبير عن السنن الكونية والآفاقية، والتمايز بين المؤمنين الصالحين المتقين والكافرين المفسدين الفجار تعبير عن السنن الإنسانية والاجتماعية، ونزول الوحي وتدبر آيات الكتاب الحكيم تعبير عن سنن الهداية أو السنن التشريعية، فانظر إلى هذا التناغم الهائل بين السنن جميعها، والأمثلة على هذا كثيرة جدًا.

وغاية المرام في تحقيق المقام: كل السنن الإلهية -(سنن الكون والآفاقـ وسنن العمران والاجتماع البشري، وسنن الهداية والتأييد الإلهي)- تنبثق عن منهج إلهي واحد، وتخرج من

---

[1] في ظلال القرآن، ١/ ١٧-١٨.

مشكاة إلهية واحدة، مرتبطة أشد الارتباط في وحدة نظامية يأخذ بعضها بحجز بعض، في تكامل وانسجام وتناسق وانتظام.

المبحث الثالث

السنن الإلهية: خصائص وصفات

أولا: خصائص السنن الإلهية.

إن خصائص السنن الإلهية تحدد شكل مسارها، وتبين كيف تسير هذه السنن عبر وسائل مضبوطة، فلا يمكن -مثلا- فهم سنن الله بعزلها عن ربانيتها، ولا يمكن فهمها كذلك دون وسطيتها...

والكون كله يسير وفق سنن إلهية كاملة لا تبديل لها ولا تحويل، فليس هناك شيء واحد في هذه الحياة يحدث اعتباطًا وعشوائية، وإنما يجري كل شيء فيها وفق سنن الله تعالى التي لا تنخرم ولا تحيد، ولا تتخلف، ولا تحابي أحدا من الخلق، ولا تستجيب لأهواء البشر وطموحاتهم الشخصية، ومآربهم الفانية.

وعليه، فما دام هذا الكون بما فيه خاضعا لسنة الله تعالى، وما دامت سنة الله هي قدره الذي على مقتضاه يدبر ملكه، فإن لها خصائص ربانية تبين عدالتها وجريانها على جميع الكائنات، واستمرارها على مدى الأزمان.

تلك الخصائص وإن تعددت وتنوعت فإنها تنبثق من خصيصة الربانية وترجع إليها؛ ذلك أن القوانين البشرية التي يسطرها البشر لأنفسهم بعيدًا عن هدي الله عز وجل تحتاج دائمًا إلى المراجعة والتطور وإعادة الصياغة والتحرر من قواعدها ومقوماتها، وتتعرض هذه القوانين لكل هذا؛ لأنها من صنع البشر، وأما قانون الله وناموسه الكوني فثابت لا يتغير وضوابطه لا تتعطل ولا تتحول؛ لأن واضعه هو خالق البشر الذي يعلم ما كان وما يكون وما لو كان كيف يكون.

فهـذا الكـون بـما فيـه يخضـع لنظـام عـادل وضـوابط ربانيـة، فكـل شيء يـدور في فلكـه ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾(سورة الفرقان: مـن الآيـة ٢)، فلابـد لكـل شيء مـن فلـك يدور فيه، ولا بد لهذا القانون من ضوابط وإلا انتهى الأمر إلى الفوضى وإلى الدمار.

ومن ثم كانت سنن الله تتسم بالربانية لا يعتريهـا الـنقص ولا التغـير ولا التطـور، فهـي صالحة لكل زمان ومكان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فأول تلك الخصائص:

١ -الربانية.

إن كون السنن الإلهية ربانية يميزها عن باقي التصورات الفلسفية والمعتقدات الوثنية التي ينشئها الفكر البشري وتصوراته الخيالية. وكون سنن الله ربانية المصدر، يعني أنها مرتبطة بالله تعالى، منه تستمد وبنوره تستضيء، وهذا ما يفرغ عليها قدسية لا نظير لها؛ لأن هذه السنن صادرة من صاحب الخلق والأمر في هذا الكون، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(الأعراف: ٥٤)، ولم تصدر من البشر الذين يحكمهم القصور والعجز، والتأثر بمؤثرات الزمان والمكان.

ونفهم من هذه الخصيصة أن الله تعالى وتقدس هو المدبر الحقيقي لهذا الوجود بمشيئته المطلقة، وتدبيره الحكيم.

إن تأكيد القرآن ربانية السنن وطابعها الغيبي يستهدف ربط الإنسان -حتى حينما يريد أن يستفيد من القوانين الموضوعية للكون- بالله سبحانه وتعالى.

وهذه الربانية التي تتميـز بهـا سـنة الله، هـي عكـس مـا يعتقـده اتجـاه التفسـير اللاهـوتي للتاريخ الذي تمثله مدرسة المفكرين اللاهوتيين النصارى.

وهذا يبين لنا الفرق الشاسع والبون الواسع بين الاتجاه القرآني في ربـط سـنن التـاريخ بعالم الغيب، وبين ما يسمى بالتفسير الإلهي للتاريخ الذي يتبناه اللاهوت.

إذن: فالسنن الإلهية خاضعة لعناية الله تعالى ورعايته، فهو الذي يسيّر المكوَّنات كما يريد، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.

٢- الثبات.

بما أن سنن الله ربانية المصدر وليست نتاج فكر بشري يعتريه النقص، فإنه من هذه الخصيصة تنبثق باقي الخصائص، فتكون سنن الله ثابتة؛ لأنها تقتبس نورها من مشكاة ربانية، وثبات سنة الله يعني استقرارها ودوامها، فلا تتبدل ولا تتحول، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾(سورة الإسراء: ٧٧)، ويقول الله عز اسمه: ﴿ سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ (سورة الفتح:٢٣).

لا يعني ثبات السنن الإلهية جمودها في قالب حديدي؛ وإنما يعني الحركة -التي تعتبر قاعدة في التصميم الكوني والحياة البشرية- في مضمار هذه الخصيصة حتى لا تسود الفوضى والحيرة في الكون، بل تلك الحركة الكونية التي تدور في دائرة الثبات تضفي عليها طمأنينة لا نظير لها، وتضمن للحياة البشرية مزية التناسق مع النظام الكوني المتناسق والمتماسك، ويقيها شر الفوضى واتباع أهواء البشر التي لا يضبطها قانون سوى تحقيق مصالحها وطموحاتها الشخصية.

والثبات عنصر فعال ذو أثر كبير في نيل الأوطار وبلوغ المرام، به تثبت النفس وتطمئن ويحيطها الاستقرار الذي يكون توطئة لمعرفة ما لكل امرئ وما عليه، فيعتبر المُبصر ويحذر المخطئ، ويتحسس كل إنسان أين تسير به قدماه فيُحْجِمُ أو يُقْدِمُ -مستندًا إلى ظنه- لمصيره ومآله في دنياه وأخراه.

والهدف الثاني من ثبات السنن الإلهية وعدم تغييرها هو سقوط القول بـ(الصدفة) أو (الطبيعة) فيما لا يستطيع العقل البشري الوقوف على علله وأسبابه؛ إذ لو لم تكن السنن الجارية قائمة على الثبات لاتسع المجال للعبثية ولبسط القول بالصدفة في نظام حركة الكون والأحياء والأنفس.

ولو لم تكن سنن الله عز وجل ثابتة على الحال المذكور، لما كان في هذا الكون توازن ولا استقرار ولاستحال استمرار الحياة، ولكانت الفوضى حينئذ هي السمة السائدة.. وهذا يتنافى مع الواقع المشهود الذي تدلنا كل صغيرة وكبيرة فيه على آيات التوازن والاستقرار التي تقود إلى استمرار الحياة نحو أجلها المقدر لها.

وهكذا فإن السنن الإلهية ثابتة لا تتحول، أما السنن الكونية فقد تنخرق أحيانًا نصرة لبعض المؤمنين أو نجاتهم، أو هلاك العصاة الخارجين عن طاعته، فالسنن المتعلقة بالأمور الطبيعية ينقضها الله إذا شاء، أما السنن التشريعية "فهذه السنن كلها سنن تتعلق بدينه، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وليست هي السنن المتعلقة بالأمور الطبيعية كسنته في الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من العادات، فإن هذه السنة ينقضها إذا شاء بما شاءه من الحكم، كما حبس الشمس على يوشع، وكما شق القمر لمحمد ﷺ، وكما ملأ السماء بالشهب، وكما أحيا الموتى غير مرة، وكما جعل العصا حية، وكما أنبع الماء من الصخرة بعصا، وكما أنبع الماء من بين أصابع الرسول ﷺ..."[١].

٣- الاطراد.

الاطراد: "اطرد الأمر تبع بعضه بعضًا وجرى واطرد الحد تتابعت أفراده وجرت مجرى واحدا كجري الأنهار"[٢].

وعليه، فالمقصود باطراد سنة الله تتابع حصولها، أو تكرار آثارها على الوتيرة نفسها كلما توافرت شروطها، وانتفت الموانع التي تحول دون تحقيقها[٣]، يقول الله جل ذكره: ﴿فَهَلْ

---

[١] جامع الرسائل، ابن تيمية، ١/ ٥٢.

[٢] كتاب الكليات، لأبي البقاء الكفوي، ١٤١.

والاطراد يضم مجموعة من المعاني "لأنه يضم أجزاء المدود ويجمعها، ويتبع المحدود بحيث يوجد حيث وجد ويستقيم بذلك ويستمر عليه". المعين في تفسير كلام الأصوليين، عبد الله ربيع عبد الله محمد، ٥٢.

[٣] أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، أحمد كنعان، ٧٦.

يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ (سورة فاطر: من الآية٤٣).

وهكذا نجد أن اطراد سنة الله يعني أنها ليست عشوائية قائمة على أساس الصدفة والاتفاق.

ولهذا قص علينا القرآن الكريم قصص الغابرين وما حل بهم من جراء ما اقترفوه من مخالفات للأوامر الإلهية، لنأخذ الدروس والعبر، ونرجع إلى الصراط السوي، حتى لا يصيبنا ما أصابهم، ولولا اطراد سنة الله لما كانت هناك دعوة للسير في الأرض والوقوف على آثار السابقين وأخذ العبرة والدروس مما أصابهم. يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(سورة آل عمران:١٣٧)، ويقول جل وعلا: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾(سورة الحشر: من الآية٢).

يقول إمام المقاصد أبو إسحاق الشاطبي –رحمه الله: "إنه لولا أن اطراد العادات[١] معلوم لما عرف الدين من أصله، فضلاً عن تعرف فروعه؛ لأن الدين لا يعرف إلا عند الاعتراف بالنبوة، ولا سبيل إلى الاعتراف بها إلا بواسطة المعجزة، ولا معنى للمعجزة إلا أنها فعل خارق للعادة، ولا يحصل فعل خارق للعادة إلا بعد تقرير اطراد العادة في الحال والاستقبال كما اطردت في الماضي، ولا معنى للعادة إلا أن الفعل المفروض لو قدر وقوعه غير مقارن للتحدي لم يقع إلا على الوجه المعلوم في أمثاله، فإذا وقع مقترنا بالدعوة خارقًا للعادة، علم أنه لم يقع كذلك مخالفا لما اطرد إلا والداعي صادق"[٢].

فهي سنن واقعة آتية من الأزل، فهي باقية وماضية إلى الأبد لا تهرم أبدًا، ولا يصيبها الموت، كما تهرم القوانين المدنية وتموت.

---

[١] يقصد بالعادات: السنن.

[٢] الموافقات في أصول الشريعة، للشاطبي، ٢/ ٤٨٤.

ولذلك "فجميع السنن التي فطر الله عليها أمور الخلق قابلة للتكرار والإعادة –بإذن الله– كلما توافرت شروطها، وانتفت الموانع التي تحول دون تحقيقها.. فالمطر يهطل بإذن الله كلما تلبدت الغيوم في السماء وتهيات الظروف الجوية المواتية، والحجر يسقط إلى الأرض كلما ألقينا به في الفضاء، واليد تحترق كلما لامست النار، والمرض يحصل كلما صادفت الجراثيم جسما قابلاً للعدوى والمرض.. وهكذا"[١].

فسنة الله مطردة تشمل الماضي والحاضر والمستقبل، واطرادها لا يعني حتميتها. وهنا يمكن القول أنه على الرُّغم من ثبات سنة الله في الكون واطرادها، فالمشيئة الإلهية طليقة لا يَرِدُ عليها قيد ما، مما يخطر على فكر البشر البعيد عن أصول التوحيد الإسلامي، وهو سبحانه وتعالى يبدع كل شيء ويخلقه بمجرد توجّه مشيئته إلى إبداعه وخلقه. فليس هناك قاعدة ملزمة ولا قالب مفروض مُلْزِم للمشيئة الإلهية في الفعل، فهو عز وجل يفعل ما يشاء كيف يشاء حين يشاء، لا راد لأمره، ولا معقّب لحكمه[٢].

والحاصل أن جريان سنن الله وتحققها يكون بقضاء الله ﷻ وقدره وحكمته، يستوي في ذلك سنن الله الجارية[٣] والخارقة[٤]. وإذا أراد الله تبارك وتعالى شيئًا فإنه لا ينفذه بإبطال سننه المطردة وأقداره الماضية في خلقه، ولكن بالترجيح أو التوفيق بينها، كما قال جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾(سورة طه: من الآية٤٠)، وهذا ما يخالف مبدأ الحتمية وينقض مزاعم القائلين بها.

---

[١] مهمة الدين الإسلامي في العالم، وجدي، ٢٩٩.

[٢] السنن الإلهية، مجدي عاشور، ١٠٥.

[٣] معنى كونها سنن الله جارية أنها يمكن أن تتحقق –بقدر من الله عز وجل– كلما توفرت شروطها ومقوماتها، وتتم المواجهة بمقتضاها.

[٤] السنن الخارقة: أي بالنسبة للبشر يعدونها خوارق، أما عند الله تعالى فليس عنده شيء اسمه خوارق، فكل شيء يتحرك بإرادته ومشيئته وحكمته العادلة، وإن بدا لنا أمرًا خارقًا للعادة.

ونمثل لاطراد سنن الله بسنة الله في عقاب من تكبر على طاعته وطاعة رسله، بقول الحق جل وعلا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾(سورة المزمل: ١٥-١٩).

٤- العموم والشمول.

أ- العموم.[1]

المقصود بعموم سنة الله، كون حكمها يسري على الجميع بدون استثناء، لا تحابي أحدًا، بغض النظر عن كونه مؤمنًا أو كافرًا، أبيض أو أسود، عربيًا أو عجميًا، يعيش في رقعة إسلامية أو غير إسلامية، غير مقتصرة على هذا أو ذاك، الكل سواسية أمام حكمها، وصدق الله تبارك وتعالى القائل: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾(سورة النساء:١٢٣)، والقائل أيضًا: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾(سورة القمر:٤٣)، فالقضية ليست انتماء إلى رقعة إسلامية، أو جنس عربي أو غير ذلك، وإنما القضية قضية عمل وجزاء، وفي هذا السياق يقول ابن تيمية -رحمه الله-: "الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة"[2].

وعلى الرُّغم من ذلك فالغاية من ذكر أحوال الأمم الغابرة هي أن تترسخ السنة في نفوس المؤمنين، وأن يفهم الناس أن الآخر سيُفعل به ما فُعل في الأول حين يسير في طريقه، وكل تلك القصص والأخبار تتلوها تعقيبات تؤكد هذه السنة والقاعدة التي صارت علما[3].

---

[1] قال الشيخ صديق خان القنوجي في تعريفه الاصطلاحي للعام:"هو اللفظ المستغرق لجميع ما يصلح له بحسب وَضْع واحدٍ دَفعة". الجامع لأحكام وأصول الفقه، ٢٠١.

[2] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ٢٨/ ٦٣.

[3] اقرأ وربك الأكرم، جودت سعيد، ١٣٢.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا:" كان المليون من جميع الأجيال يعتقدون أن أفعال الله - تعالى- في خلقه تشبه أفعال الحاكم المستبد في حكومته، المطلق في سلطته، فهو يحابي بعض الناس فيتجاوز لهم عما يعاقب لأجله غيرهم، ويثيبهم على العمل الذي لا يقبله من سواهم، لمجرد دخولهم في عنوان معين، وانتمائهم إلى نبي مرسل، وينتقم من بعض الناس؛ لأنهم لم يطلق عليهم ذلك العنوان أو لم يتفق لهم الانتماء إلى ذلك الإنسان.

هذا ما كانوا يظنون في دينهم ويسندونه إلى مشيئة الله المطلقة، من غير تفكير في حكمته البالغة، وتطبيقها على سننه العادلة، فإن نبههم منبه إلى ما يصيبهم بل ما أصاب أنبياءهم من البلاء، قالوا إنه -تعالى- يفعل ما يشاء، وذلك رفع درجات أو تكفير للسيئات وأشباه هذا الكلام الذي يشتبه عليهم حقه بباطله، ويلتبس عليهم حاليه بعاطله، وقد كان وما زال علة غرور أصحابه بدينهم، واحتقارهم لكل ما عليه غيرهم، فجاء القرآن يبين للناس أن مشيئة الله -تعالى- في خلقه إنما تنفذ على سنن حكيمة وطرائق قويمة، فمن سار على سنته في الحرب -مثلا- ظفر بمشيئة الله وإن كان ملحدا أو وثنيا، ومن تنكبها خسر. وإن كان صديقًا أو نبيًّا، وعلى هذا يتخرج انهزام المسلمين في وقعة أحد... ولكن المؤمنين الصادقين أجدر الناس بمعرفة سنن الله -تعالى- في الأمم، وأحق الناس بالسير على طريقها بين الأمم ؛ لذلك لم يلبث أصحاب النبي ﷺ أن ثابوا يومئذ إلى رشدهم، وتراجعوا للدفاع عن نبيهم، وثبتوا حتى انجلى عنهم المشركون، ولم ينالوا منهم ما كانوا يقصدون.

وكأن بعض المسلمين لم يكونوا قد حفظوا ما ورد في السور المكية من ثبات سنن الله في خلقه وكونها لا تتبدل ولا تتحول أو حفظوا ولم يفقهوه ولم يظهر لهم انطباقه على ما وقع لهم في أحد؛ لذلك صرح لهم في بدء الآيات التي تبين لهم سننه أن له سننًا عامة جرى عليها نظام الأمم من قبل، وأن ما وقع لهم يوم أحد مما يقص حكمته عليهم هو مطابق لتلك السنن التي

لا تتحول ولا تتبدل[١].

ومن هنا، فلولا عموم سنة الله واطرادها وثباتها لما ذكرت لنا قصص الأمم السابقة؛ إذ ما يجري عليها يجري على غيرها في باقي الأزمان والأمصار، فأي أمة تنكبتها -أي سنة الله- لقيت جزاءها عاجلاً أو آجلاً، وهذا ما سجله القرآن الكريم في غزوة أُحُد، لما أخطأ الرماة وخالفوا الأوامر النبوية لقوا جزاءهم؛ قال الحق جل ذكره: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(آل عمران:١٦٥)، فلا محاباة ولا تمييز أمام سنة الله.

كما خصص القرآن الكريم جانبًا كبيرًا من سوره لعرض قصص الغابرين؛ لينبهنا ويلفت أنظارنا إلى ما آلت إليه تلك الأمم من تغير أحوالها إيجابًا أو سلبًا، حين اختارت لنفسها طريقًا معينًا، ولينبهنا كذلك على أن المجتمعات البشرية محكومة بنوع من السنن والنواميس المطردة الثابتة العامة التي تضبط حركتها وتطورها، وتحدد مصيرها في النهاية.

قال الحق جل وعلا: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾(سورة هود:٨٩). فسنن الله لا تحابي أحدًا وقصص القرآن كثيرة: قصة قوم نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب وموسى... لما خالفوا أنبياءهم حصدتهم سنة الله وكانت لهم بالمرصاد...

وبناء على ذلك، فإن النواميس التي يتحدث عنها القرآن الكريم تتميز بأنها نواميس مطلقة صالحة لكل زمان ومكان؛ فمتى توفرت مقوماتها وتحققت شروطها الموضوعية في الزمان والمكان، فهي عامة.

هذا، والآيات الدالة على عموم سنة الله كثيرة، أذكر منها قوله جل جلاله: ﴿أَمْ

---

[١] تفسير المنار، ٤/١١٦.

حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾(سورة البقرة:٢١٤). قال الشيخ أبو السعود في تفسيره: "﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ خوطب به رسولُ الله ﷺ ومن معه من المؤمنين حثًّا لهم على الثبات على المصابرة على مخالفة الكفَرَة وتحمُّل المشاقِّ من جهتهم إثر بيانِ اختلافِ الأممِ على الأنبياء عليهم السلام ، وقد بُيّن فيه مآلُ اختلافِهم وما لَقِيَ الأنبياءُ ومَنْ معهم من قبلهم من مكابدة الشدائد ومقاساة الهموم وأن عاقبة أمرِهم النصرُ وأم منقطعة والهمزةُ فيها للإنكار والاستبعاد؛ أي بل أحسبتم ﴿أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم﴾ من الأنبياء ومن معهم من المؤمنين؛ أي والحال أنه لم يأتِكم مثلُهم بعد ولم تبتلوا بما ابتُلوا به من الأحوال الهائلةِ التي هي مَثَلٌ في الفظاعة والشدّة وهو متوقَّعٌ ومنتظَرٌ ﴿مَّسَّتْهُمْ﴾ استئنافٌ وقعَ جواباً عما ينساقُ إليه الذهن كأنه قيل وكيف كان مثلهم فقيل: مسَّتْهم ﴿البأساء﴾؛ أي الشدَّةُ من الخوف والفاقةِ ﴿والضراء﴾؛ أي الآلامُ والأمراضُ ﴿وَزُلْزِلُواْ﴾؛ أي أزْعجوا إزعاجًا شديدًا بما دَهَمهم من الأهوال والأفزاعِ"[1].

وقوله تقدست أسماؤه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾(محمد:١٠). قال الشيخ أبو السعود في تفسيره:" ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض﴾؛ أي أقعدُوا في أماكنِهم فلم يسيرُوا فيها ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأممِ المكذبةِ فإنَّ آثارَ ديارِهم تنبىءُ عن أخبارِهم . وقولُه تعالى: ﴿دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأَ من الكلامِ كأنَّه قيلَ كيفَ كان عاقبتُهم فقيلَ استأصلَ الله تعالىَ عليهم ما اختصَّ بهم من أنفسِهم وأهلِيهم وأموالِهم ، يقالُ دمَّره أهلكَه ودمَّر عليهِ أهلكَ عليهِ ما يختصُّ بهِ . ﴿وللكافرين﴾؛ أي ولهؤلاءِ الكافرينَ السائرينَ بسيرتِهم ﴿أمثالها﴾ أمثالُ عواقبِهم أو عقوباتِهم لكنْ لا على أنَّ لهؤلاءِ أمثالَ ما لأولئكَ وأضعافَهُ، بلْ

[1] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ١/ ٢١٥.

مثلَه ، وإنما جُمعَ باعتبارِ مماثلتِه لعواقبَ متعددةٍ حسبَ تعددِ الأممِ المُعذبةِ"[١].

فليس المراد من السير في الأرض هنا خصوص السفر، بل مطلق تعرف أحوال الماضين بأي سبيل، وليس من شك أن من المفيد للعاقل أن يبحث عن أحوال الناس، ويطلع على الأسباب الموجبة لضعفهم، أو قوتهم، فيتعظ ويعتبر، ويسترشد إلى ما فيه خيره وصلاحه، ومن أجل هذا قال عز من قائل: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾(آل عمران:١٣٨). هذا إشارة إلى ذكر السنن الحكيمة التي من سار عليها ظفر، ومن تنكبها خسر.. ولابد من البيان للناس كافة، ليكون حجة على من عصى، وهدى وموعظة لمن اتقى، فإنه السبيل الوحيد الذي يميز العاصي والمطيع.. ولولا البيان لا طاعة ولا عصيان[٢].

ب – الشمول.

سنن الله ربانية المصدر فلا غرو أن يكون طابعها الشمول، وهنا نذكر مجموعة من الآيات الإلهية حول هذه الشمولية:

قال عز من قائل: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهَّ قَدَراً مَّقْدُوراً﴾(الأحزاب: ٣٨)؛ أي "قضاءً مقضيًا كائنًا ماضيًا"[٣].

وقال الحق جل وعلا:﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾(الرعد: ٨)، وقال عز وجل: ﴿قَدْ جَعَلَ اللهُّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾(الطلاق: ٣)، قال الشيخ أبو السعود: "أي تقديرًا وتوقيتًا أو مقدارًا وهُو بيانٌ لوجوبِ التوكلِ عليهِ تعالَى ، وتفويضُ الأمرِ إليهِ لأنَّه إذا علمَ أنَّ كلَّ شيءٍ من الرزقِ وغيرِه لا يكونُ إلا بتقديرِه تعالَى لا يبقى إلا التسليمُ للقدرِ والتوكلُ على الله تعالى"[٤].

---

[١] نفسه، ٨/ ٩٤.

[٢] التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، ٤/ ١٥٩–١٦٠.

[٣] معالم التنزيل، ٦/ ٣٥٨.

[٤] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٨/ ٢٦٢.

وقال عز من قائل: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(هود: ٦): " ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض إِلاَّ عَلَى الله رِزْقُهَا﴾ أي ما من شيء يدب على وجه الأرض من إنسان أو حيوان إلا تكفَّل الله برزقه تفضلاً منه تعالى وكرماً؛ فكما كان هو الخالق كان هو الرازق، ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ قال ابن عباس: مستقرها حيث تأوي إليه من الأرض، ومستودعها الموضع الذي تموت فيه فتدفن، ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي كلٌّ من الأرزاق، والأقدار، والأعمار، مسطَّرٌ في اللوح المحفوظ"[١].

وقال جل ذكره: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾(الإسراء: من الآية ١٢): "؛ أي: وكلَّ أمر من أمور الدنيا والدين، بينَّاه أحسن تبيين، وليس شيء من أمر هذا الوجود متروكًا للمصادفة والجُزاف، وإنما هو بتقديرٍ وتدبيرٍ حكيم"[٢].

وقال جل ثناؤه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾(النبأ: ٢٩)؛ أي: "وكل شيءٍ أحصيناه مكتوبًا في اللوح المحفوظ أو في صحف الحفظة"[٣].

وقال عز سلطانه:﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾(يس: من الآية ١٢)؛ قال الشيخ البغوي:" قوله تعالى ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾ حفظناه وعددناه وبيناه، ﴿فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ"[٤].

وقال جل وعلا: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام: ٣٨). قال الإمام ابن القيم: "أخبر الله عن وجود المماثلة بين الإنسان وبين كل طائر ودابة، وذلك ممتنع من جهة الخلقة والصورة،

[١] صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ٢/ ٦.

[٢] صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ٢/ ١٤٢.

[٣] التفسير الوسيط، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ١٠/ ١٧٥٣.

[٤] معالم التنزيل، ٧/ ١٠.

وعدم من جهة النطق والمعرفة، فوجب أن يكون منصرفًا إلى المماثلة في الطباع والأخلاق"[١].

والآيات التي تدل على شمولية السنن كثيرة، تلك الشمولية التي تعني أن السنن الإلهية جامعة لا تقبل التجزئة، وشاملة لكل شؤون الحياة ولكل ميادين النشاط البشري، ولكل القضايا الكبرى في هذا الكون، لا تستثني مجالاً من مجالات الحياة أو جانبًا من جوانبها، وليست شمولية مقتصرة على زمن معين وعصر مخصوص، بل شمولية تستوعب الزمن كله، وتستوعب جوانب الحياة كلها، وتستوعب الإنسان كله في الماضي والحاضر والمستقبل.

عن عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ –رضي الله عنهما- يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ، أَوِ الْكَيْسِ وَالْعَجْزِ»[٢].

قال الإمام النووي (٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م)–رحمه الله-: "يحتمل العموم في أمور الدنيا والآخرة، والكيس ضد العجز، وهو النشاط والحذق بالأمور، ومعناه أن العاجز قد قدر عجزه، والكيس قد قدر كيسه"[٣].

إنها سنن الله التي جاءت بنواميس شاملة جامعة مانعة، وأخرى مفصلة تفصيلاً جزئيًّا دقيقًا؛ تشمل الإنس والجن والملائكة وكل المخلوقات من الدواب والهوام.

فما من ناحية من نواحي الحياة والكون، ومجال من مجالاتها، إلا وتناولتها السنن الإلهية في القرآن الكريم والسنة النبوية بالنص والفحوى، وميّزت فيها الخير من الشر، والصحيح من الفاسد، والحق من الباطل، والصدق من الكذب، والطيب من الخبيث، والغث من السمين، في صورة شاملة وكاملة لنظام الحياة في الإسلام الذي يجب أن يقوم على الخير وتنميته، وتجنب الشر والعمل لاستئصاله.

---

[١] شفاء العليل، ٧٧.

[٢] صحيح مسلم، كتاب القدر، باب كل شيء بقدر، ح٢٦٥٥. ٤/ ٢٠٤٥

[٣] شرح النووي على مسلم، ١٦/ ٢٠٥.

تلك الشمولية تتمثل في صور شتى؛ أكبرها رد هذا الوجود كله.. بنشأته ابتداء، وحركته بعد نشأته، وكل انبثاقة فيه، وكل تحور وكل تغير وكل تطور، والهيمنة عليه وتدبيره وتصريفه وتنسيقه... إلى إرادة الذات الإلهية السرمدية الأزلية الأبدية المطلقة.. هذه الذات المريدة، القادرة، المطلقة المشيئة، المبدعة لهذا الكون، ولكل شيء فيه ولكل حي، ولكل حركة، وكل انبثاقة، وكل تحور، وكل تغير، وكل تطور بقدر خاص.. وبمجرد توجه الإرادة..

فالله سبحانه هو الذي أنشأ هذا الكون ابتداء، وهو الذي يحدث فيه بمشيئته كل تغيير جديد، وكل انبثاق وليد..[١].

ثم إن هذا الشمول يتناول كل قضية من القضايا بكلياتها وجزئياتها بصورة كاملة جامعة، وبسعة ودقة وتفصيل، لا يحتاج إلى العون من التصورات البشرية المنحرفة الضالة التي صدت الإنسان عن طريقه، وعقدت مسيرته في معرفة ما يتسم به هذا الكون من دقة عميقة، وشمولية واسعة...وتفسير جامع ومفصل تدل على وحدانية الخالق ﷻ والإقرار له وحده بالعبودية، وإفراده بالألوهية.

٥- النفاذ والصرامة وعدم المحاباة.

يترتب على ثبات السنن الإلهية وعمومها واستمرارها أنها لا تجامل أحدًا، ولا تميز بين فرد وفرد أو جماعة وأخرى لأي سبب من الأسباب، إنها تعبر عن العدل الإلهي المطلق.

فلا مجال فيها للأهواء، ولا تميل إلى طرف دون آخر، فالجميع سواسية في ميزانها، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (النساء: ١٢٣).

"إن كون هذه السنن قوانين مطردة تحكم الحياة والأحياء يقضي بأنها تجري على الناس جميعا، المؤمن منهم والكافر، ترتبط فيها الأسباب بمسبباتها، وقد جعل الله لكل شيء

---

[١] خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب ٩٦.

سببًا"[١]. "والأمور الدنيوية لا يمنعها الله عن طلابها إذا أتوا البيوت من أبوابها، والتمسوا الرغائب من طرقها وأسبابها، سواء أكانوا مؤمنين أم كافرين، وإنما الإيمان شرط للمثوبة في العقبى، وكمال السعادة في الدنيا"[٢].

يقول الدكتور عماد الدين خليل: "إن أي تأخر أو اهتزاز في نفاذ هذه السنن سوف يؤول إلى تمييع الحركة التاريخية، وعدم انضباطها جزائيا، ومن ثمَّ يؤول إلى موقف نقيض لمفاهيم الحق والعدل.. ومن أجل أن نطمئن، يبين لنا القرآن في أكثر من موضع ثبات هذه السنن ونفاذها، وعدم تبدلها وتحولها، إنها موجودة أساسا في صميم التركيب الكوني، وفي قلب العلاقات المتبادلة بين الإنسان والعالم"[٣].

٦- التسخير.[٤]

تتردد خصيصة التسخير في القرآن الكريم مرات عديدة، وتشغل مساحات واسعة منه؛ كونها أسلوبًا من أساليب القرآن الكريم في الدلالة على السنن الإلهية، وبيان التصور الإسلامي لمهمة الإنسان في هذا الوجود، ألا وهي: تحقيق العملية الإنجازية الاستخلافية الكبرى والشهود الحضاري وبناء العمران البشري؛ ولذلك وجه القرآن الكريم الإنسان إلى البحث عن قوانينه الكلية والكشف عن أسراره الكونية التي بثها في هذا الوجود من أجل معرفتها ثم استثمارها وتسخيرها، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ

[١] حتى يتحقق الشهود الحضاري، حسنة، ٧٤.

[٢] "وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون"، محمد رشيد رضا، مجلة المنار، المجلد:١، العدد: ٣١: جمادى الآخرة ١٣١٦هـ، ٥٩١.

[٣] حول إعادة تشكيل العقل المسلم، ص٥٣.

[٤] التسخير: التذليل والتسهيل.

اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ(٣٣)﴾ (إبراهيم). قال العلامة محمد أبو زهرة: "ومعنى سخرها مكَّن الإنسان من صناعتها واستخدامها، وجعلها تعلو في البحر سائرة من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق، حاملة خيرات وفيرة من أرض إلى أرض أخرى، هذه الخيرات كثيرة، وبذلك تكون الخيرات موزعة في الأرض بالقسطاس لولا ظلم الإنسان.

﴿وسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾ وهي المجاري العذبة كنهر النيل ودجلة والفرات وسيحون وجيحون، ومعنى سخرها سهلها وتكون في البلاد التي تقل أمطارها، ولا يكفي ما تنزل السماء من ماء لسقيها وزرعها، وسمي النهر نهرًا؛ لأنه ينهرها ويشقها ويجري فيها، والأنهار الكبار تمخر فيها السفن كالبحار، والله هو الرزاق.

بعد أن ذكر سبحانه ما سخر في الأرض من اقترانها بالسماء أخذ يبين للإنسان من أجرام السماء فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾؛ الدؤوب معناه: السير والمرور في استمرار ودأب من غير لغوب، وتلك سنة الله تعالى في أجرام السماء، فهي تسير في دأب يعلم الله تعالى سيرها، وناموسها وسننها من غير إبطاء، والشمس والقمر يسيران ويتحركان في دأب مستمر... وهي مسخرة يستفيد الإنسان من حركاتها، فالشمس ذات الضياء والأشعة التي تمد الزرع والشجر والثمار بالنمو، والإنسان بالدفء والحرارة والأشعة، وكل ما فيه حياة الإنسان، والقمر يمده بما تنتظم به الحياة في الإنسان والحيوان، وحسبك أن تعلم أن طَمْث المرأة وحملها وجهازها مرتبط بمنازل القمر، وأن تعلم أن المد والجزر مرتبطان أيضا بالقمر، وإن ارتباط الشمس بالأرض كان منهما الليل والنهار، فالأرض في دورانها يحجب عنها ضوء الشمس فيكون الليل وينبسط عليها ضوء الشمس فيكون النهار، وفي الليل الهدأة والسكون والثبات والراحة، والاستجمام، وفي النهار تكون الحركة والسعي للرزق"[1].

---

[1] زهرة التفاسير، ٨/ ٤٠٣٢-٤٠٣٣.

وقال جل وعلا: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك: ١٥). "أي إن ربكم هو الذي سخر لكم الأرض وذللها لكم، فجعلها قارّة ساكنة، لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال، وأوجد فيها من العيون، لسقيكم وسقى أنعامكم وزروعكم وثماركم، وسلك فيها السبل، فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا فى أرجائها، لأنواع المكاسب والتجارات، وكلوا مما أوجده لكم فيها بفضله من واسع الأرزاق- والسعى فى الأرزاق لا ينافى التوكل على الله"[1].

٧- الواقعية.

فإذا كانت سنن الله ربانية المصدر، فيكون طبيعيًا أن تكون واقعية، تتعامل مع حقائق موضوعية ذات وجود حقيقي، وأثر واقعي إيجابي، ومع الواقع المشهود، لا مع تصورات عقلية مجردة، ولا مع مثاليات خيالية لا مقابل لها في حياة الناس ولا وجود، ثم إن الناموس الذي يضعه الله تبارك وتعالى للحياة البشرية يحمل طابع الواقعية كذلك؛ لأنه قابل للتحقيق الواقعي في الحياة البشرية بأسرها..

وبمعنى آخر؛ فكون سنن الله واقعية، ينفي عنها الخيال، ويجعلها مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالواقع وما يدور فيه، فهي لا تنفصل عنه تمامًا، وهكذا تأتي سنن الله الإلهية لا لتسبح في بحار الخيال، ولا لتحلِّق في أجواء المثالية المُجنَّحة، فتفرض إنسانًا لا وجود له في الواقع، كما صنع الفارابي في مدينته الفاضلة وأفلاطون في جمهوريته الخيالية، وكما تخيَّلت الشيوعية المادية الغافلة عن الله والدار الآخرة في أذهانها عن المجتمع الذي تنعدم فيه الفوارق والطبقية وتزول الملكية، ولا يحتاج إلى دولة ولا قضاء ولا شُرطة ولا سجون!.

وهنا يتضح لنا أن سنن الله "تفسر أحداث الواقع أفضل تفسير وأبينه. نزل القرآن

[1] تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، ٣٩/ ١٥.

منجمًا حسب ما اقتضته الضرورة الظرفية، (...)، وجاء يسنن قوانين خضعت لها كل ظروف الزمان والمكان.

وإذا ما أخذنا سنة من السنن وعرضناها على الأحداث المعاصرة مثلاً تبين بها لا مجال للشك فيه بأن الغرب بفلسفاته الاجتماعية والعلوم الإنسانية ما استطاع فك لغز ترابط الأحداث، وعوامل الصراع السياسي؛ وذلك لإعراضهم عن سنن الله"[١].

ثم إن واقعيتها كذلك تتجلى في تسخير الله تعالى الناس لفعلها، فالمستكبر الظالم مثلاً عندما يعاقب، يعاقب على أيدي بشر آخرين، ممن هم أشد منه قوة وبطشًا، فينتقم الله عز وجل من الظالم بظالم مثله، وكذلك الكفار المستكبرين المعاندين، يعاقبهم الله تعالى بتسليط المؤمنين الصادقين عليهم، قال الله عز اسمه: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ (الأنفال: ١٨)، وقال جل ثناؤه: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ. وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤-١٥].

ولهذا فلم تنس السنن الإلهية في توجيهاتها وقوانينها واقع الكون والحياة، وواقع الناس بكل ظروفه وملابساته؛ لأن تلك السنن مصدرها صاحب الخلق والأمر الذي يعلم كل صغيرة وكبيرة في هذا الكون؛ لذلك جاءت تلك السنن منضبطة بهذا الضابط تدل الإنسان على ما يصلحه ويرقى به زمرة المرضيين، وتحذره من الفساد وما يهبط به إلى الحضيض.

تلك إذن، هي واقعية السنن لا تكلف الناس شططا، ولا ترهقهم عسرًا، ولا تجعل عليهم حرجًا، بل ترشدهم إلى سواء السبيل، تعالجهم إذا مرضوا، وتساعدهم على الشفاء لمن أراد الشفاء. ﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (الحج: من الآية ١٤).

[١] منهاج الفتوى على ضوء السنن الإلهية، محمد جابري، ٨٥.

٨- التوازن والتناسق.

يقول الحق جل ثناؤه: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾(الملك: من الآية ٣)؛ نقصد بالتوازن ذلك التناسق الفريد في الآفاق؛ في السموات والأرض، في كل المخلوقات؛ ذلك أن هذا الكون ومكوناته تعمل بانتظام وتعاون في خدمة غاية مشتركة. فالكواكب والأفلاك تسير في مسارها المحدد لها دون أدنى خلل أو اضطراب، فهي تتحرك في مداراتها منذ خلقها الله، وهي كذلك لا تتصادم، ولا تخرج عن مسارها وخطها المرسوم.

فالكون كله بما فيه من كواكب، ونجوم، وأفلاك ومجرات، يسير ضمن سنن الله التي أودعها الله فيه، فهو لا يملك أن يتقدم عليها أو يتأخر، ولا يملك أن يعدل فيها أو يغير أو يبدل ويحول، وإنما هو يسير وفق الناموس الإلهي الذي ارتضاه الله ﷻ له، يسير على مقتضى إرادته ومشيئته ﷻ؛ فهو مستسلم لأمر ربه، خاضع له، لا إرادة له ولا اختيار[1]، ولا اختيار فيما قدره الله للكون من الحركة والسكون، فلا غَرو أن نرى هذا التوازن الدقيق في خلق الله، وفي أمر الله جميعًا، فهو صاحب الخلق والأمر. فظاهرة التوازن، تبدو فيما أمر الله به، وشرعه من الهدى ودين الحق؛ أي: في نظام الإسلام ومنهجه للحياة، كما تبدو في هذا الكون الذي أبدعته يد الله فأتقنت فيه كل شيء.

ننظر في هذا العالم من حولنا فنجد الليل والنهار، والظلام والنور، والحرارة والبرودة، والماء واليابس، والغازات المختلفة، كلها بقدر وميزان وحساب، لا يطغى شيء منها على مقابله، ولا يخرج عن حده المقدر له.

وكذلك الشمس والقمر والنجوم والمجموعات الكونية السابحة في فضاء الكون الفسيح، إن كلاً منها يسبح في مداره، ويدور في فلكه، دون أن يصدم غيره أو يخرج عن

[1] هذا فيما يتعلق بالأجرام والكواكب؛ أما الإنسان فقد تركت له -سنن الله- الحرية الكاملة في أن يختار لنفسه ما يشاء، بينت له طريق الهدى وبينت له كذلك طريق الضلال وتركت له حرية الاختيار لكنه في الأخير يتحمل نتائج ما يختار.

دائرته[1]. ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[يس: ٤٠].

والقرآن الكريم يتحدث عن سنن الله العامة في الكون على أنها دعامة النظام الكوني المتماسك بوشائج التوازن الإلهي الذي يحكم به هذا النظام، فهذا الترابط المحكم بين عوالم الكائنات علويها وسفليها، وهذا التنسيق بين آحادها ومجموعاتها، وهذه الأوضاع المنسجمة التي تتراءى في وضع كل كائن في مكانه من التركيب الكوني، وهذا الاتساق في تقدير صلة كل عنصر من عناصر الكون بسائر العناصر -هو الإطار الذي تجمعت فيه الخطوط التي تصور سنن الله التي يتحقق بها التوازن بين جميع المخلوقات.

والتوازن بين عناصر الكون ووشائجه هو سنة الله التي دبر بها الكون، وعليها أدار فلك نظامه الإلهي البديع، وهذا التوازن هو العدل الذي قامت به السماوات والأرض، وهو الحق الذي خلقت به الحياة.

وبهذا يرسم القرآن العظيم صورة للنظام الكوني في نماذج من المخلوقات، يستبين منها أن الكون كله خاضع في نظام سيره وتركيب عناصره لسنن محكمة وحاكمة، مترابطًا بوشائجها في وحدة قائمة على اتساق في وضع وتركيب كل كائن بما يهيئ له القيام بأداء ما خُلق له من المنافع والمصالح، ما دام في موضعه من نظام الكون العام. وهذا التماسك والاتساق بين ذرات الكون هو ما نعنيه بالتوازن المحكوم بسنن الله في هذا الكون العظيم[2].

هذا جانب، والجانب الآخر في التوازن هو التوازن بين المشيئة الإلهية وثبات السنن الكونية.. فالمشيئة الإلهية طليقة لا يرد عليها قيد ما، مما يخطر على الفكر البشري جملة، وهي تبدع كل شيء بمجرد توجهها إلى إبداعه، وليست هنالك قاعدة ملزمة، ولا قالب مفروض تلتزمه المشيئة الإلهية، حين تريد أن تفعل ما تريد: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ

---

(١) الخصائص العامة للإسلام، ١٢٨.

(٢) السنن الإلهية، مجدي عاشور، ٨.

فَيَكُونُ﴾(النحل: ٤٠).

وفي الوقت ذاته شاءت الإرادة الإلهية المدبرة أن تتبدى للناس -عادة- في صورة نواميس مطردة، وسنن جارية، يملكون أن يرقبوها، ويدركوها، ويكيفوا حياتهم وفقها، ويتعاملوا مع الكون على أساسها.. على أن يبقى في تصورهم ومشاعرهم أن مشيئة -مع هذا- طليقة، تبدع ما تشاء، وأن الله يفعل ما يريد، ولو لم يكن جاريا على ما اعتادوا هم أن يروا المشيئة متجلية فيه، من السنن المقررة والنواميس المطردة. فسنة كذلك -وراء السنن كلها- أن هذه المشيئة مطلقة، مهما تجلت في نواميس مطردة وسنن جارية- ومن ثم يوجه الله الأبصار والبصائر إلى تدبر سننه في الكون، والتعامل معها، والنظر في مآلاتها- بقدر ما يملك الإدراك البشري- والانتفاع بهذا النظر في الحياة الواقعية[1].

٩- الوسطية.

إن الوسطية في كل شيء من أهم ما تميز به الإسلام عن غيره من الشرائع السابقة والقوانين الوضعية، ويقصد بها الاستقامة وعدم الزيغان، كما يقصد بها التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين أو التوسط بينهما؛ بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر ويحيف عليه، ولا يأخذ أحدهما الحق أكثر من الآخر ولا ينفرد بالتأثير ويطرد الطرف المقابل.

وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾(الرحمن: ٧-٩)، نلمح إشارة قوية إلى الوسطية، فلا وكس ولا شطط، ولا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير، في السنن الإلهية.

لقد صان الله قانونه وناموسه الكوني من الاندفاعات هنا وهناك، والغلو هنا وهناك، والتصادم هنا وهناك.. هذه الآفات التي لم يسلم منها أي تصور آخر، سواء أكانت

---

[1] خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب، ١٢٤.

التصورات الفلسفية أم التصورات الدينية التي شوهتها التصورات البشرية، بما أضافته إليها، أو نقصته منها، أوَّلته تأويلاً خاطئًا، وأضافت هذا التأويل الخاطئ صلب العقيدة[١].

فالوسطية من مميزات هذه الأمة، وتتجلى هذه الوسطية في كل شيء؛ فمثلاً ذم الله البخل لكنه ذم كذلك الإسراف، وجعل الإنفاق في سبيل الله هو المطلوب شرعًا. قال الحق جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾(الفرقان: ٦٧).

وكل نهج خالف خصيصة الوسطية برئ منه دين الله، ولئن أشرك كفار قريش مع الله وجعلوا له أندادًا وأنكروا الإله الواحد، فقد غالت أيضًا اليهود فقالت عزير ابن الله، وغالت النصارى فقالوا الله ثالث ثلاثة وقالوا المسيح ابن الله. تعالى الله وتقدس عما يقول المفترون المضلون علوًا كبيرًا.

وجاءت شريعة الإسلام بالحنفية السمحة، والوسطية والاعتدال، وبالقول الفصل الذي يعلو ولا يعلى عليه.

كيف لا تتسم السنن الإلهية بخصيصة الوسطية، وهي مستمدة من كلام الله تعالى، على عكس ما نراه في أي نظام يصنعه البشر الذي لا يخلو من التفريط أو الإفراط؛ ذلك أن من المعضلات التي لم تنجح القوانين الوضعية في حلها؛ التطرف في التشريع، فبعض القوانين تجنح إلى أقصى اليسار، وبعض آخر يجنح إلى أقصى اليمين، وقلما يوفق واضعوا القوانين البشرية إلى التوسط والاعتدال في قوانينهم؛ ذلك بأن الوسطية ليست بالأمر الميسور الهين.

لكن السنن الإلهية الربانية المصدر سلكت طريقًا وسطًا من غير تفريط ولا إفراط، فلا هي تضيق الخناق على الناس حتى تملها نفوسهم وتنفر منها قلوبهم، ولا هي أرخت لهم العنان في السهولة حتى تغرق النفوس في أوحال شهواتها وبراثين ملذاتها، وتبلغ منتهى هواها ومآربها.

---

[١] المرجع نفسه، ١١٩.

هكذا تميزت سنن الله بالوسطية؛ بالاعتدال والتوسط دون إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير، وصدق الله جل وعلا القائل في كتابه الحكيم:﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة: من الآية١٤٣).

١٠- الأجل.[١]

قال الحق عز سلطانه: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾(الرعد: من الآية٣٨)؛ أي: لكل كتاب أجل قُدِّم الخبر هنا، ولو أخر لتوهم السامع أنه صفة، أقول: هذا ما ذهب إليه الضحاك والفراء حيث قالا: "فيه تقديم وتأخير" والمعنى: لكل كتاب أجل، وقد تعقب أبو حيان هذا القول قائلاً: "ولا يجوز ادعاء القلب إلا في ضرورة الشعر، وأما هنا فالمعنى في غاية الصحة بلا عكس ولا قلب، بل ادعاء القلب هنا لا يصح المعنى عليه؛ إذ ثم أشياء كتبها الله- تعالى- أزلية كالجنة ونعيم أهلها، لا أجل لها".

ولهذا، فإن الله تبارك وتعالى قيد كل شيء في هذا الوجود بقدر معلوم إلى أجل معلوم، فيكون معنى الآية: أن لكل أمر قضاه الله كتابًا وأجلاً قد كتبه الله عنده، لا يتقدم ولا يتأخر.

والأجل "يختلف باختلاف الأشياء، والسبب الذي أجلت له، لكن لا ينفك عن الزمن والأجل. ومن هنا كان عامل الزمن ضابطًا من ضوابط السنن الإلهية"[٢].

وعليه، فنلمح مما سبق أن أجل كل شيء يختلف عن الآخر؛ فمنه ما يعد بالشهور نحو قوله جل وعلا: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾(الحج: من الآية ٥)، ومنه ما يقاس بالعمر كما جاء في قوله تعالى وتقدس: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾(آل عمران: من الآية ١٤٥)، وقوله عز من قائل: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(المنافقون: ١١)، وقوله جل ذكره:﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا

[١] الأجل: المدة المضروبة للشيء. مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة: أجل، حرف الهمزة، ٦٥.
[٢] التجديد في دراسة الحديث النبوي الشريف على نور السنن الإلهية، ١٢٢.

يَسْتَأْخِرُونَ﴾(الحجر: ٥)، ومنها ما يدوم بدوام الدنيا كقوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(لقمان: ٢٩).

ولولا اتسام سنن الله بهذه الخصيصة للحق بالكافرين العذاب في أول وهلة، قال الحق عز وجل: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(العنكبوت: من الآية ٥٣)، وقال الحق جل في علاه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾(فاطر: ٤٥).

هكذا ترتبط سنن الله بالأجل؛ فلكل شيء أجل، فإذ جاء أجله فلا يتقدم ولا يتأخر: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللهَ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(نوح: من الآية ٤).

ثانيا: صفات السنن الإلهية.

لا يعزب عن ذي لب أن القرآن الكريم يتصف بصفات ربانية ثابتة كما جاء في آياته البينات، وحيث إن الإلهية نستخرجها ونستنبطها من القرآن الكريم والسنة النبوية، فلا غرو أن تكون صفاتها ومميزاتها كالقرآن الكريم والسنة النبوية.

وصفات السنن الإلهية التي اتصفت بها أنى وُجدت وُجد الصدق والعدل، وحيثما حلّت حلّ الصدق والوفاء، وتبقى كلمات الله دائما هي العليا.

ونجمل مواصفات سنن الله فيما يلي:

١- الصدق. ٢- العدل. ٣- العلو والرفعة. ٤- القول الفصل.

نقف مليًّا عند هذه الصفات لنسلط عليها بعض الأضواء لنستضيء بنورها:

١-الصدق.

قال الحق جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهَّ حَدِيثًا﴾(النساء: من الآية ٨٧)، وقال جل

ذكره: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (النساء: من الآية ١٢٢)؛ إن صدق السنن الإلهية يعني "وقوع مضمونها من حيث كونه خبرًا لسبق علم الله به، وكونه في الكتاب مسطورًا، ولنفي الله إخلاف الوعد وذمه للمخلفين له، ومع كل هذا وذاك فالله فعال لما يريد، ما فعل هذا جبرًا، ولا فرض عليه فرضًا. إنما حرم الظلم على نفسه وجعله محرما بين مخلوقاته من إنس وجان، ومضت كلماته التامات لا تحابي أحدًا، ولا تميز بين رفيع ووضيع، ولا بين طويل وقصير، ولا بين أبيض وأسود، ولا بين غني وفقير إلا بالتقوى، وبمقتضى دلالات كلمات الله المتميزة بميزتي الصدق الذي لا يشوبه باطل، والعدل الذي لا يشوبه ظلم أو استبداد"[١].

يقول الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنعام: ١١٥). قال الإمام الطاهر بن عاشور (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م) -رحمه الله-: "فالكلمات مراد بها ما سنه الله وقدره: من جعل أعداء لكل نبي يزخرفون القول في التضليل، لتصغى إليهم قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، ويتبعوهم، ويقترفوا السيئات، وأن المراد بالتمام التحقق، ويكون قوله: لا مبدل لكلماته نفي أن يقدر أحد أن يغير سنة الله وما قضاه وقدره"[٢].

ويظهر هذا الصدق جليًّا في الوعود القرآنية، قال الحق جل وعلا لنبيه الكريم ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ (القصص: من الآية ٨٥). وتمضي الأيام ويتحقق الوعد القرآني بعد بضع سنين من نزول الآية، فيعود النبي ﷺ إلى مكة فاتحًا منصورًا بعدما خرج منها مهاجرًا إلى المدينة.

وقال الباري سبحانه وتعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (الفتح: ٢٠)؛ فتحقق الوعد القرآني بفتح مكة وهي الغنيمة المعجلة، ثم تتالت باقي الوعود في عهد الخلفاء الراشدين ﷺ، ومن بعدهم من الفتوحات الإسلامية التي جعلها الله على أيديهم، ويبقى

---

[١] التجديد في دراسة الحديث النبوي الشريف، ١٣٢.

[٢] التحرير والتنوير، ٨/ ٢١.

الوعد مفتوحًا إلى آخر الزمان ويدخل في ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة﴾ كل الغنائم التي سيغنمها المسلمون إلى يوم القيامة.

٢- العدل.

إن البشرية ترنو دائمًا "إلى إيجاد قوانين تتصف بالعدل وتنفي الظلم والجور، وكم يكون مصاب البشر أليمًا عندما يجدون القوانين التي يرجونها لإقرار العدل، والإنصاف تقنن الظلم بحيث يكون هو النظام الذي يحكم في رقاب العباد. إننا لا نريد بالعدل تطبيق القاعدة القانونية ؛ فجور القاضي وظلم الحاكم في الحكم بخلاف القانون ليس هو المراد هنا، بل المراد هو اتصاف القانون بالعدل.

إن الذين يضعون القوانين البشرية لا يمكنهم أن ينسلخوا من طبائعهم البشرية ؛ ولذلك نراهم يميلون بالقوانين تجاه الفئة الحاكمة، فتعطى من المصالح والمنافع ما لا يعطى غيرها، وهي في هذه الحالة تقرر الظلم وهي تعلم بذلك. وفي بعض الأحيان تضع القوانين الظالمة بسبب جهلها بالعدل الذي يجب أن تقننه. (...) فواضعو القوانين البشرية بشر فيهم ظلم وجهالة، وبسبب ذلك يقررون كثيرًا من القواعد القانونية التي تتصف بالظلم"[١].

أما سنن الله وناموسه الكوني وقانونه العادل ليس من وضع البشر، بل هي سنن بينها الله في كتابه الحكيم، والله يتصف بالعدل التام ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾(الكهف: من الآية ٤٩)، وكذلك سننه؛ فالسنن مصطبغة بالعدل اصطباغًا تامًا، فلا تميل تلك السنن إلى جانب ضد جانب، بل هي عامة وشاملة ومطردة ولا تحابي أحدا حاكمًا كان أم محكومًا مؤمنًا أم كافرًا، رجلاً أم امرأة. الكل سواسية في ميزانها ومنظارها ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(المائدة: من الآية ٥٠)؛ فسنن الله وقوانينه عدل كله وإنصاف للجميع، تضع كل شيء في موضعه ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(

[١] المدخل إلى الشريعة والفقه الإسلامي، ٨٤.

الأنعام: ١١٥). قال الإمام أبو الخطاب قتادة –رحمه الله– في تفسيره لهذه الآية: "صدقًا فيما قال، وعدلاً فيما حكم"[١]، وقال الحافظ ابن كثير –رحمه الله: "فكل ما أخبر به فحق، لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهى إلا عن مَفْسَدة"[٢].

هكذا كان عدل الله بالمرصاد للطغاة المكذبين، وكان صدق الآيات الحقيقة القاهرة بأنوارها للكاذبين. ولنا في قصة سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم خير دليل على ذلك العدل: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ للهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (يوسف: ٥١).

أمثلة لعدالة سنن الله بكون الجزاء من جنس العمل

العمل	الجزاء
إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا	يُؤْتِكُمْ خَيْرًا
فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ	فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا
فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا	يَرَهُ

---

[١] تفسير ابن كثير، ٣/ ٣٢٢؛ تفسير البغوي، ٣/ ١٨١.

[٢] تفسير ابن كثير، ٣/ ٣٢٢.

وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا	يَرَهُ
مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا	يُجْزَ بِهِ
اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ	وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ
قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ	اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ

٣- العلو والرفعة.

قال الباري جل وعلا: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: من الآية ٤٠)؛ أي "كلماته القدرية وكلماته الدينية هي العالية على كلمة غيره"[١]، وقد قرئ ﴿كلمة الله﴾ بالنصب، و"لكن القراءة بالرفع أقوى في المعنى؛ لأنها تعطي معنى التقرير. فكلمة الله هي العليا طبيعة وأصلاً"[٢].

وكلمةُ الله هي الكلمة الباقية الطيبة، وهي الكلمة العليا على الدوام؛ ولهذا لم يعطفها على ما قبلها.

وهكذا فسنن الله وقانونه العادل هي الظاهرة والعالية فوق كل القوانين، وهي كلمة "نافذة بتمامها لا تعترضها كلمة أيٍّ كان، بذلك استحقت العلو والرفعة. وكلمات الله نور وبرهان مبين، وكلمة الجاحدين ذليلة حقيرة مهما ساندتها من عدة وعدد فمآلها إلى زوال وخسف، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون والمشركون. فلابد من ظهور دين الحق وكلمات الله"[٣].

ولما كانت كلمة الله هي العليا فإن من سار على منهاجها اتصف بصفاتها: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩).

---

[١] تفسير السعدي، ١/ ٣٣٧.

[٢] في ظلال القرآن، ٣/ ١٦٥٦.

[٣] التجديد في دراسة الحديث النبوي الشريف، ١٤٠.

كانت كلمة الله ﷻ هي العليا، واجتمعت في كتاب الله تعالى فكان هو المهيمن على كل شيء وعلى من سواه من الكتب المنزلة السابقة، وعلى كل فكر أنتجه البشر.

٤ – القول الفصل.

قال الحق جل ذكره: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤)﴾(الطارق)؛ أي:"حق وجدٌّ يفصل[١] بين الحق والباطل"[٢]، والله تبارك وتعالى "يقسم بهذين الكائنين وهذين الحدثين: السماء ذات الرجع. والأرض ذات الصدع.. حيث يوقع مشهدهما وإيحاؤهما، كما يوحي جرس التعبير ذاته بالشدة والنفاذ والجزم.. يقسم بأن هذا القول الذي يقرر الرجعة والابتلاء أو بأن هذا القرآن عامة هو القول الفصل الذي لا يتلبس به الهزل. القول الفصل الذي ينهي كل قول وكل جدل وكل شك وكل ريب"[٣].

عَنِ الْحَارِثِ الأعور ﷺ قَالَ : «مَرَرْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَإِذَا النَّاسُ يَخُوضُونَ فِي الأَحَادِيثِ، فَدَخَلْتُ عَلَى عَلِيٍّ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَلاَ تَرَى أَنَّ النَّاسَ قَدْ خَاضُوا فِي الأَحَادِيثِ!. قَالَ: وَقَدْ فَعَلُوهَا؟! قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ أَمَا إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِّ ﷺ يَقُولُ : ((أَلاَ إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ)) .

فَقُلْتُ: مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللهِّ؟ قَالَ: «كِتَابُ اللهِّ؛ فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، هُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُّ، وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُّ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِّ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لاَ تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلاَ تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلاَ يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلاَ يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا

---

[١] وفي تفسير السعدي:" أي: حق وصدق بين واضح". ٩١٩.

[٢] تفسير البغوي، ٨/ ٣٩٥.

[٣] في ظلال القرآن، ٦/ ٣٨٨٠.

يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ (الجن: ٢)، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ». خُذْهَا إِلَيْكَ يَا أَعْوَرُ»[١].

وبما أن سنن الله تعالى تتسم بسمات الوحي، فهي تفصل بين الحق والباطل، وبين المتقين والظالمين، والكافرين والمؤمنين، وقاطعة لكل من ناوأها وعاداها وأعرض عنها.

إنها كلمات الله التامات، ووعوده الحقة، وعهوده الثابتة، "تلك الكلمات الحاسمات بين الحق والباطل، بين الجد والهزل: الكلمات الصادقات الصارمات القاطعات التي لا يبقى بعدهن غبش ولا لبس ولا شكوك ولا حيرة ولا ظنون"[٢].

إنها حجة الله البالغة وبرهانه الصادق وآياته البينات الدامغة للباطل، الرافعة لراية الحق المبين، الدالة على وحدانية الخالق ﷻ.

[١] سنن الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن، ح٢٩٠٦، قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَإِسْنَادُهُ مَجْهُولٌ.

[٢] التجديد في دراسة الحديث النبوي على نور السنن الإلهية، ١٤٢.

المبحث الرابع

السنن الإلهية: مقاصد وآثار

أولا: مقاصد السنن الإلهية

إن للسنن الإلهية مقاصد عدة، يمكن إجمال أهمها في الآتي:

١ – إثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ.

إن دعوة أنبياء الله ورسله واحدة ومنهاجهم واحد، وعقيدتهم واحدة... ولهذا فرسول الله ﷺ في دعوته ورسالته ليس بدعًا من الرسل، وإنما هو رسول من رب العالمين. قال الله جل جلاله: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [سورة الأحقاف: ٩]، وإن نزول القرآن عليه بالسنن الإلهية في النفس والمجتمع والآفاق وأخبار الأمم السابقة والحوادث الماضية لأكبر دليل على صدق نبوته ورسالته. قال الحق جل وعلا: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[هود:٤٩]؛ "لأن النبي ﷺ كان أميا لم يختلف إلى مؤدب ولا معلم، ولا فارق وطنه مدة يمكنه الانقطاع فيها إلى عالم يأخذ ذلك عنه؛ فإذا علم بها وتدبر العاقل من قومه ذلك علم أنه بوحي من الله سبحانه وتعالى، فآمن به وصدقه وكان ذلك من المعجزات الدالة على صدق نبوته، وقد يُنكر ويجحد حسدًا وعنادًا"[1].

إن كل هذه السنن الثابتة والقوانين الربانية التي يقف أمامها الإنسان متعجبًا مندهشًا لحجة واضحة وبرهان جلي على صدق نبوة سيدنا محمد ﷺ، الذي بعثه الله تعالى ليبلغنا أن الذي خلق الكون وما فيه ونظمه تنظيمًا دقيقًا ومتناسقًا، وجعل له نواميس مطردة هو الله تعالى.

---

[1] الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، محمد السخاوي، ١٤.

والحاصل أن نجاح الدراسات النفسية والاجتماعية يقوم على تكرار التجارب، وعلى الإحصاء الدقيق اللذين يسمحان باستنتاج قانون نفسي أو اجتماعي ما؛ يصبح بعد ذلك بمثاب تنبؤ بحدوث أمر ما إذا توفرت الشروط المؤدية إليه، كما يحدث -مثلاً- في تنبؤات الأحوال الجوية، ولكن المسألة من وجهة نظر علمية تحتاج إلى خبير ومتخصص في كل ميدان على حدة، ليتمكن من حصر الظاهرة في مجال معين يتحكم في قوانينها، وتحتاج فوق ذلك إلى استقرار، وإلى وسائل وأدوات، وإلى علم يعين على التسجيل المنظم لشروط حدوث الظاهرة، وبيان كيفية تفاعل تلك الشروط.

وهذا لم يكن ليتحقق لأمي عاش في وسط الأميين، بعيد عن الطرائق العلمية ووسائلها، بينما كانت القوانين والسنن التي تساق في القرآن الكريم قوية الحجة والبيان، وصادقة العلم والبرهان، بحيث يقف العلم الحديث أو الباحث المتطلع إلى معرفة أسرار الكون والحياة، مبهورا مبدوها أمام دقة ذلك القانون أو تلك السنن[1].

والحق أن الله تبارك وتعالى أكد هذه الحقيقة البلجاء التي تجعلنا نقف معجبين أمام ثبات السنن الإلهية واطرادها وانتظامها وصرامتها، وأشار إليها بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[الأنعام: ١٠٥]. فالآية الكريمة تبين أن العملية كانت مقصودة؛ أي إنها تحمل دلالة التحدي العلمي والمنهجي الصارخ، بمعنى أن الدقة والعمق اللذين تطرح بهما هذه السنن والقوانين التي قد لا تستقيم بهذا المستوى حتى لكل عالم -على حدة- في ميدان تخصصه، بَلْه أن تستقيم لرجل أميٍّ؛ لذلك ستنصرف العقول إلى التساؤل عن مصدر هذا العلم الخارق للعادة؛ إذ كيف تستقيم لشخص واحد بشكل معجز لم يسبق أو يلحق بمثله؟ ولهذا يجد المجادل لإعجاز القرآن نفسه حائرا حينما يقول القرآن الكريم عن رسول الله ﷺ ﴿دَرَسْتَ﴾ لأنه على يقين أن من درس قد يتعمق في ميدان

[1] السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم، مجدي عاشور، ١٢٢.

أو اثنين، أما أن يتعمق في كل الميادين وتنصاع له العبقرية فيها جميعًا على حد سواء فهذا أمر خارق للعادة فعلاً.

هذا فضلا عن كون التجارب العلمية يتم اختبارها في مناطق مختلفة من العالم، وعبر مراحل متعددة من مراحل التاريخ البشري. وهذا لم يكن ليتاح لامرئ قط لا قبل ذلك ولا بعده، مع العلم أن اختبار مثل تلك التجارب والنتائج يحتاج إلى آلاف السنين، بمعنى أنه يحتاج إلى تراكمات علمية تنقل تجارب الأمم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾.

وعلى سبيل المثال نجد أن التأكد من الترابط الوثيق بين تغيير الواقع وتغيير النفس المخبر عنه في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[الرعد: ١١] يحتاج لاستقراء الوقائع التاريخية بدقة تسمح باستنتاج قانون عام يصاغ بهذه الدقة التي تجعله يصدق في كل زمان ومكان[١].

وكم يحتاج العالم من الوقت لإجراء تجارب تسمح له بصياغة قانون نفسي يبين العلاقة القائمة بين المثير والاستجابة من جهة، وعلاقتهما بالعوامل التي تحول دون ذلك من جهة أخرى، ثم كيف يمكن أن نخلص موضوع الاستجابة من الحوائل المانعة من ذلك؟ إن الله يصوغ ذلك بقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾[الأنعام: ٣٦].

فهناك مؤثر، وهناك استجابة، والمؤثر هو النص الذي يرسله الداعي إلى الله، والاستجابة هي التغير الذي يطرأ في نفسية السامع وعقليته، ولكن الاستجابة مشروطة بصفاء النفس والعقل من الموانع التي تحول دون حدوث السماع الحق المؤدي إلى الاستجابة[٢].

إن استخراج سنن وقوانين لها هذه القوة وذلك الإحكام، بحيث تصير صالحة لكل زمان ومكان يتوقف حقًا على تجارب علمية دقيقة، وهو أمر لم يتحقق لأحد في ذلك الزمان

---

[١] المرجع نفسه، ١٢٢-١٢٣.

[٢] نظريات الإعجاز القرآني، أحمد رحماني، ١٢٥.

ولا فيها بعده. ولهذا لم يكن الناس يصدقون أن هذا من عند محمد ﷺ فكانوا يقولون: (درست) ولكنهم لم يستطيعوا أن يحددوا المدرسة التي درس بها، فأحالهم الله عليها بقوله جل شأنه: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾[العلق]..- أي أن المدرسة التي درس بها هي مدرسة الوحي[١].

وبناء على ما سبق فإن هذه السنن الإلهية هي تثبيت لنبوة رسول الله ﷺ وتصديق لدعوته ورسالته، إذ لابُدَّ أن يأتي كل رسول ومعه آية؛ لتثبت صِدْق بلاغه عن الله؛ فكانت هذه السنن من دلائل صدق نبوة سيدنا رسول الله ﷺ؛ لأنها لم ترد إلا في القرآن الكريم، وهذا ما انتبه إليه رشيد رضا -رحمه الله- في تفسيره لما قال: "لم يعهد في كتاب سماوي، ولعله أرجئ إلى أن يبلغ الإنسان كمال استعداده الاجتماعي، فلم يرد إلا في القرآن الذي ختم الله به الأديان[٢].

وقال أيضًا: "لم يعرف كتاب قبل القرآن نطق بأن للأمم في قوتها وضعفها وحياتها وموتها سننًا ثابتة لا تتبدل ولا تتحول"[٣].

ألا تؤكد كل هذه السنن الإلهية والنواميس المطردة والقوانين الثابتة ما جاء في كتاب رب العالمين: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)﴾[المائدة]؟

٢- توحيد الله تعالى.

إن السنن الإلهية في الكون والحياة التي يسير الكون والحياة بمقتضاها سيرًا محكمًا منظمًا، مما هو برهان ناطق على وحدانية الله، وعنوان صادق على قدرته وحكمته.

وإن "اطّراد السنن الإلهية في العوالم العلوية والسفلية، ووحدة النظام مع الإتقان في

---

[١] انظر: المرجع السابق، ١٢٦. السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم، ١٢٤.

[٢] تفسير المنار، ٤/ ١١٦.

[٣] "الحق والباطل والقوة"، محمد رشيد رضا، مجلة المنار، غرة المحرم ١٣٢٤هـ، المجلد التاسع، ٥٢.

جميع هذه الأكوان: يدلاّن على أن لها خالقًا عليمًا، قادرًا حكيمًا حيًّا قيومًا، لا رادّ لإرادته، ولا معقب لحكمه وحكمته، وأنه واحد لوحدة النظام المشهود في جميع الوجود. وبهذا يكون مؤمنًا بالبرهان، متبعًا طريق القرآن وإن لم يخطر بباله حدوث الذات وحدوث الزمان"[١].

هذا، وقد نثر الحق سبحانه في الكون آياتٍ عجيبة، ولكل منثور في الكون حكمة... منها الآيات الكونية التي تحدثنا عنها، وهي عجائب؛ وهي وحُجَّة للمتأمل أن يؤمن بالله الذي أوجدها؛ وهي تلفِتُك إلى أن مَنْ خلقها لابُدَّ أن تكون له منتهى الحكمة ومنتهى الدِّقة، وهذه الآيات تلفتنا إلى صدق توحيد الله والعقيدة فيه.

وحينما أعلن الله بواسطة رسله أنه سبحانه الذي خلقها، ولم يَقُلْ أحد غيره: «أنا الذي خلقت» فهذه المسألة مسألة الخلق تثبُت له سبحانه، فهو الخالق وما سواه مخلوق، وهو المتصرف وحده في هذا الكون، وهذه الآيات قد خُلِقت من أجل غاية هدف هو توحيد الله تعالى.

كل هذه آيات تنبه الإنسان الموجود في الكون أنه يتمتع فيه طبقاً لنواميس عليا؛ فيها سِرُّ بقاء حياته؛ فيجب أن ينتبه إلى مَنْ أوجدها[٢].

وهكذا نجد الآيات الكونية هي عجائب بكل المقاييس، والآيات المصاحبة للرسل هي معجزات خَرَقتْ النواميس، وآياتُ القرآن بما فيها من أحكام تَقِي الإنسان من الداء قبل أن يقع، وتُجبرهم معضلات الحياة أن يعودوا إلى أحكام القرآن ليأخذوا بها، ويوحدوا الله تعالى في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته[٣].

وعليه، فهذه السنن الإلهية تقوم على عقيدة توحيد الله تعالى بوصفه الدعامة الرئيسة،

---

[١] "حدوث العالم في نظر الإسلام والفلسفة"، محمد رشيد رضا، مجلة المنار، غرة شعبان، ١٣٢٠هـ، المجلد الخامس، ٥٨١.

[٢] تفسير الشعراوي، ١٢/ ٧١١١-٧١١٢.

[٣] المصدر نفسه، ١٢/ ٧١١١-٧١١٣.

والقطب الذي تنجذب إليه كل الموجودات، وتستمد منه وجودها وبقاءها ووظيفتها.

فالتوحيد هو مرتكز كل الدعوات الرسالية في التاريخ، ومقصدها الكلي الأساس، وهو قطب الرحى الذي تدور حوله حركة الكون كلها، وتقوم عليه الخلافة البشرية في الأرض، وأي خروج عن ثوابته وضوابطه يخل بمقتضيات الخلافة، ويعرض الوجود الإنساني لأخطار محققة في العاجل والآجل، كما جاء ذلك في القرآن الكريم وعلى لسان النبي الأمين ﷺ، ومؤكد في الخبرة البشرية على مر التاريخ. ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِّ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، ومن أراد التأكد من حقيقة عواقب الإخلال بثوابت التوحيد ومقتضياته فعليه أن يدرس حوادث الأمم الْمُتَقَدّمَة وَمَا نزل بهم.

٣- عبادة الله تعالى.

إن بعد أن ينتبه الإنسان إلى وجود واحد أعلى، هو الذي جعل لهذا الكون وهذه الحياة نظامًا متناسقًا ودقيقًا وثابتًا ومطردًا كان عليه أن يسأل: ماذا يريد منه هذا الخالق الأعلى؟

ليجد الجواب الكافي في قوله جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللهَّ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾[الذاريات]. "إن هذا النص الصغير ليحتوي حقيقة ضخمة هائلة، من أضخم الحقائق الكونية التي لا تستقيم حياة البشر في الأرض بدون إدراكها واستيقانها، سواء أكانت حياة فرد أم جماعة أم حياة الإنسانية كلها في جميع أدوارها وأعصارها.

وإنه ليفتح جوانب وزوايا متعددة من المعاني والمرامي، تندرج كلها تحت هذه الحقيقة الضخمة التي تعد حجر الأساس الذي تقوم عليه الحياة.

وأول جانب من جوانب هذه الحقيقة أن هنالك غاية معينة لوجود الجن والإنس تتمثل في وظيفة من قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده، ومن قصر فيها أو نكل عنها فقد

أبطل غاية وجوده وأصبح بلا وظيفة، وباتت حياته فارغة من القصد، خاوية من معناها الأصيل الذي تستمد منه قيمتها الأولى، وقد انفلت من الناموس الذي خرج به إلى الوجود، وانتهى إلى الضياع المطلق الذي يصيب كل كائن ينفلت من ناموس الوجود، الذي يربطه ويحفظه ويكفل له البقاء.

هذه الوظيفة المعينة التي تربط الجن والإنس بناموس الوجود هي العبادة لله أو هي العبودية لله.. أن يكون هناك عبد ورب، عبد يعبد، ورب يعبد، وأن تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار"[1].

وإن حقيقة العبادة تتمثل إذن في أمرين رئيسين:

الأول: هو استقرار معنى العبودية لله في النفس؛ أي استقرار الشعور على أن هناك عبدًا وربًّا، عبدًا يَعبد، وربًّا يُعبد، وأن ليس وراء ذلك شيء، وأن ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار ليس في هذا الوجود إلا عابد ومعبود وإلا رب واحد والكل له عبيد.

والآخر: هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة، التوجه بها إلى الله خالصة، والتجرد من كل شعور آخر، ومن كل معنى غير معنى التعبد لله.

إن الإنسان عندما يقوم بتسخير تلك السنن التي بثها الله تعالى في الكون والحياة كما أمره الله تعالى، عندئذ يعيش في هذه الأرض شاعرًا أنه هنا للقيام بوظيفة من قبل الله تعالى، جاء لينهض بها فترة؛ طاعة لله وعبادة له لا أرب له هو فيها، ولا غاية له من ورائها، إلا الطاعة، وجزاؤها الذي يجده في نفسه من طمأنينة ورضى عن وضعه وعمله، ومن أنس برضى الله عنه ورعايته له، ثم يجده في الآخرة تكريمًا ونعيمًا وفضلاً عظيمًا.

---

[1] في ظلال القرآن، ٦/ ٣٣٨٦.

وعندئذ يكون قد فر إلى الله حقًّا؛ يكون قد فر من أوهاق[١] هذه الأرض وجواذبها المعوقة ومغرياتها الملفتة.

ويكون قد تحرر بهذا الفرار. تحرر حقيقة من الأوهاق والأثقال. وخلص لله، واستقر في الوضع الكوني الأصيل: عبدا لله. خلقه الله لعبادته. وقام بها خلق له. وحقق غاية وجوده[٢].

أما قوله عز وجل: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾[الذاريات]؛ أي لا يكون حافز المؤمن للعمل وبذل الجهد في الخلافة هو الحرص على تحصيل الرزق، بل يكون الحافز هو تحقيق معنى العبادة الذي يتحقق ببذل أقصى الجهد والطاقة، ومن ثم يصبح قلب الإنسان معلقًا بتحقيق معنى العبادة في الجهد، طليقًا من التعلق بنتائج الجهد.. وهي مشاعر كريمة لا تنشأ إلا في ظل هذا التصور الكريم.

وإذا كانت البشرية لا تدرك هذه المشاعر ولا تتذوقها؛ فذلك لأنها لم تعش- كما عاش جيل المسلمين الأول- في ظلال هذا القرآن، ولم تستمد قواعد حياتها من ذلك الدستور العظيم.

وحين يرتفع الإنسان إلى هذا الأفق؛ أفق العبادة، أو أفق العبودية، ويستقر عليه فإن نفسه تأنف حتمًا من اتخاذ وسيلة خسيسة لتحقيق غاية كريمة، ولو كانت هذه الغاية هي نصر دعوة الله وجعل كلمته هي العليا؛ فالوسيلة الخسيسة من جهة تحطم معنى العبادة النظيف الكريم. ومن جهة أخرى فهو لا يعني نفسه ببلوغ الغايات، إنما يعني نفسه بأداء الواجبات؛ تحقيقًا لمعنى العبادة في الأداء، أما الغايات فموكولة لله، يأتي بها وفق قدره الذي يريده، ولا داعي لاعتساف الوسائل والطرق للوصول إلى غاية أمرها إلى الله، وليست داخلة في حساب المؤمن العابد لله..[٣].

---

[١] أوهاق: من وهق. والوهق: الحبل في أحد طرفيه أُنشوطةٌ يُطْرح في عنق الدَّابة والإنسان حتى يؤخَذَ. ينظر: لسان العرب، مادة: وهق، ١٠/ ٣٨٥.

[٢] في ظلال القرآن، ٦/ ٣٣٨٧-٣٣٨٨.

[٣] المرجع نفسه، ٦/ ٣٣٨٨-٣٣٨٩.

وغاية المرام، إذا كان تحقيق الاستخلاف في الأرض من المقاصد فإنه وسيلة إلى مقصد أعظم ألا وهو عبادة الله تعالى والسعي لنيل رضاه؛ فتكون العبودية روح هذه الخلافة وجوهرها >بل "كل عمل يؤدي إلى عمارة الكون واستنباط أسرار الله في الوجود يعتبر عبادة لله؛ لأنك تخرج من كنوز الله التي أودعها في الأرض ما يلفت الناس إلى الحقيقة الكونية التي جاء بها الإيمان"[١].

٤- بناء الإنسان الصالح.

إن مما يقصد إليه القرآن من ذكر السنن الإلهية مقصد إصلاح البشرية -التي أنعم الله عليها بنعمة الخلق والإيجاد، وبنعمة التوجيه والإمداد- إصلاحًا يجمع لها بين خيري الدنيا والآخرة، وسعادتي الروح والجسم وطيب المعاش والمعاد، ويجعلها جديرة بالخلافة في الأرض.

فالحكمة من بيان هذه السنن الإلهية والحث على اكتشافها واستنباطها ثم تسخيرها هداية الإنسانية إلى صلاحها، وإثارة الخير في نفوسها؛ فلخيرها نزل على رسول الله ﷺ القرآن الكريم، ولهدايتها وجب على الرسول بيان ما أنزل إليه من ربه: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)﴾[النحل]، ولتهذيب نفسها وإصلاح أخلاقها وأمرها بعث الله تعالى النبي العدنان ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، "؛ فآياته المتلوة هي سور القرآن، المرشدة إلى سننه في الأكوان، والتزكية هي التربية بالعمل وحسن الأسوة، و(الكتاب) هو الكتابة التي تخرج العرب من أميتهم، و(الحكمة) هي العلوم النافعة الباعثة على الأعمال الصالحة... فجميع مقاصد القرآن وبيان السنة له تدور على هذه الأقطاب الثلاثة"[٢].

---

[١] تفسير الشعراوي، ٤/ ٢٢٠٧.

[٢] الوحي المحمدي، ١١٩.

وقوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.. أي "وإنها لتزكية وإنه لتطهير ذلك الذي كان يأخذهم به الرسول ﷺ تطهير للضمير والشعور، وتطهير للعمل والسلوك، وتطهير للحياة الزوجية، وتطهير للحياة الاجتماعية، تطهير ترتفع به النفوس من عقائد الشرك إلى عقيدة التوحيد، ومن التصورات الباطلة إلى الاعتقاد الصحيح، ومن الأساطير الغامضة إلى اليقين الواضح، وترتفع به من رجس الفوضى الأخلاقية إلى نظافة الخلق الإيماني، ومن دنس الربا والسحت إلى طهارة الكسب الحلال.. إنها تزكية شاملة للفرد والجماعة ولحياة السريرة وحياة الواقع. تزكية ترتفع بالإنسان وتصوراته عن الحياة كلها وعن نفسه ونشأته إلى آفاق النور التي يتصل فيها بربه، ويتعامل مع الملأ الأعلى، ويحسب في شعوره وعمله حساب ذلك الملأ العلوي الكريم"[1].

ويشير العلامة محمد المكي الناصري –رحمه الله– إلى الهدف من القصص القرآني الذي هو مورد مهم من موارد السنن الإلهية ومصادرها بقوله: "ومن خلال الحوار الذي دار في هذه القصص بين الرسل وأقوامهم يتضح لكل ذي عينين أن الرسالات الإلهية منذ فجرها الأول لم تكن توجه الناس نحو السماء إلا لتلهمهم طريق الصلاح في الأرض، وإن هدفها الأول والمباشر كان هو العمل على إصلاح المجتمع البشري أدبيًا وماديًا، والسعي لتطهيره من كل الشوائب، حتى لا يبقى فيه أثر للمساوئ والمعايب، وبذلك يتفادى الوقوع في الكوارث والنوائب، ويصبح مجتمعًا مثاليًا، جديرًا بأن يوصف بكونه إنسانيًا؛ لأنه ينهج نهجًا أخلاقيًا ربانيًا"[2].

والحق في هذا المقام أن صلاح المجتمعات والأمم والحضارات متوقف على صلاح الأفراد، ولن يتحقق هذا الصلاح إلا بالسير على نور السنن الإلهية، كما جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية.

---

[1] في ظلال القرآن، ٦/ ٣٥٦٥.

[2] التيسير في أحاديث التفسير، ٤/ ٣٩٢.

٥- تحقيق الخلافة وبناء العمران البشري.

إن القرآن الكريم يقرر أن هنالك سننًا ثابتة لهذا الكون يملك الإنسان أن يعرف منها القدر اللازم له، حسب طاقته وحسب حاجته للقيام بالخلافة في هذه الأرض، وقد أودعه الله القدرة على معرفة هذا القدر من السنن الكونية، وعلى تسخير قوى الكون وفق هذه السنن للنهوض بالخلافة، وتعمير الأرض، وترقية الحياة، والانتفاع بأقواتها وأرزاقها وطاقاتها..[١]، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

إن الخلافة في الأرض هي عمل هذا الكائن الإنساني، وهي تقتضي ألوانًا من النشاط الحيوي في عمارة الأرض، وتعرف قواها وطاقاتها، وذخائرها ومكنوناتها، وتحقق إرادة الله في استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها، كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلهي الذي يتناسق مع الناموس الكوني العام، ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني أو التي هي وظيفة الإنسان الأولى، أوسع وأشمل من مجرد الشعائر، وأن وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعًا.

إن تحقيق الخلافة وعمارة الأرض تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها، وكلها خضوع للناموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله دون سواه.

فمن مقتضيات استقرار معنى العبادة أن يقوم بالخلافة في الأرض، وينهض بتكاليفها، ويحقق أقصى ثمراتها... لتحقيق معنى العبادة فيها[٢]، قال الله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود: الآية ٦١].

أي: أنشأكم من الأرض، وجعل لكم فيها مُقوّمات حياتكم. والاستعمار: الإعمار؛

---

[١] في ظلال القرآن، ٢/ ١١١٩.

[٢] في ظلال القرآن، ٦/ ٣٣٨٧-٣٣٨٨.

أي جعلكم عامرينها، والسين والتاء في كلمة (اسْتَعْمَرَكُمْ) للمبالغة ومعناهما التكليف لعباده أن يعمروها فهو سبحانه مظهرهم على ما جعلهم يسخرون السماوات والأرض بما قدره تعالى لهم..[١].

أضف إليه أن خلافة الإنسان في الأرض تقتضي أن يتحرك ويعمر الأرض، وحين يريد الله منا أن نتحرك ونعمر الأرض فلابدَّ من أعمال تنظم هذه الحركة، ولابدَّ من فنون متعددة تقوم على العمارة، ويوزع الله الطاقات الفاعلة لهذه الفنون المتعددة ويجعلها مواهب مفكرة ومخططة في البشر. إن الحق سبحانه لم يجعل من إنسان واحد مجمع مواهب، بل نثر الله المواهب على الخلق، وكل واحد أخذ موهبة ما، لماذا؟ لأن الله قد أراد أن يتكامل العالم ولا يتكرر؛ فالتكامل يوحي بالاندماج؛ فإذا كنت أنت تعرف شيئًا خاضعًا لموهبتك وأنا لا أعرفه فأنا مضطر أن ألتحم بك، وأنا أيضًا قد أعرف شيئًا وأنت لا تعرفه؛ لذلك تضطر أنت أن تلتحم بي، وهذا اللون من الالتحام ليس التحام تفضل، إنما هو التحام تعايش ضروري[٢].

والحاصل أن الله عز وجل جعل تحقيق الخلافة البشرية في الأرض وبناء العمران مقصدًا كليًّا للحياة الدنيوية، وأناط بهما تحقيق الغاية العظمى من وجود الإنسان: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور: ٥٥). قال العلامة محمد المكي الناصري –رحمه الله– في تفسير لهذه الآية الكريمة: "لكن هذا الوعد الإلهي –بالخلافة– الذي هو حق وصدق وعد مقيد لا مطلق، فهو مرتبط بأمرين اثنين: الأمر الأول الإيمان، والأمر الثاني العمل الصالح. والإيمان يستلزم الإيمان بالله وبوحدانيته، وهي تتضمن وحدة الكون عموما، ووحدة النوع الإنساني خصوصًا، ووحدة الرسالة الإلهية بالأخص، والإيمان بالله

[١] التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٢/ ١٠٨؛ زهرة التفاسير، ٧/ ٣٧٢٣.
[٢] تفسير الشعراوي، ٢/ ١١٤٣.

يستلزم الإيمان بدينه وشريعته، والإيمان بعدله وحكمته، والإيمان برقابته والخضوع لمراقبته، والإيمان ببعث ممارسة كل ما فيه خير وبر وصلاح، للفرد والجماعة ومقاومة كل ما فيه شر وأذى وفساد بالنسبة لهما جميعًا"[١].

وقال الشيخ رضا –رحمه الله-: "وقد علل هذا الاستخلاف عند الإخبار الأول به هنا بقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]؛ أي لنرى ونشاهد أي عمل تعملون في خلافتكم، فنجازيكم به بمقتضى سنتنا فيمن قبلكم، فإن هذه الخلافة إنما جعلها لكم لإقامة الحق والعدل في الأرض وتطهيرها من رجس الشرك والفسق، لا لمجرد التمتع بلذة الملك، كما قال في أول آيات الإذن لهم بالقتال: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]. فأعلمهم سبحانه بأن أمر بقاء خلافتهم منوط بأعمالهم، وأنه تعالى يكون ناظرًا إلى هذه الأعمال لا يغفل عنهم فيها، حتى لا يغتروا بما سينالونه"[٢].

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح، لا على الهدم والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة، لا على الظلم والقهر، وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان![٣].

٦- الاستعداد للآخرة.

إن المقصد الأساس من ذكر السنن الإلهية في القرآن الكريم هو ألاّ يمر الإنسان على آيات الله في الآفاق والأنفس، وهو مُعرِض عنها؛ بل عليه أن يُقبِل عليها إقبال الدارس، إما

---

[١] التيسير في أحاديث التفسير، ٤/ ٢٨٨-٢٨٩.

[٢] تفسير المنار، ١١/ ٢٥٩.

[٣] في ظلال القرآن، ٤/ ٢٥٢٨.

لتنتهي إلى قضية إيمانية تُثرِي حياته؛ وتعطيه حياة لا نهايةَ لها، وهي حياة الآخرة، أو تُسعِده وتسعد غيره، بأن يكتشف منها ما يفيد به البشرية في مسيرتها في الحياة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

وفي هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهي القويم. المنهج الذي يعلق قلب واجد المال بالآخرة، ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع في هذه الحياة، بل يحضه على هذا ويكلفه إياه تكليفًا، كي لا يتزهد الزهد الذي يهمل الحياة ويضعفها.

لقد خلق الله طيبات الحياة ليستمتع بها الناس وليعملوا في الأرض لتوفيرها وتحصيلها، فتنمو الحياة وتتجدد، وتتحقق خلافة الإنسان في هذه الأرض، ذلك على أن تكون وجهتهم في هذا المتاع هي الآخرة، فلا ينحرفون عن طريقها، ولا يشغلون بالمتاع عن تكاليفها. والمتاع في هذه الحالة لون من ألوان الشكر للمنعم، وتقبل لعطاياه، وانتفاع بها. فهو طاعة من الطاعات يجزي عليها الله بالحسنى.

وهكذا يحقق هذا المنهج التعادل والتناسق في حياة الإنسان، ويمكنه من الارتقاء الروحي الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة التي لا حرمان فيها، ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة[١]، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»[٢].

إن الإيمان باليوم الآخر هو الميزان العقدي؛ فإن استقر في القلب فالإنسان بكل جوارحه يتجه إلى الأفعال التي تسير على ضوء منهاج الله لينال الإنسان الجزاء الأوفى، والنعيم المقيم.

---

[١] في ظلال القرآن، ٥/ ٢٧١١.

[٢] سنن الترمذي، ح٢٤٦٥، ٤/ ٦٤٢. قال الألباني: صحيح.

إن الإنسان الذي يغتر بما آتاه الله نقول له: لا، إنك لن تفلت من يد الله، بل لك عودة بالموت وعودة بالبعث، وإذا ما استقرت في أذهان المسلمين تلك العودة؛ فكل إنسان يقيم حسابه على هذه العودة(١)، ويجعل مصيره الأخروي نصب عينيه، ويجعل كل أعماله في تحقيق الخلافة وبناء العمران في سبيل هذه الغاية.

٧- القدرة على تفسير الأحداث وفهم التاريخ.

إن السنن الإلهية تقدم قراءة شاملة متكاملة للتاريخ؛ حيث تتناول الحدث التاريخي تناولاً تحليليًّا، وتتناول الحضارة تناولاً تركيبيًّا، وتقدم من خلال منهجي التحليل والتركيب تفسيرًا شاملاً متكاملاً للعملية الحضارية في نشأتها واندثارها، ونهوضها وسقوطها، وموتها وبقائها.. > وعليه؛ فإننا من خلال السنن الإلهية نفهم التاريخ على حقيقته، ونعرف عوامل البناء والأمن والاستقرار والتقدم، وعوامل الهدم والخوف والانحطاط والتخلف، على أن هذه السنن مرتبطة بالأمر والنهي، والطاعة والمعصية، والإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، فالإنسان إذًا أتى بالأمر واجتنب النهي، ووقف عند حدود الله، أصاب خير السنة الربانية، إذا أهمل الأمر وخالفه، وارتكب النهي عنه، ووقع في حدود الله، أصاب شر السنة الربانية(٢) >هذا فضلاً عن معرفة حركة التاريخ ورصد صفحات النصر والهزيمة والنجاح والفضل فيه، والبحث في الوسائل التي أوصلت المسلمين -على مدار التاريخ- إلى تلك المواطن والنتائج الشامخة، والتمعن في أسباب الانكسارات والهزائم والمصائب التي حلت بأمة المسلمين -من لدن آدم إلى يومنا هذا-، وتكالب الأعداء واتفاقهم على الكيد والنيل من المسلمين في كل أصقاعهم، ولاسيما في هذا العصر، وأسباب انتصار الآخرين وازدهارهم، وأسباب تقدم المسلمين وتخلفهم(٣).

---

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ٢/ ١١٤٢.

(٢) كيف تفسر التاريخ، السلمي محمد بن صامل، مجلة البيان، العدد ٥٠، سنة ١٩٩٢، ٩٨.

(٣) الموقف من التاريخ الإسلامي وتأصيل الهوية، حامد محمد الخليفة، ٢٨-٢٩.

بالإضافة إلى أن سنن الله تعالى مرتبطة بالإنسان فبصلاحه يكون أهلاً للاستخلاف، وبفساده وخروجه عن سنن التقدم والتحضر يطرد ويؤول بناؤه إلى الدمار والبوار، كل يجري على نسق واحد وعلى سنن إلهية حكيمة لا تحيد ولا تميل؛ ولهذا تكررت الدعوة في القرآن الكريم للسير في مناكب الأرض لمعرفة السنن والقوانين التي تحكم المجتمعات، وقد ذكر الله تعالى وتقدس السير في القرآن الكريم بصيغة الأمر سبع مرات؛ وذلك للوقوف على مصارع الأمم الخالية الذاهبة التي استكبرت في الأرض وطغت، حتى تتجنب الأمة المسلمة الوقوع فيما وقعت فيه تلك الأمم، أما إذا جهلت الأمة هذه القوانين والنواميس فإنما تجهل على نفسها ولا تنقص من قيمتها –السنن– شيئا، ولا يوقف مفعولها في حياتها، وذلك الجهل هو الذي أقعد أممًا كثيرة عن التقدم والازدهار.

ثانيا: أثر الكشف عن السنن الإلهية وتسخيرها في حياة الأمة.

إن الحديث عن السنن الإلهية يعد منارة للمسلم اليوم في ظلمات هذا العصر بما فيه من تعقيدات ومعضلات، يكون فيها المسلم حيرانًا، غير أن المسلم الواعي الذي يتعهد كتاب ربه بالقراءة والعناية والتدبر والفهم هو وحده الوحيد القادر على أن يكون واعيًا ومستوعبًا لكل ما يجري في هذا الكون من أحداث[1].

وتتجلى أهمية معرفة السنن الإلهية في أنها تبعث الطمأنينة والوضوح في نفوس أتباع هذا الدين الإلهي، فضلاً عن تقديم رؤية شمولية لتاريخ البشرية من خلال تقديم تفسير صحيح له، وبيان أسباب الرقي والاندثار فيه، حتى يكون الإنسان قادرًا على الاعتبار من التاريخ، والاستفادة من التجارب الناجحة فيه، سعيًا للوقاية الحضارية وتحقيق الشهود الحضاري.

وعليه، فإن المستقبل العمراني البشري الذي ترنو إليه الأمة المسلمة وتشرئب له الأعناق لن تصل إليه الأمة إلا بتسخير هذه السنن الإلهية التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية

[1] "السنن الإلهية في القرآن الكريم ودورها في استشراف المستقبل"، عماد عبد الكريم خصاونة وخضر إبراهيم قزق، مجلة المنارة للبحوث والدراسات، المجلد ١٥، العدد ٢، ٢٠٠٩م، ٢١٥ .

والعمل بمقتضاها.. وإن أول طريق يمر عبره هذا التسخير هو الكشف عن السنن الإلهية التي نبه عليها القرآن، وحث على إدراكها والإحاطة بها والتوسع في معرفتها بتفاصيلها وجزئياتها، والأخذ بها، والسير على سكتها..

ومن هذا المنطلق فإن تَعَرُّف السنن الإلهية هو السبيل الأمثل لفهم الظواهر الاجتماعية وحركية التاريخ وفاعلية الإنسان فيه، وبقاء الأمم واندثارها، وهو المهيع الصحيح لفهم الحياة المعاصرة، ووضع الخطط الناجحة للخروج من الركود والعجز الحضاري وتصحيح المسار، والرقي إلى مكان الصدارة والريادة، وتحقيق الدورة الإنجازية الكبرى والشهود الحضاري.

إن فقه السنن الإلهية والتعامل معها بوعي وعلى بصيرة من شأنه أن يخلص الأمة من أغلال الذرائعية، وقيود الاتكال، وآصار الفكر الإرجائي، وأن يسددها على سكة الصواب ويبعث فيها روح الحيوية والانبعاث من جديد.

يقول الأستاذ إبراهيم بن علي الوزير: "إن في تاريخ كل أمة منعطفا يتاح فيه للأمة تغيير مجرى حياتها بتأمل السنن وفهمها ودراستها والاستفادة منها للخروج من وهنها وضعفها وضياعها بين الأمم.. إلى مكان عزيز منيع .. فإن لم تستفد من هذا المنعطف التاريخي فإن قوارع الآيات وعجائب النكالات تنزل بها متدفقة عليها من كل جانب، آخذة عليها كل سبيل حتى تنقرض وتزول أو يستقيم ما بنفسها فيصلح أمرها"[1].

فلا ريب إذن أن يؤدي عدم التعامل مع سنن الله بشكل صحيح، وإغفالها وعدم إدراك كنهها، والتقصير المعرفي بها إلى استنزاف الكثير من طاقات المسلمين ومساعيهم، وتعثر خطواتهم في طريق البناء والرقي والصيرورة الاستخلافية والشهود الحضاري.

---

[1] دراسة في السنن الإلهية والمسلم المعاصر، ١١.

ولذلك يعد الزيغان عن سكة السنن الإلهية، والعدول عن كشف ما تتضمنه من عبر وعظات ونواميس مطردة تأخذ بيد الأمم إلى بر الأمان وشاطئ النجاة وتنأى عن السقوط في المهاوي والزلات، وتوجيه البحوث لدراستها واستنباطها والاستفادة من الوقوف على معطياتها مما أورثنا التأخر عن الركب الذي نعيشه ونعاني منه.

فالسنن الإلهية هي التي تسير حركة التاريخ وتفسر أحداثه، وفق مسالك مقننة لا سبيل للخروج عنها. والمتدبر لآيات القرآن الكريم يجده حافلاً بالحديث عن هذه السنن، وقد بينتها السنة المطهرة الصحيحة في مواطن كثيرة.

فواجب على الإنسان المسلم أن يفقه سنن الله فقها شاملاً واعيًا يهدي إلى سبيل الرشاد، ينفع الأمة ويكشف الغمة، وعلى ضوئها وفي نوره يبني مجتمعه العمراني الإسلامي ويستنبط منهاجه[١].

يقول سيد قطب –رحمه الله– داعيا إلى مراعاة السنن الإلهية وإعمالها: "فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف والأمور لا تمضي جزافًا، إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغازيها تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام، واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين لينالوا النصر والتمكين، بدون الأخذ بأسباب النصر، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول"[٢]، يقول الإمام محمد عبده–رحمه الله–: "إن نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله، ويبني عليها سيرته، وما يأخذ به نفسه، فإن

---

[١] سنة الله في جهاد سيدنا رسول الله ﷺ، رشيد كهوس، ٨.

[٢] في ظلال القرآن، ١/ ٤٥٠.

غفل عن ذلك غافل فلا ينتظرن إلا الشقاء، وإن ارتفع إلى الصالحين نسبه، أو اتصل بالمقربين سببه، فمهما بحث الناظر وفكّر، وكشف وقرَّر، وأتى لنا بأحكام تلك السنن، فهو يجري مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه، ولا تنفر منه، فَلِمَ لا يعظم تسامحها معه"[١].

إذن، فالكون تحكمه سنن الله تعالى التي ارتبط رقي الإنسان بمعرفتها وتسخيرها، فهو لا يستطيع أن يمارس حريته إلا في نطاق نظام الكون المحيط به، كما أنه لا يستطيع أن يغير سننه وقوانينه، وإنما يستطيع أن يستثمرها ويسخرها ويستفيد منها وحسب، والسير في الكون على نظام وفقاً لسنن معينة في تقديراتها الكمية والكيفية، هو القدر أو هو من القدر.

فالله تعالى هو واضع النظام والسنن ومسخر الأسباب، والوصول إلى هذه الأشياء بسعي الإنسان، وكل شيء حسن بهذا الاعتبار؛ لأنه مظهر الإبداع والنظام، ولا يقع الإنسان في شيء يسوءه إلا بتقصير منه في استبانة الأسباب وتعرف السنن، وقد أوتي قدرة على العمل اختيارا في تقدير الباعث الفطري وما يترتب عليه من درء المضار وجلب المنافع.

فينبغي لمن أصابه سوء أن يبحث عن سببه من نفسه، وألا يكتفي بإسناده إلى غيره؛ لأن السيئة تصيب الإنسان بتقصيره وخروجه عن سنة الله في التماس المنفعة من أبوابها، واتقاء المضار باتقاء أسبابها؛ لأن الأصل في نظام الفطرة البشرية هو ما يجد الإنسان في نفسه من ترجيح الخير لها على الشر، والنافع على الضار[٢]، ولذلك، فإن معرفة السنن الإلهية جزء من معرفة الدين نفسه؛ لهذا صار من اللازم تتبعُ آيات القرآن الكريم واستنطاقها، وتقصي مفرداتها، وتثوير معانيها للوقوف على هذه السنن، تمهيدًا للخروج بتصور شامل عن المعرفة القرآنية في مجال علم السنن الإلهية.

---

[١] الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، مجلة المنار، ١٦ جمادى الآخرة - ١٣٢٠هـ، المجلد الخامس، ٤٤٣؛ أحلام في السياسة وكيف يتحقق السلام، جوهري طنطاوي، طبع مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م، ١٨.

[٢] انظر: مبدأ السببية في الفكر الإسلامي في العصر الحديث، محمود نفيسة، ٥١٧؛ وتفسير المنار، رشيد رضا، ٥/ ٢١٨. ونظام الإسلام العقيدة والعبادة، محمد مبارك، ٨٣.

والقـرآن الكـريم معجـزة خالـدة في بيانهـا وتشريعها وأحكامهـا ومبادئهـا وتعاليمهـا وحقائقها العلمية، وحقائقها التاريخية الخبرية، وتنبؤاتها المستقبلية. وتـتجلى أهميـة السـنن الإلهيـة في القرآن الكريم في إرشاده العباد إلى سنن الله في تهذيب النفس وبناء الإنسـان والمجتمـع والأمـة والعمران، وسنن النجاة والفلاح، كما يبين لهم سنن الشقاوة والعـذاب والضـلال وهـلاك الأمـم واندثار المجتمعات ليتجنبوهـا.. >ولعـل تـدبر آيـات القـرآن الكـريم وفـق هـذه الرؤيـة الشـاملة الكاملة يجعلنا نقف على المنهاج القرآني لكيفيـة التعامـل مـع الحيـاة الإنسـانية مـن جوانبهـا كلهـا، ويقصر الطريق أمامنا عـن طريـق الاسـتفادة ممـا وقـع للأمـم الغـابرة مـن ازدهـار وانهيـار، وقيـام وسقوط، من أجل العمل وفق سنن النهوض، وتجنب سنن السقوط..

وإن الأمة التي لا تعرف هذه السنن، ولا تسعى لفهمها والتفقـه فيهـا وأخـذ الـدروس والعبر منها، أمة غير مأمونة العثار، ولن تنجح في خطواتها، ولا في بناء مستقبلها.

والجـدير بالـذكر هنـا أننـا مـن خـلال السـنن الإلهيـة يمكـن أن " نفسـر الإصـابات والارتكاسات، وتوالي الهزائم، واستمرار السـقوط، والانحـدار، والانكسـار، والتراجـع، الـذي يمنى به العالم الإسلامي والمسلمون بشكل عام"[1].

ومن شأن هذه السنن أيضًا أن توقفنا على مقومات النهوض، وأن تساعدنا عـلى إدراك المقاصد وإبصار المخارج وتحصيل المؤهلات وامـتلاك الوسـائل في مسـيرتنا العمرانيـة، ومـن شأنها أن تمكننا من تصويب الحاضر وإدراك أسباب تغيير المجتمـع إلى الارتقـاء أو الارتكـاس للاهتداء إليها والاتعاظ بها لبناء المستقبل ولتحقيق الوقاية الحضارية[2].

وملاك الأمر كله إن فقه هذه السنن لا يشكل لنا وقاية من الأزمات والإصـابات التـي يمكن أن تلحق بنـا، بسـبب جهلهـا أو تجاهلهـا ومحاولـة تجاوزهـا وحسـب، وإنـما فقـه السـنن يشكل لنا دليلاً للتعامل مع الأزمات وكيفية إدارتها بعد وقوعها، وتجنبها قبل حدوثها، كما أن

[1] من فقه التغيير، عمر عبيد حسنة، ٩٤.
[2] رؤية في منهجية التغيير، عمر عبيد حسنة، ٣٠.

السير في الأرض واكتشاف السنن لا يدل على أسباب السقوط والنهوض فقط، وإنما يمنح العبرة والدروس والفقه بكيفية التعامل مع الأزمات وكيفية تجاوزها[١].

وتأكيدًا لضرورة الجمع بين إدراك السنن الإلهية وتسخيرها، يقول الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله-: "أصبحنا نسمع بضرورة الإفادة من هذه السنن، بل لعل ذلك أصبح قناعة عند الناس بشكل عام، لكن هذه القناعة لم تجد طريقها إلى الممارسة، ولم تنتقل بمواقعنا إلى مراحل تغييرية (...) ولو أخذت أبعادا حقيقية لكانت الأمة انتقلت من الفكر إلى الفعل، فالتحول وإعمال السنن هو المختبر الحقيقي لإدراكها والقناعة بها. إن هذه القضية لم تشكل مناخًا عامًا يعيشه المجتمع أو لم تحفر بعد في واقع الأمة المجرى المطلوب لسيرورتها"[٢].

ويقول الدكتور محمد أمحزون: "لقد وجّه القرآن الكريم المسلمين نحو الوعي بعالم الشهادة، فحثهم على النظر والتدبُّر والاستقراء للكشف عن قوانين المادة وسنن الاجتماع، كما نبَّه إلى أهمية تعرُّف السُّنَن التاريخية، والإفادة من ذلك في الاعتبار، وبناء الحضارة وكيفية المحافظة عليها من السقوط، وقد أرشد القرآن الكريم إلى هذه السُّنَن فذكرها نصًّا في بعض الأحيان، ولم يذكرها أحيانًا أخرى نصًّا؛ وإنَّما فُهِمت مِن النَّص دلالةً وفحوى، وذكرها تارةً مضافة إلى الله -تباركت وتقدست أسماؤه-، وذكرها تارةً أخرى مضافةً إلى أقوام.

(...) ومن خلال السُّنَن في كتاب الله تعالى، وسنن رسوله ﷺ؛ نفهم التاريخ على حقيقته، ونعرف عوامل البناء، والأمن، والاستقرار، والتقدم، وعوامل الهدم، والخوف، والانحطاط، والتخلُّف... ومن هنا تأتي أهمية ربط عمل الدُّعاة بالجهد والعمل وفق السُّنَن التي لا تحابي فردًا على حساب فردٍ آخر أو مجتمعًا على حساب مجتمع آخر"[٣].

---

[١] المنهج السنني أفق حضاري متجدد، عمر عبيد حسنة، ٣٠.

[٢] كيف نتعامل مع القرآن، ٥٣.

[٣] "العلم بالسنن الربانية"، محمد أمحزون: مجلة البيان، العدد ١١٥، يوليو ١٩٩٧م، ٥٠.

المبحث الخامس

القواعد الكلية للسنن الإلهية

إن القواعد[١] الكلية للسنن الإلهية مستمدة ومستنبطة من نصوص القرآن الكريم والذكر الحكيم، خاصة من الآيات التي جاءت على صيغة: ﴿يريد الله...﴾، ﴿والله يريد...﴾، ﴿يريد..﴾..إنها إرادة الله وحكمته العادلة.

من هذه القواعد ذكر علماء الأصول أربعًا في التشريع الإسلامي، هي:

١ - التخفيف.

٢-اليُسر.

٣-التدرج.

٤- رفع الحرج.

وهذه القواعد الأربع نفسها نستعملها في القواعد الكلية للسنن الإلهية؛ ذلك أن شريعة الإسلام لا تتنافى ولا تتعارض أبدًا مع السنن الإلهية؛ لأن مصدرهما واحد، وهو مشيئة الله وحكمه الذي لا معقب له، ويخرجان من مشكاة واحدة هو كتاب الله تعالى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(سورة فصلت: ٤٢)، ثم إن السنن الإلهية هي أصول الحكمة والحقائق التي تنتهي إليها علل الشريعة الإسلامية الغراء.

ونضيف إلى قواعد التشريع السابقة خمس قواعد وهي:

١ -التوبة والتطهير وتمام النعمة.

---

[١] القاعدة في الاصطلاح: "هي حكم أغلبي أو قضية كلية منطبقة على جميع جزئياتها"، انظر التعريفات، ١٧٢؛ وشرح القواعد الفقهية، أحمد الزرقا، ٣٣.

٢- إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

٣- إقامة الحجة على الناس بالبيان الواضح.

٤- الهداية لسنن السابقين.

٥- نصرة المستضعفين.

فيكون المجموع تسع قواعد؛ وكلها لها أصل في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

لنقف مليًّا هنا مع تلك للتفصيل فيها وإيراد دليل كل واحدة منها:

١ -التخفيف.

إن الحنفية السمحة التي جاء بها سيدنا رسول الله ﷺ مبنية على التخفيف والتيسير لا على التشدد والغلو، إذن، فالتخفيف قاعدة من قواعد سنة الله؛ فالله جل وعلا رحيم بعباده لا يلزمهم فوق طاقتهم، بل يراعي قدراتهم وتفاوتهم، ومفاهيمهم واختلافها، ورفع عن هذه الأمة الآصار والأغلال التي كانت على من قبلها، وقد دل على هذه القاعدة قوله جل وعلا الذي علل فيه بأن أحكامه جاءت للتخفيف على العباد والرحمة بهم :﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾(النساء: ٢٨)، ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾(البقرة: من الآية ١٧٨).

فمثلاً إذا أصبح الفرد في حالة ضعف تمنعه من القيام بالأعمال التي كلف بها الأقوياء فإن الله جل وعلا يخفف عنه، ولا يكلفه بغير ما يسهل عليه وفق سنته في عباده؛ حيث لا يكلفهم بما لا يطيقون.

وتجلى التخفيف في كونه سبحانه وتعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها، بمعنى أنه سبحانه وتعالى لا يحاسبا امرئً إلا على ما كان في طاقته وإمكاناته، ووفق ما عمدت نيته وقصد هدفه، فهو يعفو عن القتل الخطأ، ولا يؤاخذ الجيوش بالنكوص إن كان العدد فوق الضعف.وهذه الجرائم كبائر يتجاوزها الشرع إلى ما هو أرحم تخفيفًا عن الأمة.

هذا، علاوة على أن النبي ﷺ كان يحب التخفيف على أمته؛ وقد رأينا كيف سأل النبي ﷺ لما عرج به إلى السماء وفرضت عليه خمسون صلاة، سأل التخفيف لأمته؛ لأنها لا تستطيع القيام بخمسين صلاة ، فخففت من خمسين إلى خمس صلوات[١]، ولكنها في الأجر خمسون صلاة؛ لكون الحسنة بعشر أمثالها.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: « لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾(الأنفال: ٦٥) شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حِينَ فُرِضَ عَلَيْهِمْ أَنْ لاَ يَفِرَّ وَاحِدٌ مِنْ عَشَرَةٍ، فَجَاءَ التَّخْفِيفُ فَقَالَ: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضُعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾(الأنفال: ٦٦) . قَالَ: فَلَمَّا خَفَّفَ اللهُ عَنْهُمْ مِنَ الْعِدَّةِ نَقَصَ مِنَ الصَّبْرِ بِقَدْرِ مَا خُفِّفَ عَنْهُمْ»[٢].

هذا؛ وعين التخفيف والتيسير يتجلى في كل شيء سلك بالعبد مسالك النجاة، وأدى إلى جنات النعيم ورضوان الله تعالى، ونجا من سخط الله وعذاب السعير، سواء أكان حظرا أم إباحة.

٢- اليُسر.

اليسر ضد العسر؛ وهو قاعدة كلية في الشريعة الإسلامية الغراء، "وهذه هي القاعدة الكبرى في تكاليف هذه العقيدة كلها، فهي ميسرة ولا عسر فيها، وهي توحي للقلب الذي يتذوقها بالسهولة واليسر في أخذ الحياة كلها، وتطبَعُ المسلم بطابعٍ خاصٍّ من السَّماحة التي لا تَكلُّفَ فيها ولا تعقيد مما كان على من قبلهم من الأمم"[٣].

وقد اصطبغت سنة الله في خلقه بذلك اليُسر لقوله جل وعلا:﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ

---

[١] انظر الحديث على طوله في: صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، ح٣٨٨٧.

[٢] صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿الآن خفف الله عنكم﴾، ح٤٣٧٦.

[٣] خصائص الأمة المحمدية، محمد بن علوي المالكي الحسني، ٢٤.

وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (سورة البقرة: ١٨٥)، فالله جل وعلا جعل هذه الشريعة الغراء في غاية التيسير، وجعل لتطبيقها أسبابًا وطرقًا يسرها لعباده، وفق حكمته وسنته الكونية، فمن سلكها نجا وارتقى وبلغ المقصود، ومن تنكبها فلا يلومن إلا نفسه؛ إذ يرى نتيجة تقصيره في اليوم الموعود.

إذًن، فالتيسير هو العمود الفقري في جسم الشريعة الإسلامية الغراء، وهو بمثابة الرأس من الجسد، وهو "روح يسري في جسم الشريعة كلها، كما تسري العصارة في أغصان الشجرة الحية. وهذا التيسير مبني على رعاية ضعف الإنسان، وكثرة أعبائه، وتعدد مشاغله، وضغط الحياة ومتطلباتها عليه، وشارع هذا الدين رؤوف رحيم، لا يريد بعباده عنتًا ولا رهقًا، إنما يريد لهم الخير والسعادة وصلاح الحال والمآل في المعاش والمعاد"[١].

ولهذا فإن التشدد والغلو والتعسير في الدين ناتج عن الجهل بالفقه في الدين وقلة الفهم بقواعد الشريعة الغراء، فأصحاب التعسير يطالبون الناس بما لا طاقة لهم به، ويلزمونهم بما لم يلزمهم به خالقهم الذي يعلم سرهم ونجواهم، ولا شك أن ما صادم سنة الله صدمته وطحنته عجلتها. فعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النبي ﷺ قَالَ: "«إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا...»[٢].وعَنْ عَبْدِ اللهَّ ﷺ قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»[٣]. قَالَهَا ثَلاَثًا" [٤].

فلم يكن هذا الدين الحنيف دين الشقاء والعذاب والآلام "إنه رحمة، ورسوله رسول الرحمة، وهو نعمة، ونعمة كبرى؛ ولذلك كان يسرًا، وينبغي للعاملين بالإسلام أن يفقهوا

---

[١] الخصائص العامة للإسلام، يوسف القرضاوي، ١٧٧.

[٢] صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ح٣٩.

[٣] المتنطعون: أي المتعمقون المغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم. شرح النووي على صحيح مسلم، ٨/ ٤٣٨.

[٤] صحيح مسلم، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، ح٦٧٨٤.

هذا اليسر، ويتعاملوا معه[١].

وما بثه الله سبحانه وتعالى من سنن في كتابه المنظور وكتابه المسطور إلا للتيسير على الناس؛ ليقوموا باكتشافها ثم تسخيرها والعمل في ضوئها، سعيًا لتحقيق مهمتهم العظمى في هذه الحياة.

٣- التدرج.

إن التدرج هو الميزة البارزة في مسار الرسالة القرآنية الخالدة، فالقرآن الكريم المنزل من عند الله رب العالمين نزل منجما. قال الحق جل ثناؤه: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾(الإسراء: ١٠٦)، ثم إن التربية القرآنية للصحابة ﷺ وتغيير نفوسهم كانت متدرجة؛ فبدأت بتصحيح العقيدة ونبذ الشرك والأوثان وإفراد الله تعالى بالعبودية، ثم بعد بضع سنين من تصحيح العقيدة وتثبيتها في قلوب المؤمنين فرضت الصلاة ثم الصوم وباقي الأركان...قس على هذا التدرج في باقي الأمور؛ كتحريم المنكرات مثل الخمر كان على مراحل. بدأ بتذكير المؤمنين بما له من مضار ومفاسد ثم بعد ذلك كان التحريم النهائي على وجه القطع. والتدرج في القتال؛ من الكف عن القتال، إلى الإذن في القتال بدون فرض، إلى وجوب القتال لمن قاتل المسلمين من الكفار دون من لم يقاتلهم. والتدرج في تأديب المرأة الناشز يكون من الموعظة إلى الهجر في المضجع إلى الضرب غير المبرح، إلى تدخل الحكمين إلى إصلاح أو إلى طلاق بمعروف، ثم التدرج في طلب العلم وتزكية النفس...

فكما تدرج تنزيل أحكام الشريعة تدرج تغيير المجتمع -وفق سنة الله في التغيير- وتدرجت الدعوة المحمدية؛ فمن دعوة سرية إلى دعوة جهرية إلى هجرة إلى الحبشة إلى بحث عن سند اجتماعي وطلب نصرة من القبائل، إلى هجرة وبناء دولة إسلامية بالمدينة إلى سرايا وبعوث وغزوات لحماية دولة الإسلام ومجتمعه من كيد الكائدين ودسائس الماكرين.

---

[١] المدخل إلى الشريعة والفقه الإسلامي، عمر سليمان الأشقر، ٨٣.

وكما رأينا التدرج في الأمور الشرعية السابقة هناك تدرج كذلك في قطع دابر الكافرين المستكبرين الجاحدين بآيات الله تعالى من إمهال إلى استدراج إلى تدمير وهلاك واستئصال؛ قال الحق جل وعلا:﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾(الأعراف: ١٨٢)، وقال عز من قائل: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾(القلم: ٤٤).

هذا، ومما لا ريب فيه أن سنن الله لا تخرج من سياق التدرج، "قد تتراءى لنا معجزات وعجائب، لكنها في جوهرها لا تنفلت ولا تخرج عما سنه الله من سنن، وما بث في كونه من قوانين، لكنه جل وعلا يتدرج بالعقول حسب ما تقتضيه كل آونة وكل مصر.

قد ننظر إلى انقلاب عصا موسى عليه السلام حية تسعى بأنه معجزة، لكن الكل سار بإذن الله، فلا شيء يخرج عن التعاليم الربانية، ومن هنا ندرك أن الله يتدرج في تعاليمه للبشرية، فلما اكتملت البشرية نضجها بعث إليهم خاتم النبيين، وبرسالة تعيها العقول، وتتدبرها القلوب(...).

إذن، فالتدرج سنة تسلك السبيل القويم لكل شيء"[1].

٤- رفع الحرج.

وردت هذه القاعدة الكلية في قوله جل ذكره: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(الحج: ٧٨)، وقوله جل ثناؤه: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾(المائدة: ٦).

والحرج حال تعتري المرء فيضيق صدره وتشتد أنفاسه ويبقي المرء في غليان قد يفقد معه صوابه واتزانه ووسطيته، وبخاصة حين يفقد المرء تعلقه بربه وتمسكه به وتفويض أمره إليه جل وعلا.

[1] التجديد في دراسة الحديث على نور السنن الإلهية، ١٠١.

ورفع الحرج تجلى أساسًا في العلاج الذي جاء به الشرع لهذه الحالة؛ حيث أمدنا بالشفاء لحرج الصدور: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر: ٩٧-٩٩).

تسبيح يخرج المرء من ضيق أزمة الدنيا إلى سعة رحمة الله، ونوافل الصلاة تشد المرء إلى باب ربه ليجدد الرباط القلبي بين عبد ورب فيستمد من باب خزائنه ويمد.

وفي هذا الإرشاد تثبيت من الله للعبد ليستقيم توازنه الفكري والجسدي والروحي ويرفع عنه الحرج الذي يفقد الصواب، مصداقًا لقوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨)، ووعده سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦-١٥٧).

فالله تبارك وتعالى لا يطلب من الإنسان المستحيل وما لا طاقة له به، بل جاء تشريعه بما يناسب جهده وطاقته؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً﴾ (النساء: ١٤٧) شكر وإيمان واستغفار: خصال تنفي عذاب الله وترده؛ بل وما كان عذاب الله عقابًا محضًا، بل استدعاء لباب التوبة والرجعة الصادقة، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١)، فلعل عقابًا يسيرًا في الدنيا يكون سبب الفوز العظيم في الآخرة، فينقلب العقاب رحمة من ربك: إنه فعل من تعددت أوصافه وسبقت رحمته غضبه.

وتجلى رفع الحرج في التشريع عامة بهدي الناس إلى سواء السبيل، تلك الوسطية التي يميز بها المرء كل تطرف إلى جهة من الجهات؛ إذ الأخلاق العالية لا تكمن إلا وسط رذيلتين: فالبخل رذيلة، وبسط اليد بالعطاء حتى يبقى المرء ملومًا محسورًا رذيلة أيضًا وبين هذا وذاك تجلت الفضيلة.

ففي الحديث الصحيح عَنْ أَنَسٍ ﷺ: "«أَنَّ النبي ﷺ رَأَى شَيْخًا يُهَادَى بَيْنَ ابْنَيْهِ قَالَ: «مَا بَالُ هَذَا ». قَالُوا: نَذَرَ أَنْ يَمْشِيَ. قَالَ : «إِنَّ اللهَ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ ». وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْكَبَ"[(١)].

٥- التوبة والتطهير وتمام النعمة.

والقاعدة واردة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(المائدة: من الآية ٦)، وقوله جل وعلا: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾(النساء: ٢٧)؛ الآية الأولى جاءت في سياق التطهير الظاهر، ثم ختمت بالتطهير الباطني؛ فطهارة الظاهر "بالماء والتراب، تكميل لطهارة الباطن بالتوحيد، والتوبة النصوح"[(٢)].

قال الشيخ القشيري –رحمه الله– في إشارته إلى معنى الآية: "أي يطهر ظواهركم عن الزلة بعصمته، ويطهر قلوبكم عن الغفلة برحمته.

ويقال يطهر سرائركم عن ملاحظة الأشكال، ويطهر ظواهركم عن الوقوع في شِباك الأشغال"[(٣)].

ومجمل القول؛ "تجتمع طهارة القلب بالتوبة مع طهارة البدن بالغسل والوضوء فتتم نعمة الله على العبد: إنها رحمة الله فضلاً منه ورضوانا.

إن الطهارة التي ارتضاها الله لعباده هي طهارة جامعة مانعة شاملة؛ هي طهارة حسية كما هي طهارة معنوية"[(٤)].

وسنة الله تعالى ببيانها لما حل بالأمم البائدة السابقة التي زاغت عن طريق الحق، وبما أعده

---

(١) صحيح البخاري، كتاب جزاء الصيد، باب من نذر المشي إلى الكعبة، ح١٧٦٦.

(٢) تفسير السعدي، ١/ ٢٢٢.

(٣) تفسير القشيري، ٢/ ٩٣.

(٤) التجديد في دراسة الحديث النبوي الشريف على نور السنن الإلهية، ٨٨.

الله لعباده المؤمنين المخلصين الصادقين، تدفع المؤمن الذي يرجو رحمة ربه إلى التوبة النصوح والوقوف بباب الله تعالى مفتقرا ومنكسرا، فتشمله رحمة الله تعالى فيتطهر باطنًا بطهارة قلبه من الآفات، وظاهرًا بالسمت الحسن والهداية للطريق المستقيم، فتتم نعمة الله عليه بطهارة الظاهر والباطن فينضوي في زمرة أصحاب اليمين وعباد الله الصالحين، فيكون من زمرة الذين خاطبهم الله تعالى في قوله:﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(المائدة: من الآية ٦).

أما أهل الباطل فيزيدهم ذلك طغيانا كبيرا فتحصدهم سنة الله تعالى الواردة في قوله جل في علاه عن المنافقين المكذبين واليهود المستكبرين:﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(المائدة: من الآية ٤١).

فتكون إذن، التوبة والتطهير وتمام النعمة قاعدة كلية من قواعد سنة الله تعالى.

٦- إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

قال الحق جل ذكره: ﴿وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ، لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾(الأنفال: ٧-٨)، وقال جل وعلا: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾(الأنبياء: من الآية١٨)؛ الآيات الكريمات تقرر سنة كونية من سنن الله تعالى وقاعدة كلية من قواعد سنة الله في خلقه، وهي إحقاق الحق وإقراره وإعلائه، وإزهاق الباطل وإبطاله وقطع دابر أهله، فيبقى الحق ويظهر ويتمكن، ويفنى الباطل وينـدحر ويعفى أثره، فالدولة للحق وإن كانت للباطل جولة في بعض الأحيان، فبقاء الحق وزوال الباطل سنة إلهية، فالحق قوي وإن اختفى في بعض الفترات، والباطل ضعيف وإن بدا وظهر، فالحق منصور، والباطل مدحور، والدوائر على الباغي تدور، وفي قوله جل وعلا في الآيتين ١٦- و١٧ من سورة الرعد أصدق تمثيل لهذا:﴿ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ﴾.

إذن، فالحق أصل في الكون، وعندما تتدخل أيدي المفسدين، ونيات الجاحدين لتعيث في الكون فسادًا أو خرابًا. هناك يجد الظالم الباغي نقمة تشل قُواه وتوهنها؛ ليرتدع ويتوب ويؤوب قبل أن تستأصل شأفته، وتقطع أواصره، وتأخذه على غير رجعة.

٧- إقامة الحجة بالبيان الواضح.

أ - البيان الشافي: خلق الله سبحانه وتعالى الناس ولم يتركهم سدى، ولم يدعهم هملا، بل شرع لهم شرائع، وسن لهم نواميس، وفصل لهم كل شيء تفصيلاً، وبين لهم ما نزل إليهم، وما جاء به نبيه الكريم ﷺ، وأمرهم بالتزامها وعدم الخروج عنها، ونبههم إلى مغبة الإعراض عن الحق. قال الحق جل ذكره يخاطب نبيه الكريم ﷺ في بيان حقيقة ما أنزل عليه من ربه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾(النحل: من الآية ٨٩)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(النحل: من الآية ٤٤)، وقال عز سلطانه: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(البقرة: ٢٤٢)، وقال عز من قائل يبين لعباده جزاء المعرض عن ذكره: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾(طه: ١٢٣-١٢٥).

هذا، ومن الواضح أن الله تبارك وتعالى أنزل في القرآن الكريم والذكر الحكيم كل علم وبيّن فيه كل شيء، وجمع الله فيه أصول الدين وفروعه، وأصلح به الدنيا والدين. جاء بالبيان الشافي والشامل لكل صغيرة وكبيرة في هذا الكون؛ فليست ثمة ظاهرة غريبة عن الكون لم تحكمها سنن الله المطردة، ولم يشملها بيان القرآن، ولم يبق القرآن مجالاً للتخمينات والأوهام والظنون وسوء المعتقدات، ولم يسلم الناس لفلسفات ضلت بهم عن المهيع الصحيح.

قال سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ: «قد بين لنا في هذا القرآن كل علم، وكل شيء»[١].

---

[١] تفسير ابن كثير، ٢/ ٥٨٣.

وقال الإمام الشافعي ﷺ: "ليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها"[١].

لكن لما ضلت الأمة الطريق، وتناست هذه الحقائق أصابها ما أصابها مِن بلاءٍ وسوءٍ ونكبات وأزمات ومصائب وانحرافات قصمت ظهرها وأدت إلى ضعفها ووهنها، فاخترقها عدوها ومزق صفها، وتصدعت حصونها، وهاهي قدس الأقداس أولى القبلتين مسرى خاتم النبيين، وثالث الحرمين الشريفين لا تزال ترزح تحت براثين العدو الصهيوني الغاشم، وأبناء الأمة المحمدية في كل واد يهيمون بعد أن تمكنت قوى البغي والعدوان من احتلال أراضيهم وعقول حكامهم.

ولا مخرج إلا بالرجوع إلى هدي الكتاب وسمت النبوة؛ ذلك البيان الشافي والتمسك بهديه والسير على نهجه، وتطبيق أحكامه، والاستضاءة بنوره.

هكذا جاءت سنة الله تعالى لتبين للناس -من خلال القرآن والسنة- حقيقة الهدي الرباني المنزل على سيدنا محمد ﷺ؛ ليتبعوه ويلزموا غرزه لتشملهم الرحمة والمغفرة والنجاة من الهلاك والخسران.

ب - **إقامة الحجة على الناس**: إن الغرض من البيان القرآني الشافي -كما سبقت الإشارة إليه-، هو إقامة الحجة على الناس، بينة لاحبة، لا يعتريها غموض ولا لبس؛ حتى لا يكون لهم عذر يحتجون به على ربهم، وذلك بالبيان الكافي لسبيل المؤمنين، والتعرية التامة لسبيل المجرمين، كل هذا وفق سنته الكونية المطردة، فالله تعالى وتقدس لا يظلم أحدًا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(التوبة: ١١٥)، وقال جل شأنه: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا

[١] الرسالة، ٢٠.

كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾(الأنعام: ١٥٧)، وهذا من كمال رحمة الله وعدله ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾(الأنفال: ٤٢).

قال الإمام الشافعي ﷺ: "فكل ما أنزله الله في كتابه -جل ثناؤه- رحمة وحجة، علمه من علمه، وجهله من جهله، لا يعلم من جهِله، ولا يَجْهَلُ مَن علمه"[١].

ت - إخراج الناس من الظلمات إلى النور: فبتلك الآيات الواضحات من سنن الله في خلقه حيث تبين طريق الحق ومآله، وطريق الضلال ومآله، لتخرج الناس من أنواع الظلمات كلها، ومما هم فيه من الضلال والغي الذي يقودهم إلى الشقاوة والخسران وغضب الله تعالى، إلى النور التام والهدى والرشد وطريق الحق الذي يقودهم إلى الفوز بالجنان ومرضاة الحنان المنان؛ فسنن الله القرآنية توقظ الوسنان، وترشد العباد إلى الحق حتى يأخذوا به، وينجو من الهلاك والخسران وعذاب النار وغضب الله تعالى، فيخرجوا من ظلمة الكفر إلى النور والهدى، ومن حُلكة الجهل إلى نور العلم، ومن وحل المعصية إلى نقاء الطاعة، ومن ضيق الكفر والضلال إلى سعة الإسلام والإيمان، قال الله عز اسمه: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَّ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(الحديد: ٩)، وقال عز من قائل:﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهَّ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُّ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(المائدة: ١٥-١٦)، وقال جل في علاه: ﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾(إبراهيم: ١).

٨ - الهداية لسنن السابقين.

يقول الباري جل وعلا: ﴿يُرِيدُ اللهُّ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُّ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(النساء: ٢٦)؛ ولهذا "جاءت كلمات الله التامات لتجمل وتفصل

[١] المرجع نفسه، ١٩.

في القصص القرآني مرشدة الناس إلى أنها أسس الفهم عن الله، وأن السير التاريخي للماضي والحاضر لا يخرج عن نطاق ما جاءت به السنن الإلهية القرآنية، ومعنى هذا أن الحدث المستقبلي لا ينفك أن يكون منضبطًا بضوابط السنن الإلهية.

لا يهتم القرآن بالسرد التاريخي المجرد عن الغاية والهدف، بل يأتي ببعض القصص، ويستخلص العبر، ويستنتج العظات مؤكدًا سنن الله القرآنية، حاثًّا على اتخاذها نبراسًا ومشعلاً، تضيء الجوانب المظلمة والمبهمة في نزوعنا المستقبلي؛ لنمضي على هدي رباني في مأمن من الزيغ والانحراف عن جادة الطريق"[١].

فليس الغرض من القصص القرآني الاطلاع عليها وتعرف جزئياتها فحسب، بل الغرض الأساس هو أن ينتقل ذهن القارئ والسامع إلى شناعة الشرك والمعاصي، ومعاقبة الله تعالى عليها، والإيمان بنصر الله تعالى وتأييده، وظهور ألطافه وأفضاله في حق عباده المخلصين[٢].

هذا، إضافة إلى أنه -القصص- سيق لأغراض شرعية بحتة كما أسلفت؛ وقد تناول - إضافة إلى ما ذكرت- عددًا وفيرًا من الأغراض؛ "فإثبات الوحي والرسالة، وإثبات وحدانية الله، وتوحد الأديان في أساسها، والإنذار والتبشير، ومظاهر القدرة الإلهية، وعاقبة الخير والشر، والعجلة والتريث، والصبر والجزع، والشكر والبطر، وكثير غيرها من الأغراض الدينية، والمرامي الخلقية"[٣] التي تناولها القصص القرآني؛ لتتضح لنا معالم تلك القاعدة الكلية في الهداية لسنن السابقين.

إذن، فأوضح مكان للوقوف على سنن الله في الأمم السابقة هو القرآن الكريم؛ ولهذا عُني القرآن الكريم عناية كبيرة بالقصص ونبه عقول الناس بلفت أنظارهم إلى ما حدث للأمم الغابرة، وأورد الكثير منها على وجه التفصيل، لا لمجرد التسلي والاطلاع على الأخبار، بل تعد

---

[١] التجديد في دراسة الحديث النبوي الشريف على نور السنن الإلهية، ٩٧.

[٢] الفوز الكبير في أصول التفسير، ولي الله الدهلوي، ٤٤.

[٣] التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ١٤٤.

تلك الأحداث التاريخية مرآة تتجلى فيها سنن الله في خلقه، ومن ثم فإذا عرف الناس قصص الأنبياء والرسل مع أقوامهم، واعتبروا بها وأخذوا دروسها نجوا من الهلاك والخسران المبين؛ فمثلا: جاء في القصص القرآني حول قصص الأنبياء أن لكل نبي فريقين؛ فريق قائم لله آمن بهذا النبي واتبع النور الذي جاء به؛ فكانت عاقبة هذا الفريق السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة، والنجاة من عذاب الله وخزيه وغضبه، والنصر المبين على المعتدين. وفريق حصيد كذب، عاند واستكبر وأنكر الحق وجحد النعم، فحصدته سنة الله فكان جزاؤه الهلاك والبوار والخزي والعذاب في الدنيا والآخرة. فيدرك المرء بوقوفه عند سرد تلك الأحداث أن ذلك ناموس الله المطرد في كل زمان ومكان؛ فمن آمن برسالة الله وصدقها كان سعيدًا ومنصورًا ومعززًا ومكرمًا، ومن كذب بها وأنكرها كان شقيًّا وتعسًا ومخذولاً ومذلولاً.

٩- نصرة المستضعفين.

إن نصرة المستضعفين في الأرض -متى توفر فيهم شرط الاستضعاف- وإخراجهم من إذلال الظالمين وبطش المعتدين قاعدة كلية للسنن الإلهية، قال الحق جل وعلا: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾(القصص: ٥)، وقال عز من قائل: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾(الأعراف: من الآية ١٣٧).

ولذلك؛ "فحينما تستقر الحياة في وئام ووفاق بين مختلف عناصرها، بين قويها وضعيفها، بين صغيرها وكبيرها، بين مستكبريها ومستضعفيها، ينعم الكل بالطمأنينة والهدوء، لكن حينما تعصف العواصف، وتختل الموازين، ويهان الضعيف، ويستبد القوي المتكبر، لا يستكين الضعيف، بل يبحث عن مخرج من ورطته ليجد السند القوي الذي يعضده حتى يقوى عوده، وتشتد شوكته، ويضحي مهيمنا على المستكبرين.

سن الله سنة نصرة المستضعفين محافظة على استمرار الحياة، وقصما للطغاة المستكبرين،

وتعذيبًا لهم"[١]. فالضعيف لا يبقى ضعيفًا أبد الآبدين، والقوي لا يبقى قويًّا أبد الآبدين، والله القوي ينصر عباده المستضعفين على أعدائهم المستكبرين وفق سنته المطردة، ولنا في التاريخ – الذي يعيد نفسه– عبرة لمن أراد أن يتذكر أو أراد شكورا؛ أي قوة كانت مع كليم الله سيدنا موسى عليه السلام؟ ألم يقل فرعون ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾؟(النازعات: من الآية ٢٤)؟ ألم يكن فرعون هو صاحب البطش والقوة والجبروت والطغيان؟ لكن إرادة الله فوق كل إرادة والله هو ذو القوة والجبروت، ولهذا لما قال أصحاب سيدنا موسى عليه السلام:﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾(الشعراء: من الآية٦١). نطق لسان الإيمان واليقين الذي أدرك حقيقة سنة الله المطردة، فقال سيدنا موسى الكليم عليه السلام منبها أصحابه على الحقيقة التي غفلوا عنها، وسنة الله التي لم يدركوا كنهها: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(الشعراء:٦٢).

فتحقق وعد الله في نصر عباده المؤمنين المستضعفين؛ فانفلق البحر، ونجا سيدنا موسى عليه السلام وأصحابه المستضعفون، وغرق فرعون وقومه المستكبرون، وحُصدت قوته بجند من جنود الله تعالى. فكانوا فريقين وفق سنن الله تعالى: فريق "قائم" يمثله كليم الله سيدنا موسى عليه السلام ومن آمن معه، وفريق "حصيد" حصدته أمواج البحر المتراكمة؛ يمثله فرعون وقومه، فكانت الأنهار التي كان يعتز فرعون بأنها تجري من تحته أذله الله بها فأجراها من فوقه، فكان عبرة لكل مستكبر.

ثم أولم يقل الصِّدِّيق أبو بكر رضي الله عنه -الذي صدَّق بالصِّدق الذي جاء به سيدنا رسول الله ﷺ - يوم كان رفيقا للنبي ﷺ في الهجرة إلى المدينة لما كانا في الغار: «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا»، فأجابه لسان اليقين ﷺ في نصر الله للمستضعفين المؤمنين: « مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»[٢].

---

[١] التجديد في دراسة الحديث النبوي الشريف على نور السنن الإلهية، ٩٩.

[٢] صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، ح٣٤٥٣.

ليس هذا وحسب، بل التاريخ شاهد على سنة الله في نصر المستضعفين؛ ألم يقل أصحاب النبي ﷺ يوم الأحزاب وجيوش الكفر متربصة بهم من كل جانب ﴿قَالُوا هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ (الأحزاب: من الآية٢٢)، ويوم قال لهم القوم: ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (آل عمران:١٧٣)، وليس هذا فقط؛ بل ألم يحث الشيخ ابن تيمية –رحمه الله– الناس على القتال في معركة شقحب –موضع قرب الشام– (م رمضان عام ٧٠٢هـ/ ٢٠ أبريل ١٣٠٣م) لما واجه المسلمون غطرسة التتار، وهو يبشر الناس ويثبتهم «وجعل يحلف بالله الذي لا إله إلا هو إنكم منصورون عليهم في هذه المرة، فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله، فيقول إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا»[1]؛ أي إن ذلك واقع بمشيئة الله، لا تعليقًا كأنه يشك في نصر الله تعالى لعباده المستضعفين، "وكان يتأول في ذلك أشياء من كتاب الله منها قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ (الحج: ٦٠)"[2]، فالعاقبة للمؤمنين المستضعفين متى وفروا الشروط، وقد اقتضت حكمته تعالى وسنته في خلقه التي لا محيص عنها ولا محيد أن خُلع النصر وجوائزه إنما تفيض على أهل الانكسار والافتقار إلى الواحد القهار.

إذن، فالكل يدور في فلك حكمة الله تعالى ومشيئته الأزلية، وسنته المطردة وعلمه الذي لا يحيط به سواه.

يقول الإمام ابن تيمية –رحمه الله– نلمس منه بعض الإشارات إلى بعض القواعد الكلية السابقة. يقول: " إن الإرادة في كتاب الله نوعان؛ إرادة تتعلق بالأمر، وإرادة تتعلق بالخَلق، فالإرادة المتعلقة بالأمر؛ أن يريد من العبد فعل ما أمره به، وأما إرادة الخلق؛ أن يريد ما يفعله هو؛ فإرادة الأمر هي المتضمنة للمحبة والرضا وهي الإرادة الدينية والثانية المتعلقة بالخلق هي المشيئة وهي الإرادة الكونية القدرية.

[1] البداية والنهاية، لابن كثير، ١٤/ ٢٨-٣٠.

[2] المصدر نفسه، ١٤/ ٢٨.

فالأولى كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾(البقرة: ١٨٥)، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(النساء: ٢٦)، إلى قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾(النساء: ٢٨)، وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ، وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾(المائدة: ٦)، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(الأحزاب: من الآية ٣٣).

والثانية كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾(الأنعام: من الآية ١٢٥)، وقول نوح عليه السلام ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾(هود: من الآية ٣٤)"[١].

أليس كل هذا لدليل واضح على أن نصرة المستضعفين قاعدة كلية من قواعد السنن الإلهية!

وغاية المرام: إن كل القواعد الكلية السابقة "مترابطة، متسقة، يربطها خيط رفيع بين الأسباب ومسبباتها، وبين الأعمال ونتائجها، كأنها معادلات رياضية تتحكم في الكون ونواميسه؛ فكلما حصلت المقدمة حصلت النتيجة"[٢].

هذا، وإن أهم ما يميز السنن الإلهية وقواعدها الكلية "أنها تنطلي على كل جزئياتها، فلا تفلت سنة من قواعدها الكلية، ولا يبرم ضابط من ضوابطها، ولا خاصية من خاصياتها.

قد نجد استثناءات، لكن تحكمها قواعد كلية أخرى مما يجعلها غير شاردة، ولا شاذة عن قاعدة أخرى"[٣].

---

[١] منهاج السنة النبوية، لابن تيمية، ٣/ ١٥٦-١٥٧.

[٢] منهاج الفتوى على ضوء السنن الإلهية، محمد جابري، ٦٩.

[٣] منهاج الفتوى على ضوء السنن الإلهية، ٧٧.

ثم إن جوهر القضية في كل ما سبق عموم ما ذكرناه يهدف إلى الغاية الكبرى: وهي توحيد الله تعالى؛ أي جعل الإنسان عبدًا خالصًا لله سبحانه وتعالى، لا لأحد سواه، وذلك مما يدركه من أسرار سنة الله في خلقه، التي تدل على وحدانية الخالق ﷻ.

إذن، عرفنا القواعد الكلية لسنن الله ﷻ، فما هي خصائصها الربانية ومواصفاتها القرآنية التي تراعي شكلها؟

المبحث السادس

دواعي الاهتمام بالسنن الإلهية

للاهتمام بعلم السنن الإلهية عدة أسباب نذكر منها:

١ - دواعي العبودية.

قال الله جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقال عز من قائل: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦)﴾[النور].

إن الإنسان مستخلف في الأرض، يجب عليه البحث عن كل الأسباب التي تجعله أهلاً لهذه الخلافة، وأول هذه الأسباب وأعظمها هو أن يحقق العبودية الكاملة لله تعالى التي يتوقف عليها مصير الإنسان الأخروي، بل هي شرط تحقيق الإنسان لأعلى درجات حريته وكرامته وإنسانيته. هذه العبودية تتحقق بمعرفة سنن الله تعالى وقوانينه التي بثها في هذه الحياة للسير على منهاجها واستعمالها والعمل بمقتضياتها.

إن معرفة الإنسان بهذه السنن الربانية التي تحكم الحياة البشرية، والوقوف على آثار صنعة الله تعالى في حياة الأمم والجماعات والحضارات، وكيف حقت عليها كلمة الله، وكيف مضت عليها سنته، وحصدها قانونه على غفلة من الناس، تملأ قلبه إجلالاً وتعظيمًا وتوقيرًا لله جل في علاه، فيقبل على ربه فيعبده حبًّا وخوفًا ورجاء.

٢ - الدواعي التسخيرية.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

إن واقع المسلمين اليوم وتخلفهم عن الركب الحضاري، وتدهور أوضاع مجتمعاتهم إنما يُعزى إلى جهلهم بالسنن الربانية، ولا سبيل إلى التقدم والنهوض واستئناف الدورة الإنجازية وتحقيق الاستخلاف في الأرض إلا بفقه السنن الربانية، وحسن التعامل معها، وإتقان تسخيرها واستعمالها.

وحين يتفقه العقل المسلم في هذه السنن الإلهية يصبح أقدر على فهم العالم حوله كما يصبح أقدر على تسخير الكون في صالحه. وصدق الله تبارك وتعالى حيث يقول: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤)﴾[سورة النحل].

ومن هنا فإن الإدراك العميق بأن كل شيء في هذا الوجود يسير وفق سنن الله تعالى التي لا تنخرم ولا تحيد، وتوظيف هذا الإدراك إلى واقع العمل، حينئذ سيكون الإنسان قادرًا أن يسير على المهيع الصحيح بفقه الوحي الرباني مسترشدًا بفهم آياته وغاياته، معتبرًا بمن سبقه من الأولين، مستفيدًا من كل آليات الحياة ومسخرًا لها لتحقيق بناء الذات، والحفاظ على الكيان.

ولذلك فإن الإعراض عن تسخير سنن الله تعالى التي يسرها وذللها وسهلها للإنسان تجعل هذا الإنسان يفقد "ميزاته الأساسية، وأمانته التي حمله الله إياها، والسلطان الذي أعطاه الله تعالى له، لتسخير ما خلق الله له، ويصير هذا الإنسان المكرم في أسفل سافلين، بل يصير

نفسه مسخرًا للذين يعلمون سنن الله"[١].

يقول الدكتور عمر عبيد حسنة: "إن الفهم والوعي بالحياة والاستيعاب لسيرورتها وإمكانية التعامل معها والمداخلة في سيرتها يتطلب اكتشاف هذه السنن والقوانين، وفهم آلية عملها، ومن ثم امتلاك القدرة على تسخيرها ومدافعة قدر بقدر أو سنة بسنة، وأن عملية النهوض بكل متطلباتها وشروطها إنما تتحقق بالتزام هذا المنهج السنني، وتوظيفه لبلوغ الأهداف وتحقيق متطلبات الاستخلاف، والقيام بأعباء عمارة الأرض وإقامة العمران، وأن أي فشل أو إخفاق أو سقوط أو تعثر إنما يرجع إلى الخلل في إدراك قوانين الأشياء وقصور الرؤية عن كيفية التعامل معها"[٢].

٣ - الدواعي العمرانية الحضارية.

إن علم السنن الإلهية له أهمية بالغة في هذا العصر الذي تمر فيه الأمة المسلمة بأحلك فتراتها التاريخية؛ حيث تكالب عليها الأعداء من كل حدب وصوب، وتعقدت أوضاعها الاجتماعية، واستفحلت المشكلات بديارها... مما يستدعي مزيدًا من الاهتمام بكل ما من شأنه أن يوصل إلى معرفة عوامل هذا الظلام الذي خيم على سمائها، والخطوب التي حلت بمنازلها، والأسباب الكامنة وراء تلك الظواهر العديدة التي تجتاح المسلمين وحياتهم، وتحول دون رقيهم وتقدمهم وازدهارهم؛ والمهيع الموصل إلى معرفة تلك العوامل والأسباب هو السنن الإلهية التي تضبط حركات الحياة وحركة المجتمعات الإنسانية..؛ لكونها اشتملت على كل ما يتعلق بالنفس الإنسانية وبحركات المجتمعات وفاعلية الإنسان فيها.

فهذه السنن الإلهية المبثوثة في الكتاب المسطور (القرآن) والكتاب المنظور (الكون)، وفي السنة النبوية، بها حقق الرعيل الأول انتصارات خارقة وفتوحات في مشرق الأرض ومغربها

---

[١] المنهج السنني، ٢١.

[٢] حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، ٢٢٥.

ومنجزات عمرانية؛ لأنهم كانوا مدركين لهذه السنن مهتدين بها، عاملين بمقتضاها.. ولا تزال تجربتهم التي استضاءت بنور السنن الإلهية عامة والسنن الاجتماعية خاصة المثال والأنموذج الذي تهدف مشاريع الإصلاح والتغيير عبر التاريخ إلى إعادة إنتاجه أو احتذائه على الأقل.

ولا يمكن تحقيق ما حققوه من منجزات عالية الدقة على كل المستويات وفي كل جوانب الحياة، إلا بالاستناد إلى تلك السنن الإلهية الصارمة التي استندوا إليها، واستعملوها وقاموا بتسخيرها.. بعيدًا عن الجبرية والقدرية والتواكلية والمعطلة وغيرها من الفرق التي تنكبت منهاج السنن، مما كان له انعكاسات خطيرة على كيان الأمة تسرب من خلاله الضعف والوهن إليها..

وبالإضافة إلى ما سبق هناك دواع أخرى لا تقل عنه أهمية؛ ففي ضوء هذه السنن الإلهية يمكن معرفة أسباب ما يعترض العمل الإسلامي من عقبات كأداء من حين لآخر، ويمكن أن نفسر ما أصاب الأمة المسلمة من الارتكاس والانتكاس والانكسار التاريخي والحضاري، وتوالي الهزائم عليها، وانتهاك الأعداء لحرماتها وحماها، والانحدار إلى مهاوي التبعية، واستفعال المرض الغثائي في كيانها... وتحولها من مركز القيادة والريادة والسيادة فاعلة في المجتمع مسخرة للكون صانعة للتاريخ إلى أمة متخلفة عن الركب الحضاري، تنتظر سننا خارقة للعادة، أو تعلق هزائمها ومآسيها على القدر..

ومن شأن هذه السنن الإلهية أيضًا أن توقفنا على دعائم النهوض ومقوماته، وعوامل التمكين وأسبابه، وأن تساعدنا على إدراك المقاصد وإبصار الحلول وتحصيل المؤهلات وامتلاك وسائل النجاح في مسيرتنا العمرانية، ومن شأنها أن تمكننا من تصويب الحاضر وإدراك أسباب تغيير المجتمع والرقي به للاهتداء إليها والاتعاظ بها لمعالجة أمراضنا وبناء مستقبلنا.

إن الانبعاث الإسلامي والتجديد الحضاري الذي تشرئب إليه الأعناق وترنو إليه الأمة لن تراه الأمة على أرض الواقع إلا بفقه السنن وتسخيرها وإبصار آيات الله في الآفاق والأنفس: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾[الأنعام: ١٠٤].

ولا يتحقق ما ذكرناه إلا بالكشف عن هذه السنن الإلهية ودراستها والتوسع في معرفتها بكلياتها وجزئياتها، ومقاصدها وحكمها..

إنه ذلك المنهاج الذي يمدنا في مسيرتنا العمرانية بالأسس والمقومات والمواقف والإشارات، ويخولنا الاستفادة من تجارب الأمم الغابرة وأخذ العبرة من عواقب الأمم البائدة، ويوفر علينا جهدًا كبيرًا ووقتًا طويلاً كان بالإمكان تضييعهما إذا نحن غفلنا عن السنن ولم نلتفت إلى التجارب التاريخية.

يقول سيد قطب -رحمه الله-: "فكل الرسالات جاءت لتقر في الأرض وفي حياة الناس ميزانا ثابتا ترجع إليه البشرية لتقويم الأعمال والأحداث والأشياء والرجال، وتقيم عليه حياتها في مأمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة، وتصادم المصالح والمنافع. ميزانًا لا يحابي أحدًا؛ لأنه يزن بالحق الإلهي للجميع، ولا يحيف على أحد لأن الله رب الجميع.

هذا الميزان الذي أنزله الله في الرسالة هو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف والزلازل والاضطرابات والخلخلة التي تحيق بها في معترك الأهواء ومضطرب العواطف، ومصطخب المنافسة وحب الذات؛ فلابد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر، فيجدون عنده الحق والعدل والنصفة بلا محاباة. ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.. فبغير هذا الميزان الإلهي الثابت في منهج الله وشريعته لا يهتدي الناس إلى العدل، وإن اهتدوا إليه لم يثبت في أيديهم ميزانه، وهي تضطرب في مهب الجهالات والأهواء!.."[1].

٤ - الدواعي المعرفية.

تعد معرفة السنن الإلهية من الواجبات الدينية والضرورات الشرعية؛ لأن معرفتها تمكننا من إدراك الكثير من الأحكام التكليفية وعللها، وما انبنت عليه الشريعة الغراء من العدل المحض.

---

[1] في ظلال القرآن، ٦/ ٣٤٩٤.

ولعل التفكير في آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي الأمين ﷺ من زاوية الوقوف على السنن الإلهية نجد أن هذين المصدرين يشملان أهم جوانب الحياة الرئيسة ويستوعبان قضايا الإنسان والمجتمع والعمران.

يقول عبد الكريم زيدان (ت١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م)-رحمه الله-: "إن معرفة سنن الله جزء من معرفة الدين أو لمعرفة جزء من الدين، وأن هذه المعرفة ضرورية، ومن الواجبات الدينية؛ لأنها تبصرنا بكيفية السلوك الصحيح في الحياة حتى لا نقع في الخطأ والعثار والغرور والأماني الكاذبة، وبذلك ننجو مما حذرنا الله منه، ونظفر بما وعد الله عباده المؤمنين المتقين"[١].

ويقول الدكتور عمر عبيد حسنة: "إن هم النهوض والمساهمة في معاودة إخراج الأمة لتحمل الخير والرحمة للإنسانية إنما يتحقق بالعمل العلمي المتخصص القاصد أو الهادف وامتلاك الأدوات الحقيقية التي تمكننا من اكتشاف هذه السنن وتحديد مواطن الخلل، والعمل على وضع خطة متكاملة لكيفية إصلاحه"[٢].

ولذلك نعتقد أن استرداد فاعلية الأمة المسلمة ومعاودة إخراجها مرهون إلى حد بعيد باستدعاء معرفة الوحي، مصدر معرفة السنن واستصحابها كدليل عمل وبوصلة هداية لكيفية التعامل مع مسيرة الحياة، وإبصار سننها، وإيقاظ الوعي، واستنفار العقل، وتوفير التخصصات المطلوبة لبناء العقل الناضج؛ ليقوم بدوره ووظيفته في الاجتهاد وتنزيل معرفة الوحي على واقع الناس ونوازلهم من خلال المنهج السنني، في ضوء الاستطاعات المتوفرة والظروف المحيطة، والخلوص من ذهنية التخلف والعجز والانسحاب من ساحة الفعل والفاعلية والإيمان بالخوارق والأساطير وحصول المعجزات، ومحاولة الإلقاء بالتبعة على (الآخر) أو على القدر عندما تعيينا الحيل وتعوزنا الأدلة[٣].

---

[١] السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، ١٧.

[٢] المنهج السنني، ٧٣.

[٣] المرجع نفسه، ٧٥.

وعليه فلابد من دراسة مستوعبة للسنن الإلهية، ولابد من دراسة التاريخ من خلال تلك السنن، وإن المتدبر لكتاب الله ولسنة رسوله ﷺ ليجد عناية ملحوظة بإبراز تلك السنن، وتوجيه النظر إليها، واستخراج العبرة منها، والعمل بمقتضياتها لتكوين المجتمع السليم المستقيم على أمر الله[1]، وغاية المرام: إنه بالعناية بالسنن الإلهية يحصل المسلم على المعارف الصحيحة في علوم الإسلام المختلفة، وبها يدرك القوانين التي تحكم الكون والحياة، وبذلك يتذوق روح الإسلام ومقاصده السامية..

٥ - الدواعي الوظيفية.

إن من أهم دواعي الاهتمام بالسنن الإلهية المبثوثة في القرآن الكريم والسنة النبوية نذكر الوظيفة التي تضطلع بها في علاقتها الوثيقة بالعلوم الإنسانية؛ فهي تعبر أصدق تعبير عن كل ظاهرة كونية وتفسرها أبرع تفسير وأبدعه: فكل الآيات الكونية نجد لها قوانين وضوابط من السنن الإلهية الدينية.

لقد أمعن علماء العلوم الإنسانية النظر بمتابعة الأحداث في محاولة لدراسة أنماطها، ولتفكيك ترابطها، وفك ألغازها، وبيان أسبابها، ومقدماتها ونتائجها وخلاصاتها؛ فلم يفلحوا على الرغم من كثرة الاختصاصات، واتساع مجالات الأبحاث بمختلف النظريات والتوجهات، وعلى الرغم من اختلاف الأقطار، وتباعد الديار، أضحى العالم اليوم قرية صغيرة واحدة بفعل الاتصالات والتكنولوجيا الحديثة، وتعدد وسائل الاتصال وتنوعها، لكن عمى الألوان الذي أصاب الغربيين صرفهم عن النظر في السنن الإلهية: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[الأعراف: ١٤٦]، ولذلك فلا ينجلي الفهم السديد للقرآن الكريم، إلا من خلال الترابط الوثيق بين ما هو مقروء في

[1] حول التفسير الإسلامي للتاريخ، محمد قطب، ٨٦-٨٧.

القرآن الكريم مما عهد به الله لكل شيء في هذا الوجود، لا ينفك عنها منفك، وبين ما يجري في الكون والآفاق من أحداث وأمور، لا تفسرها أوضح تفسير وأبينه إلا السنن الإلهية.

لقد جاء المنهاج القرآني ممثلا في السنن الإلهية لينقل المجتمعات الإنسانية إلى أفق واسع، ويحدد لها منهاجا للنظر والاستقراء والاستدلال في معالجة التاريخ البشري والفعل الاجتماعي في الماضي والحاضر والمستقبل، ويحدد نسق الترابط بين المقدمات والنتائج، وبين الأسباب والمسببات، وبين المراحل والأطوار، والقرآن الكريم لا يزاحم العقول ولا يعوض التجارب في اتخاذ الوسائل المناسبة، ولكنه يبين الغايات منها، وارتباطها بالله تعالى، وكيفية تسخيرها لصالح الإنسانية، ويضع سدًا منيعًا في وجه الأفكار والفلسفات التي تنحرف بالإنسان والمجتمع والكون عن غايات وجودهم، ويتحداها بأنها لن تحقق سعادة الإنسان خارج دائرة السنن الإلهية التي بثها الله في الكون والحياة الإنسانية والاجتماع البشري، كما يؤيد التجارب الاجتماعية والعلمية والنفسية؛ لكونها محكًا يمكن للإنسان أن يحصل من خلالها معرفة سننية وحقائق كونية قررها الوحي (القرآن والسنة). فهي تجارب بشرية تصدق الوحي بما تسفر عنه من نتائج وقواعد وسنن في ضوئه وعلى نوره، وتكشف عن الكثير من الجزئيات، أشار الوحي إلى غاياتها فقط..

أضف إلى ذلك أن القرآن الكريم يدعو الناس إلى السير في الأرض للبحث والاكتشاف والنظر في غور التاريخ وأحوال الأمم؛ للوقوف على ما قرره سلفا من سنن ربانية في الآفاق والأنفس تحكم حركة التاريخ والمجتمعات والأمم: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت: ٢٠). ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠].

والحاصل أن المشكلة التي يعاني منها العقل المسلم اليوم هي مشكلة العجز عن السير في الأرض للوقوف على سنن الله في الآفاق والأنفس، وكأن الله خلق عقولنا لنعطلها عن

التدبر والنظر في الكتاب المنظور، حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه اليوم من الانحسار الحضاري، والتخلف العالمي في شتى الميادين..

ثم إن المشكلة الأخرى هي مشكلة العجز عن التعامل مع السنن الإلهية، والانتفاع بها في مسيرة الحياة البشرية، هذه السنن التي تعبر عن خلود الرسالة الإسلامية وقدرتها على العطاء المتجدد، المجرد عن حدود الزمان والمكان؛ لحل المشكلات الإنسانية والاجتماعية..

ولذلك فإن "اكتشاف المنهج السنني الذي يحكم الأنفس والآفاق، والتزامه في التنمية والتطوير والارتقاء والتقدم العلمي والتقني كان وراء الكثير من الإنجازات الكبيرة في مسيرة الحضارة، كما كان له الأثر البالغ على حياة الإنسانية ومعاجلة أزماتها وقضاياها.

فالكشف عن سنن الأنفس أنتج علوم النفس والاجتماع والإنسان، والكشف عن سنن الكون أنتج علوم الفزياء والفلك، والكشف عن سنن وقوانين المعادن والعناصر العضوية أنتج علم الكيمياء، وساهم باختراع الأدوية، والكشف عن سنن مكونات جسم الإنسان ووظائفه (البيولوجيا والفسيولوجيا) أنتج علم الطب وعالج أزمات وأمراض الإنسان.

وهكذا تستمر سائر الإنجازات العلمية ومعالجة الأزمات الإنسانية، وتأتي ثمرة لاكتشاف واتباع المنهج السنني واكتشاف قوانين الخلق: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠] في شتى المجلات؛ وكل يوم يأتي بجديد إلى أن ينشئ الله النشأة الآخرة"[١].

وهكذا يتضح لنا أن الاهتمام بدراسة السنن الإلهية لم يأت من فراغ، وإنما لدواع عديدة وأسباب قوية، لا يمكن تجاهلها أو غض الطرف عنها..

---

[١] المنهج السنني، ٨٨-٨٩.

المبحث السابع

السنن الإلهية بين الوعي العملي والوعي النظري

نفتح هذا المبحث بطرح هذا الإشكال الرئيس: إلى أي حد كانت صلة الأمة الإسلامية بعلم السنن الإلهية ودراسته والعناية به ومعالجة أدوائها ومشكلاتها في ضوئه؟ هذا الإشكال نجيب عنه من خلال النقاط الآتية:

١ - الوعي العملي بالسنن الإلهية في عهد النبوة والخلافة الراشدة.

لقد كان رسول الله ﷺ أسوة وقدوة في فقه السنن الإلهية، وكانت كل تصرفاته تطبيقًا وامتثالاً لهذه السنن، كما كان ﷺ يرشد أصحابه ﭫ إلى سنن الله في من سبقهم بالإيمان من أتباع الأنبياء والمرسلين، ليحذوا حذوهم ويقتفوا آثارهم، ويحذرهم من السير على سنن المكذبين والظالمين والمنكرين ليبتعدوا عنها ويجتنبوها، ويبين أسباب مرض الأمم السابقة وهلاكها وحلول عقاب الله فيها، ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في الدنيا والآخرة إذا ساروا على سكة السنن الإلهية.

فاستجاب الصحابة ﭫ لنبيهم ﷺ واكتشفوا سنن الله وتفاعلوا معها، وقاموا بتسخيرها، وانتفعوا بها في حياتهم، فلم يتمنَّوا الأمنيات، ولم ينتظروا اختراق العادات، دون بذلِ الجهود والمساعي والأخذ بالسنن.

لقد كان رسول الله ﷺ، في كل أموره اليومية وفي كل أحواله في مكة والمدينة وفي الحرب والسلم، يقف مع السنن الإلهية؛ من أجل تسخيرها في خدمة دين الله وعباد الله، وعند توقُّف الأسباب المادية يَمُدُّ الله نبيَّه بما يعطل أثر الأسباب المادية لنبيه الكريم ﷺ، بعد استفراغ الوُسع، وبذل الجهد.

يقول الدكتور عمر عبيد حسنة: "والرسول القدوة ﷺ، المبلِّغ عن ربه ما نزل إليه، تعامل مع معرفة الوحي التي أكدت حاكمية السنن لواقع الناس وحياتهم، وقدم الأنموذج العملي والتربوي لتسخيرها وحسن التعامل معها، وكان محل الاقتداء والتأسي لمسيرة الحياة بكل تفاصيلها ومتعرجاتها وما يمكن أن يكون من العسر واليسر، والشدة والرخاء، والهزيمة والنصر، والضعف والقوة، والخطأ والصواب.

لقد كان ﷺ دليلاً هاديًا للناس للتعامل مع سنن الله وأقداره في الحياة والأحياء، في كل الأحوال، مؤكدًا في كل المناسبات أن هذه السنن الجارية إنما تتحقق من خلال عزمات البشر، بعيدًا عن الأوهام والأساطير والخوارق، (أو السنن الخارقة)؛ ذلك أن حسن تسخير هذه السنن ومغالبة قدر بقدر هي قضية الإنسان في الأرض وأن الإخفاق في تسخيرها أو الغفلة عنها والانسحاب من التعامل معها مؤذن بالوقوع في الشدة والأزمة والتخلف، نتيجة الارتطام بها، المؤدي لضياع الأجر والعمر"[1].

ولذلك كان أصحاب سيدنا رسول الله ﷺ -طبقًا للتوجيهات القرآنية والإرشادات النبوية- يقرؤون آيات القرآن الكريم قراءة واعية تمثل سنن الله، وتعتبر من دروسها وعبرها، وبقراءتهم للقرآن الكريم بحثًا عن السنن واكتشافًا لها، تفقهوا فيها وكانوا على معرفة واسعة بها، كيف لا؟ وهم عاشوا مع رسول الله ﷺ كل مراحل التأسي والبناء، والتربية والجهاد، والهجرة والنصرة، والتبليغ والتدافع، والدعوة وبناء الأمة، فتمثلوا منهاج رسول الله ﷺ في الاستضاءة بنور السنن الإلهية في حياتهم، فانتفعوا بها في فتوحاتهم ودعوتهم، ولقد كان وعيهم العملي بالسنن الإلهية والتزامهم غرزها أول أسباب نجاحهم في حياتهم الفردية والاجتماعية، وما أكرمهم الله به من النصر والتمكين والاستخلاف في الأرض، وتوحيد الكلمة وجمع الصف، وبناء القلوب، ونشر دين الله تعالى في الأرض.

---

[1] المنهج السنني أفق حضاري متجدد، ٧٢-٧٣.

إن الذي ميّز هذه المرحلة هو الاهتداء العملي والتأسي بسيدنا رسول الله ﷺ في التطبيق العملي لهذه السنن في واقع الحياة، على عكس المراحل المتأخرة التي اهتمت بالكتابة في فقه السنن، أو بمحاولة التأسيس النظري لها، وإلا فلو خالفوا السنن الإلهية وتنكبوها لما تحقق لهم كل تلك الانتصارات في ذلك الزمن القصير، حتى صاروا أنموذجًا خالدًا في تاريخ الإنسانية كلها، ولذلك لما حل الطاعون بالشام رجع الفاروق عمر ﷺ بالناس ولم يدخلها، فقَالَ له أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ﷺ: "أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ! فَقَالَ عُمَرُ: "لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ! نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ"[١]. وهكذا كان الفاروق ﷺ فقيها في السنن، وأخذ بسنن الأسباب للحفاظ على الناس من إصابتهم بالطاعون، وهذه نتيجة وعيه السنني، ولما رأى الفاروق ﷺ أناسا من أهل اليمن خرجوا مع ركب بدون رواحل وبدون زاد، فقال لهم: «مَنْ أَنْتُمْ؟» قَالُوا: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ. قَالَ: «بَلْ أَنْتُمُ الْمُتَكِلُونَ، إِنَّمَا الْمُتَوَكِّلُ الَّذِي يُلْقِي حَبَّهُ فِي الْأَرْضِ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ»[٢]، وهذه نتيجة كذلك تدبره السنن الإلهية في الحياة، وأن اتخاذ الأسباب لا يعارض التوكل على الله تعالى.

ولما أمر أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ سعد بن أبي وقاص ﷺ بالرحيل من زرود[٣] إلى العراق استعدادًا لخوض المعركة الفاصلة مع الفرس وأوصاه بالوصية الآتية: ((أما بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله عز وجل أفضل العدة على العدو، وأقوى العدة في الحرب وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدَّ احتراسًا من المعاصي منكم من عدوكم ؛ فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم، ولا

---

[١] صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، ح٥٣٩٧.

[٢] شعب الإيمان، للبيهقي، ٢/ ٤٢٩؛ مجموعة رسائل ابن أبي الدنيا كتاب التوكل على الله، ٥٠.

[٣] زرود: موضع بطريق مكة بعد الرمل.

عُدَّتنا كعدتهم، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة....))[١]. هذا جزء من الوصية العمرية لسعد ﷺ، تبين مدى وعيه بالسنن الإلهية، وإدراكه حقيقة سنن الله في النصر والهزيمة والذنوب والمعاصي والطاعات..

ولما تولى أبو بكر الصديق ﷺ الخلافة جاء في خطبته التي استفتح بها عهده:"... لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا يشيع قوم قط الفاحشة إلا عمهم الله بالبلاء..."[٢]. مما ينم عن وعيه بالسنن الإلهية، حيث أدرك جملة من سنن الله في الجهاد والقعود والذنوب والموبقات...

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَّ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ: يَا رَسُولَ اللهَّ، إِنَّ اللهَّ يُرِيدُ مِنَّا الْقَرْضَ؟ قَالَ: "نَعَمْ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ" ، قَالَ: أَرِنِي يَدَكَ، فَنَاوَلَهُ يَدَهُ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ أَقْرَضْتُ رَبِّي حَائِطِي – وَفِي حَائِطِهِ سِتُّمِائَةِ نَخْلَةٍ –، ثُمَّ جَاءَ إِلَى الْحَائِطِ، فَقَالَ: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ – وَهِيَ فِي الْحَائِطِ –، فَقَالَتْ: لَبَّيْكَ. فَقَالَ: اخْرُجِي، فَقَدْ أَقْرَضْتُهُ رَبِّي عَزَّ وجل[٣]. هذا يدل دلالة واضحة على الوعي العملي بالسنن الإلهية. لقد وقف أبو الدحداح مع الآية الكريمة وقفة سننية، فوقف عند سنة من سنن الله في الإنفاق والبر والإحسان، فسارع إلى فعل الخير والإنفاق استجابة لربه تعالى.

وعن أَنَس بْن مَالِكٍ ﷺ قال: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهَّ صلى الله عليه وسلم يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَّ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢] قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى

---

[١] العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي، ١/ ١١٧.

[٢] البداية والنهاية، لابن كثير، ٥/ ٢٦٩.

[٣] أخرجه سعيد بن منصور في التفسير (٣/ ٩٣٥)؛ والبزار في مسنده (٥/ ٤٠٢)؛ والطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ٣٠١)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ١٢٥). وهو حديث صحيح.

رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: من الآية ٩٢] وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاء، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ للهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللهُ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ" فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ[١].

والحاصل أن السائد في عهدي التنزيل والخلافة الراشدة هو الوعي العملي بالسنن الإلهية، ولم تكن هناك حاجة إلى التأسيس النظري له، طالما أن الجميع يدرك سنن الله تعالى المبثوثة في كتابه المسطور وكتابه المنظور.

لقد كان الصحب الكرام ﷺ على وعي تام بالسنن الإلهية؛ فاستوعبوا مقاصدها، وامتثلوها في حياتهم، فتحققت لهم السيادة والريادة، ففتحوا البلدان وفتحوا مغاليق القلوب، ودانت لهم الجبابرة والأكاسرة، ونشروا الإسلام في ربوع الأرض كلها، وهكذا كان لتلك السنن الإلهية التي تفقهوا فيها وعملوا بمقتضاها أثر كبير في تشكيل العقلية الإسلامية التي استفادت من السنن الإلهية، ثم سخرتها فيما عاد عليها بالنفع والصدارة في الحياة.

لقد كان جيل القرون الخيرية الأولى يتعامل مع السنن الإلهية بشكل عملي وتلقائي؛ لأنهم أدركوا مغزاها وكنهها وأسرار العمل في ضوئها، وما قولة ربعي بن أبي عامر ﷺ الشهيرة: "اللهُ ابْتَعَثَنَا، وَاللهُ جَاءَ بِنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَتِهَا، وَمِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الإِسْلامِ، فَأَرْسَلَنَا بِدِينِهِ إِلَى خَلْقِهِ لِنَدْعُوَهُمْ إِلَيْهِ"[٢]. إلا دليلاً كافيًا على أنهم استوعبوا السنن الإلهية استيعابا عمليًا، وسخروها في أخطر

[١] صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، ح١٣٩٢؛ صحيح مسلم: كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين، ح(٩٩٨).
[٢] تاريخ الطبري، ٣/ ٥٢٠.

عملية في التاريخ؛ لإرجاع الناس إلى دينهم، ونشر نور الإسلام في ربوع الأرض كلها.

٢- الوعي النظري بعلم السنن الإلهية عند القدامى من علماء المسلمين.

إنه على الرغم من التطبيق العملي للسنن الإلهية في عهد النبوة والخلافة الراشدة، فقد كانت عناية علماء الإسلام بهذا العلم أقل بكثير من عنايتهم بأنواع العلوم الأُخر؛ الشرعية واللغوية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية.

ولا شك أنهم -رحمهم الله- لم يتركوا هذا الجانب الحيوي من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ دون بيان منهم أو إغفالاً -وما هم بمعصومين- ولكن كيف يدعونه وهم الذين تفننوا في استنباط العلوم، وأوسعوها دراسة وبحثًا، حتى أصبح كل من جاء بعدهم عيالا عليهم، إلا القليل منها، وكيف يغفلونه وقد فنيت أعمارهم فيما دونه من العلوم؟!

والحق أنهم لم يغفلوا علم السنن بإطلاق، كما يظن ذلك من يظنه فيهم، بل بيّنوه بما يتناسب والظروف التاريخية المحيطة بهم والمناهج العلمية المتبعة في زمانهم، عن طريق لفت الأنظار إلى السنن المبثوثة في القرآن الكريم، ومن يطالع التفاسير القديمة، بدءًا من تفسير شيخ المفسرين الطبري ثم تفسير ابن عطية والبغوي وابن كثير وابن حيان الأندلسي والآلوسي وأبي السعود والرازي والزمخشري وغيرهم، يقف من ذلك على الكثير من النظرات والإشارات المتفرقة هنا وهناك. أضف إلى كتب التفسير كتب التاريخ كتاريخ الطبري، والبداية والنهاية لابن كثير، والتاريخ المعتبر في أنباء من غبر للعُليمي، وتاريخ ابن الأثير والتنبيه والإشراف للمسعودي، والعبر في خبر من غبر للذهبي، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي وغيرهم، التي فيها إشارات قوية إلى أهمية التاريخ، وأوجه الاعتبار به، والاستلهام من أحداثه، وعليه؛ فإن جهود علماء الإسلام الأوائل لم تؤسس علمًا مستقلاً يُعنى بعلم السنن الإلهية على غرار العلوم الشرعية والعقلية الأخرى التي اجتهدوا فيها؛ تقعيدًا وتنظيرًا وتطبيقًا وممارسة.. فقد كان حضور هذا العلم ضئيلاً في مؤلفاتهم... وعذرهم في ذلك طبيعة العصر الذي عاشوا

فيه، ومدى الحاجة إلى التوفر على مثل هذا اللون من الدراسات، عذرهم أنهم كانوا يعيشون في ظل أمة غالبة قاهرة قرونًا من الزمان، فاشتغلوا بتفاصيل الأحكام ودقائق العلاقات، ولم تنحرف المسيرة التاريخية بهم بصورة واضحة كما هي الحال في القرون المتأخرة. ومثل تلك الأجواء لا تستثير النفوس والعقول عادة للعكوف على دراسة السنن على النمط الذي ننشده اليوم[١]، لكن على الرغم من قلة المصنفات في علم السنن الإلهية، كان هناك ثلة من علمائنا الأجلاء اشتغلوا بعلم السنن الإلهية ونذكر منهم:

أ – الإمام ابن أبي الدنيا.

كان علم السنن الإلهية حاضرًا عند الإمام أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا البغدادي، من علماء القرن الثالث الهجري (ت٢٨١ه/ ٨٩٤م)-رحمه الله-، في كتابه النفيس "العقوبات" الذي أورد فيه جملة من أحاديث النبي ﷺ التي تتحدث عن سنن الله في هلاك الأمم وأنواع العقوبات التي حلت بها، ولا يقصد الإمام بالعقوبات، العقوبات الجنائية وإنما يقصد بها السنن الإلهية التي ذكرها القرآن الكريم في قيام الأمم والجماعات وسقوطها، والجزاء الإلهي العادل الذي ينزل بها في الحياة الدنيا جزاءً وفاقًا على سلوكها.

وقد كان الإمام ابن أبي الدنيا فقيها في السنن الإلهية كما يتضح من كتابه هذا؛ حيث تعرض فيه لقضايا مختلفة كان جامعها الأساس كونها ذات تعلق بالجانب الحضاري للأمم والمجتمعات البشرية، ولكن أهمها هي تلك الروايات المتعلقة بأسباب قيام المجتمعات وزوالها، مثل ارتباط تغيير حال الأمة الحضاري بقدرتها على تغيير سلوكها المتمثل في إشاعة قيم العدالة الاجتماعية والمساواة ورعاية الحقوق والعهود، والكف عن الظلم والتصدي للظلمة بالنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. أضف إليها ارتباط العمل بالجزاء في أكثر الأحوال.

[١] ينظر: سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم، حسن بن صالح الحميد، ٤٩ وما بعدها.

أنموذج للروايات التي أوردها في كتابه العقوبات التي تعبر عن السنن الإلهية:

روى بسنده عن عبيد الله بن جرير عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يكون بين ظهرانيهم من يعمل معاصي الله، فقدروا على أن ينهوه ولم ينهوه، إلا عمّهم الله عزّ وجل منه بعقاب»[١]، وبتدبر الحديث الشريف نجده يتحدث عن سنن الله في الذنوب والمعاصي.وروى بسنده عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا الناس أظهروا العلم وضيّعوا العمل، وتحابوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب، وتقاطعوا في الأرحام ، لعنهم الله عند ذلك، فأصمهم وأعمى أبصارهم»[٢].

ب - الإمام أبو محمد ابن حزم الأندلسي.

بعد الإمام ابن أبي الدنيا ظهر الاهتمام بعلم السنن عند الإمام أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م)، وذلك من خلال تأكيده القول بالطبائع وإثبات العلّية في الكون؛ أي إن الله تبارك وتعالى جعل لكل مخلوق في الكون طبيعة تتحكم بوجوده، ولا يمكن لهذه الطبيعة أن تتبدل أو تتغير أو تتحول، وجعل لكل حادث في الكون سببًا مرتبطًا به ارتباطًا حتميًّا، يقول ابن حزم: "إن للأشياء طبائع وماهية تقف عندها ولا تتجاوزها"[٣].

ويضيف قائلاً: "إن الباري -جل وعلا- خلق المعلولات على ما هي عليه من الإتقان والإحكام والثبات باضطراره للعلل التي وجبت المعلولات من أجلها"[٤].

ويضيف في موضع آخر: "وما هلكت الدول، ولا هلكت الممالك، ولا سُفكت الدماء ظلمًا، ولا هُتكت الأستار بغير النمائم والكذب"[٥].

---

[١] العقوبات، لابن أبي الدنيا، ٢٤، حديث رقم: ١٠.
[٢] المصدر نفسه، ٤٨-٤٩، حديث رقم: ٤٨.
[٣] الفصل في الملل والأهواء والنحل، ١/ ٦.
[٤] الرد على الكندي الفيلسوف، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي، ٤/ ٣٧٤.
[٥] طوق الحمامة، ١/ ١٧٦.

وقال في موضع آخر: "وكل هذه الطبائع مخلوقة لله تعالى فرتب الطبيعة على أنها لا تستحيل أبدًا، ولا يمكن تبديلها عند كل ذي عقل؛ كطبيعة الإنسان بأن يكون مُمَكَّنا له التصرف في العلوم والصناعات إن لم تعترضه آفة، والطبيعة في البُر ألا ينبت شعيرًا ولا جوزًا، وهكذا كل العالم"[١].

ثم يتحدث عن مبدأ السببية الذي ترتبط به الكثير من السنن الإلهية ويقول: "فإذا نص الله تعالى أو رسوله ﷺ على أن أمر كذا لسبب كذا أو من أجل كذا، ولأن كان كذا أو لكذا؛ فإن ذلك كله ندري أنه جعله الله أسبابا لتلك الأشياء في تلك المواضع التي جاء النص بها فيها، ولا توجب تلك الأسباب شيئًا من تلك الأحكام في غير تلك المواضع البتة.. وهذا هو ديننا الذي ندين به، وندعو عباد الله تعالى إليه، ونقطع على أنه الحق عند الله تعالى"[٢].

ويضيف قائلاً: "ولسنا ننكر وجود أسباب لبعض أحكام الشريعة بل نثبتها ونقول بها، لكنا نقول إنها لا تكون أسبابًا إلا حيث جعلها الله تعالى أسبابًا، ولا يحل أن يتعدى بها المواضع التي نص فيها على أنها أسباب لما جعلت أسبابًا له"[٣].

أضف إلى كل هذا أن الإمام ابن حزم في كتابه "طوق الحمامة" يرد الظواهر إلى بواعثها النفسية، محاولاً في ذلك الكشف عن القوانين النفسية التي تحكم في حركة الإنسان في عواطفه الإنسانية.

أما في كتابه "مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق"؛ فإنه يبحث من خلال استخدامه كل الأدوات العلمية مثل الملاحظة والمشاهدة والتجربة والأخبار المتواترة في طبائع البشر، عن القوانين المتحكمة في سلوك الإنسان والمفسرة لعلاقاته الاجتماعية.

---

[١] الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٥/ ١٦.

[٢] الإحكام في أصول الأحكام، ٨/ ٩٩.

[٣] المصدر نفسه، ٨/ ٩٩.

ت - حجة الإسلام أبو حامد الغزالي.

ومن علماء المسلمين القدامى الذين كان لهم اهتمام بعلم السنن الإلهية حجة الإسلام الإمام محمد ابن محمد الغزالي أبو حامد (٥٠٥هـ/ ١١١١م)-رحمه الله- صاحب دائرة المعارف الفريدة والنفيسة "إحياء علوم الدين"، الذي قسم العلم إلى محمود ومذموم، واعتبر علم السنن من أجل العلوم وأنفعها.

ولقد أكد الإمام الغزالي أهمية علم السنن الإلهية الذي عبر عنه بأفعال الله وصفاته وسننه وحكمته... واعتبره بحرًا زاخرًا يتطلب بذل الجهود والمساعي للبحث عن درره وجواهره ومكنونات أصدافه...

هذا وقد عد حجة الإسلام الإمام أبو حامد محمد الغزالي-رحمه الله- علم السنن الإلهية من القسم المحمود فقال: "وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله، وسنته في خلقه، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى سعادة الآخرة، وبذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصورٌ عن حد الواجب، فإنه البحر الذي لا يدرك غوره وإنما يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه بقدر ما يتيسر لهم، وما خاض أطرافه إلا الأنبياء والراسخون في العلم على اختلاف درجاتهم بحسب اختلاف قوتهم وتعاون تقدير الله تعالى في حقهم، وهذا هو العلم المكنون الذي لا يسطر في الكتب"[1].

ومن أقوال الغزالي التي تعكس مدى استيعابه لمفهوم السنن الإلهية، وتوضح جهوده في إبراز ما استطاع الوصول إليه منها بشكل علمي قوله عن الحكمة من ذكر قصص السابقين في القرآن الكريم: "وهذه القصص وردت في القرآن لتعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل، فما في القرآن شيء إلا وهو هدى ونور وتعرف من الله تعالى إلى خلقه، فتارة يتعرف

---

[1] إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد الغزالي، ١/ ٣٩.

إليهم بالتقديس فيقول: ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١) اللهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾(الإخلاص)، وتارة يتعرف إليهم بصفات جلاله فيقول: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ المتكبر﴾(الحشر)، وتارة يتعرف إليهم في أفعاله المخوفة والمرجوة فيتلو عليهم سنته في أعدائه وفي أنبيائه فيقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨)﴾(الفجر) ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾(الفيل). ولا يعدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة وهي: الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه، أو معرفة صفاته وأسمائه، أو معرفة أفعاله وسنته مع عباده"[١]، ثم يؤكد اطراد السنن وإثبات العلية في الكون في قوله: "... احتراق القطن عند مجاورة النار، وحصول البرودة في اليد عند مماسة الثلج، فإن كل ذلك مستمر بجريان سنة الله تعالى"[٢].

وينبه الإمام الغزالي العقل الإسلامي على الأخذ بالسنن الإلهية أثناء حديثه عن سنة الله في التدرج، يقول: "سنة الله عز وجل جارية في جميع خلقه بالتدريج في الإيجاد، حتى إن غريزة الشهوة لا تظهر في الصبي عند البلوغ دفعة وبغتة، بل تظهر شيئًا فشيئًا على التدريج، وكذلك جميع القوى والصفات، ومن أنكر تفاوت الناس في هذه الغريزة فكأنه منخلع عن ربقة العقل، ومن ظن أن عقل النبي ﷺ مثل عقل آحاد السوادية وأجلاف البوادي فهو أخس في نفسه من آحاد السوادية، وكيف ينكر تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلف الناس في فهم العلوم، ولما انقسموا إلى بليد لا يفهم بالتفهيم إلا بعد تعب طويل من المعلم، وإلى ذكي يفهم بأدنى رمز وإشارة وإلى كامل تنبعث من نفسه حقائق الأمور بدون التعليم"[٣].

كما يحض على العمل بمقتضى السنن الإلهية من خلال ربطه الدعاء بالقضاء والقدر، وربطه التوكل على الله تعالى باتخاذ الأسباب المطلوبة، يقول: "إن الدعاء بالمغفرة والعصمة

---

[١] المرجع نفسه، ٤/ ٣٤٣.

[٢] الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد الغزالي، ٥٩.

[٣] إحياء علوم الدين، ١/ ٨٨.

من المعاصي وسائر الأسباب المعينة على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى؛ فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر، وخشوع القلب، ورقة التضرع، ويكون ذلك جلاء للقلب، ومفتاحًا للكشف، وسببًا لتواتر مزايا اللطف، كما أن حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضًا للرضا بقضاء الله تعالى في العطش، وشرب الماء طلبًا لإزالة العطش مباشرة سبب رتبه مسبب الأسباب، فكذلك الدعاء سبب رتبه الله تعالى وأمر به.

وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جريًا على سنة الله تعالى لا يناقض التوكل، واستقصيناه في كتاب التوكل، فهو أيضًا لا يناقض الرضا؛ لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ويتصل به، نعم إظهار البلاء في معرض الشكوى وإنكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا، وإظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى لا يناقضه"[١].

ويضيف قائلاً: "التباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة، وجهل بسنة الله تعالى، والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عز وجل دون الأسباب لا يناقض التوكل"[٢].

ويبرز حجة الإسلام وعيه بالسنن الإلهية التي تحكم الكون والحياة من خلال قوله بالطبائع؛ حيث يقول: "والقدر المحتاج إليه الآن أن المتكلم إذا أخبره بأن ولده جزت رقبته لم يشك في موته، وليس في العقلاء من يشك فيه، وهو معترف بحصول الموت وباحث عن وجه الاقتران، وأما النظر في أنه هل هو لزوم ضروري ليس في الإمكان تغييره أو هو بحكم جريان سنة الله تعالى لنفوذ مشيئته الأزلية، التي لا تحتمل التبديل والتغيير، فهو نظر في وجه الاقتران لا في نفس الاقتران، فليفهم هذا وليعلم أن التشكك في موت من جزت رقبته وسواس مجرد، وأن اعتقاد موته يقين لا يستراب فيه"[٣].

---

[١] إحياء علوم الدين، ٤/ ٣٥٤.

[٢] المصدر نفسه، ٤/ ٢٦٦.

[٣] معيار العلم في فن المنطق، أبو حامد محمد الغزالي، ١٩١.

ومن تأمل كتابات حجة الإسلام الغزالي يلحظ دعوته إلى اكتشاف ما خفي من سنن الله تعالى، هذا والإنسان مهما حصل من علوم وخبرات فإن الكون يخفي مزيدًا من الحقائق لمن بذل جهده ومساعيه للكشف عنها.

ث - شيخ الإسلام ابن تيمية.

إن من العلماء الذي قد أسهموا في البحث عن السنن الإلهية ودعوة الأمة إلى العناية بها، شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية (٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م) رحمه الله، ولقد جاء ابن تيمية -بعد أولئك العلماء الجلة الذين سبق الحديث عنهم- ليحث على الاهتمام بالسنن الإلهية نظريًّا وعمليًّا؛ حيث قام بتكريس جهود الإمام ابن حزم الظاهري في إثبات طبائع الأشياء والمخلوقات، وتأكيد مبدأ ارتباط الأسباب بمسبباتها، وذلك عندما أنكر على المتكلمين نفيهم للطبائع والعلل، واتهمهم بمخالفة القرآن والسنة وإجماع سلف الأمة، فضلاً عن مخالفة العقل والحس. يقول في رده عليهم: "ومن الناس من ينكر القوى والطبائع... وهؤلاء المنكرون للقوى والطبائع، ينكرون الأسباب أيضا، ويقولون: إن الله يفعل عندها لا بها، فيقولون: إن الله لا يشبع بالخبز، ولا يروي بالماء، ولا ينبت الزرع بالماء، بل يفعل عنده، لا به، وهؤلاء خالفوا الكتاب والسنة وإجماع السلف مع مخالفة صريح العقل والحس"(١).

كما يتضح اهتمامه بعلم السنن الإلهية في تعريفه لها قائلاً: "السنة هي العادة في الأشياء المتماثلة... فإنه سبحانه إذا حكم في الأمور المتماثلة بحكم؛ فإن ذلك لا ينتقض، ولا يتبدل، ولا يتحول، بل هو سبحانه لا يفوت بين المتماثلين، وإذا وقع تغيير، فذلك لعدم التماثل، وهذا القول أشبه بأصول الجمهور القائلين بالحكمة في الخلق والأمر، وأنه سبحانه يسوي بين المتماثلين ويفرق بين المختلفين كما دل القرآن على هذا في مواضع كقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ

(١) مجموع الفتاوى، ٩/ ٢٨٨.

المُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة القلم ٣٥]، ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا، ولولا القياس واطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها، والاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره"(١).

ثم يقول في دعوة صريحة إلى ضرورة الأخذ بالسنن الإلهية: "فأُمرنا أن نعتبر بأحوال المتقدمين علينا من هذه الأمة، ومن قبلها من الأمم، وذَكَر -الله تعالى- في غير موضع أن سُنته في ذلك سنةٌ مطردة، وعادةٌ مستمرة، فينبغي للعقلاء أن يعتبروا بسُنة الله وأيامه في عباده، ودأب الأمم وعاداتهم"(٢).

وقد تنبه ابن تيمية إلى مسألة بالغة الأهمية تتعلق بالسنن الإلهية وهي: إن السنن لا تعمل بمعزل عن الظروف الخارجية والموضوعية المحيطة بها وفي منأى عنها، بل هي تعمل وتمارس عملها في ضوء هذه الظروف، وبمعنى آخر لا يمكن أن تتحقق السنن الإلهية وتظهر إلى حيز الوجود الفعلي إذا لم تتوفر لها كل الظروف والشروط الموضوعية اللازمة لظهورها، وتنتف من أمامها كل العوائق والموانع الخارجية المنافية لوجودها، وعلى ضوء هذا الكلام والفهم، يفسر ابن تيمية سبب تخلف بعض السنن وعدم ظهورها -في حال توقع وجودها- على أنه بسبب انتفاء أحد شروطها أو وجود أحد موانعها، وليس بسبب تغير سنة الله تعالى أو تبديلها، فسنن الله تعالى لا تقبل التبديل ولا التحويل(٣).

يقول ابن تيمية: "سنته تعالى مطردة في الدينيات والطبيعيات، وقوله تعالى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهَّ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهَّ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]، دليل على أن هذا من مقتضى حكمته، وأنه يقضي في الأمور المتماثلة بقضاء متماثل لا بقضاء مخالف؛ فإذا كان قد نصر

(١) جامع الرسائل، ١/ ٥٥.

(٢) مجموع الفتاوى، ٢٨/ ٤٢٥-٤٢٦.

(٣) انظر: رؤية منهجية في التغيير، عمر عبيد حسنة، ١٢٤-١٢٥؛ مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي السيد محمد رشيد رضا أنموذجًا، حازم زكريا محي الدين، ٧٠.

المؤمنين لأنهم مؤمنون كان هذا موجبًا لنصرهم حيث وجد هذا الوصف، بخلاف ما إذا عصوا ونقضوا إيمانهم كيوم أحد؛ فإن الذنب كان لهم، ولهذا قال ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾؛ فعم كل سنة له، وهو يعم سنته في خلقه، وأمره في الطبيعيات والدينيات، لكن الشأن أن تعرف سنته. وحقيقة هذا أنه إذا نقض العادة؛ فإنما ينقضها لاختصاص تلك الحال بوصف امتازت به عن غيره، فلم تكن سنته مع ذلك والاختصاص بسنته مع عدمه، كما نقول: إذا خصت العلة لفوات شرط أو وجود مانع، وكما نقول في الاستحسان الصحيح وهو تخصيص بعض أفراد العام بحكم يختص به لامتيازه عن نظائره بوصف يختص به"[١].

ثم يؤكد ثبات السنن الإلهية واطرادها في كتابه "الرد على المنطقيين"، وأنها سنن الله تعالى نافذة ولا تنتقض بحال، ولن يوجد لها تبديل ولا تحويل[٢] >أضف إليه تفصيلاته في سنة الله في أنبيائه وأتباعهم، وسنة الله في المكذبين والكذابين في كتابه: "النبوات" >وكذلك تفصيلاته في الأمر الكوني والحقيقة الكونية (السنن الكونية) ، والأمر الديني والحقيقة الدينية (السنن الشرعية) في كتابيه: (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان)، و(العبودية).

أضف إليه ما هو متناثر حول هذا العلم في جل كتاباته.

ث - الإمام ابن قيم الجوزية.

سار الإمام شمس الدين حمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ/ ١٣٤٩م) -رحمه الله- على طريق شيخه ابن تيمية في العناية بعلم السنن الإلهية، فقد أثبت كشيخه مبدأ السببية في عالم الكون والحياة الإنسانية، يقول -رحمه الله-: "فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في تَرَتُّب الجزاء بالخير والشر والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب، بل ترتيب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحها ومفاسدهما على الأسباب والأعمال، ومن تفقه

---

[١] جامع الرسائل، ١/ ٥٤-٥٥.

[٢] انظر: الرد على المنطقيين، ٣٩٠ وما بعدها.

في هذه المسألة وتأملها حق التأمل انتفع بها غاية النفع ولم يتكل على القدر جهلاً منه، وعجزًا وتفريطًا وإضاعة، فيكون توكله عجزًا وعجزه توكلاً، بل الفقيه كل الفقه الذي يرد القدر بالقدر ويدفع القدر بالقدر ويعارض القدر بالقدر، بل لا يمكن للإنسان أن يعيش إلا بذلك فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر، والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر، وهكذا من وفقه الله وألهمه رشده يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة، فهذا وزن المخوف في الدنيا وما يضاده، فرب الدارين واحد وحكمته واحدة لا يناقض بعضها بعضا ولا يبطل بعضها بعضًا، فهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها ورعاها حق رعايتها، والله المستعان، لكن يبقى عليه أمران بهما تتم سعادته وفلاحه؛ أحدهما: أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير ويكون له بصيرة في ذلك بما شهده في العالم وما جربه في نفسه وغيره وما سمعه من أخبار الأمم قديمًا وحديثًا، ومن أنفع ما في ذلك تدبر القرآن؛ فإنه كفيل بذلك على أكمل الوجوه، وفيه أسباب الخير والشر جميعًا مفصلة مبينة، ثم السنة فإنها شقيقة القرآن وهي الوحي الثاني، ومن صرف إليهما عنايته اكتفى بهما من غيرهما وهما يريانك الخير والشر وأسبابهما حتى كأنك تعاين ذلك عيانًا، وبعد ذلك فإذا تأملت أخبار الأمم وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته،طابق ذلك ما علمته من القرآن والسنة ورأيته بتفاصيل ما أخبر الله به ووعد به، وعلمت من آياته في الآفاق ما يدلك على أن القرآن حق، وأن الرسول ﷺحق، وأن الله ينجز وعده لا محالة، فالتاريخ تفصيل لجزئيات ما عرفنا الله ورسوله من الأسباب الكلية للخير والشر"[1].

وهذه الفقرة تنمُّ عن وعيه بعلم السنن الإلهية، فانظر كيف أدرك أن القرآن الكريم غنيٌّ بالسنن الإلهية الكونية والأمرية، الكلية والجزئية، فضلاً عن السنن الاجتماعية والنفسية والتاريخية... واعتبر الفقيه الكامل من تفقه هذه السنن، ثم جعل طريق تحقيق السعادة في العلم بها للوقوف عند سنن الله في الخير والشر، والأمم الغابرة وسنن الله في أيام الله والتاريخ

[1] الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن قيم الجوزية، ١٠-١١.

وسننه في الآفاق، وسننه في أهل طاعته وسننه في أهل معصيته.

ثم يدعو إلى الوقوف عند آيات القرآن الكريم للاطلاع على مجموعة من سنن الله في الخير والشر والدنيا والآخرة والسعادة والإيمان، وسنن قيام الأمم وانهيارها، وسنن النفس وما يجول في خلجاتها، ثم السنن الموصلة إلى الله تعالى، فالسنن التي تصد عن سبيله، ثم مقاصد أفعال الله جل وعلا.. وتسخيرها حتى تعود على العبد بالمنافع الآجلة والعاجلة، وتضمن له صلاح دينه ودنياه، والنجاة في آخرته، يقول رحمه الله: " فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وتضع في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه وتشيد بنيانه وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم وتريه أيام الله فيهم وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه وافتراقهم فيما يفترقون فيه، وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه وطريق الوصول إليه وما له من الكرامة إذا قدم عليه.

وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه"(١).

ج - المؤرخ الحكيم عبد الرحمن بن خلدون.

أضف جهود أولئك الجلة من علماء الأمة في خدمة علم السنن الإلهية والعناية بها،

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ١/ ٤٥١.

الجهد النوعي المتميز الذي أبدع فيه مؤرخنا الحكيم مؤسس علم الاجتماع والعمران عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م) – في مقدمته وتاريخه – في صورة علم العمران البشري، والذي أسس به لعلم سنني عمراني حضاري متميز، كان نقطة تحول عظمى في التعامل مع علم السنن الإلهية، والاشتغال به بصورة منهجية موضوعية.

وقد تحدث ابن خلدون عن كتابه في التاريخ مبينًا أنه لم يسبقه إليه أحد في منهجه الذي سلكه في تدوينه لعلم التاريخ عامة، ولعلل قيام الدول وسقوطها وأسبابها خاصة، وفي ذلك يقول: "ولمّا طالعت كتب القوم، وسبرت غور الأمس واليوم، نبّهت عين القريحة من سنة الغفلة والنّوم. وسمت التّصنيف من نفسي.. فأنشأت في التّاريخ كتابًا، رفعت به عن أحوال النّاشئة من الأجيال حجابًا: وفصّلته في الأخبار والاعتبار بابًا بابًا، وأبديت فيه لأوّليّة الدّول والعمران عللاً وأسبابًا. وبنيته على أخبار الأمم الّذين عمروا المغرب في هذه الأعصار، وملؤوا أكناف الضّواحي منه والأمصار، وما كان لهم من الدّول الطّوال أو القصار، ومن سلف لهم من الملوك والأنصار، وهما العرب والبربر؛ إذ هما الجيلان اللّذان عرف بالمغرب مأواهما وطال فيه على الأحقاب مثواهما، حتّى لا يكاد يتصوّر فيه ما عداهما، ولا يعرف أهله من أجيال الآدميّين سواهما، فهذّبت مناحيه تهذيبا، وقرّبته لأفهام العلماء والخاصّة تقريبًا، وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكًا غريبًا، واخترعته من بين المناحي مذهبًا عجيبًا، وطريقة مبتدعة وأسلوبًا، وشرحت فيه من أحوال العمران والتّمدّن وما يعرض في الاجتماع الإنسانيّ من العوارض الذّاتيّة ما يمتّعك بعلل الكوائن وأسبابها، ويعرّفك كيف دخل أهل الدّول من أبوابها، حتّى تنزع من التّقليد يدك، وتقف على أحوال ما قبلك من الأيّام والأجيال وما بعدك"[1].

لقد أقر الإمام ابن خلدون أن لكل شيء في الكون طبيعة خاصة به، تتحكم به من داخله، وأثبت ارتباط الأسباب بمسبباتها في عالم الكون والموجودات، ولكنه –وهذا سر

[1] تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، ٨-٩.

تفوقه على من سبقه في مجال دراسة السنن الإلهية واستكشافها- لم يكتف بذلك، بل أثبت أيضًا وبشكل صريح أن ظواهر الاجتماع الإنساني، ووقائع التاريخ البشري هي بدورها أيضًا تخضع لقوانين ثابتة ومطردة، شأنها شأن الظواهر الطبيعية.

وقد لاحظ أيضًا خضوع أحداث التاريخ مثلها مثل بقية الحوادث الطبيعية إلى قانون العلية ومبدأ السببية، دون إغفال الإشارة إلى مصدر هذه الأسباب وخالقها الله تعالى[١]، يقول ابن خلدون: "فإنّ كلّ حادث من الحوادث ذات كان أو فعلاً لابدّ له من طبيعة تخصّه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله؛ فإذا كان السّامع عارفًا بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها، أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصّدق من الكذب"[٢]، ويضيف قائلاً: "اعلم أنّ الحوادث في عالم الكائنات، سواء أكانت من الذّوات أم من الأفعال البشريّة أم الحيوانيّة، فلابدّ لها من أسباب متقدّمة عليها، بها تقع في مستقرّ العادة، وعنها يتمّ كونه، وكلّ واحد من هذه الأسباب حادث أيضًا، فلابدّ له من أسباب أخرى، ولا تزال تلك الأسباب مرتقية حتّى تنتهي إلى مسبّب الأسباب وموجدها وخالقها سبحانه لا إله إلّا هو"[٣].

إذن فكل الظواهر الاجتماعية والوقائع التاريخية –حسب ابن خلدون- تسير على سكة السنن الإلهية ولا تخرج عنها. يقول –رحمه الله-: "ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام، وهو داء دوي شديد الخفاء؛ إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة، فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة؛ وذلك لأن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، وإنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال، كما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ

---

[١] انظر: مفهوم السنن الإلهي في الفكر الإسلامي، حازم محي الدين، ٧٥.

[٢] تاريخ ابن خلدون، ٤٧.

[٣] المصدر نفسه، ٥٨٠.

خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾(غافر: من الآية ٨٥)"[١].

أضف إليه أن مؤرخنا الحكيم عبد الرحمن ابن خلدون قد امتاز عن سابقيه بدراسة الظواهر الاجتماعية والعمرانية في مختلف الميادين السياسية والاقتصادية والفكرية والثقافية والتربوية، واهتدى إلى كنز ثمين من سنن العمران والاجتماع البشري.

٣- الفقه السنني في الفكر الإسلامي الحديث.

لقد ظل علم السنن الإلهية تطويه الأَيام والعصور حتى العصر الحديث؛ حيث بدأ بعض علماء الإسلام يفكرون في هذا العلم وينبهون إلى أهميته ويحثون على الاهتمام به، ومن هؤلاء السيد جمال الدين الأفغاني (ت١٣٢٣هـ/ ١٨٩٧م) الذي انتحى في كتابة مقالات العروة الوثقى منحى يؤكد وقوفه على كثير من السنن الإلهية في الكون والحياة ونظام الاجتماع البشري وأسباب ترقي الأمم وسقوطها وقوتها وضعفها... ثم اعتنى من عاصره من تلاميذه ومن جاء بعده اعتناء فائقا بعلم السنن؛ ونذكر من هؤلاء الجِلَّة:

أ - الشيخ محمد عبده.

في أواخر القرن الثالث عشر الهجري وبداية القرن الرابع عشر بدأ استئناف الجهود من جديد لدراسة السنن الإلهية والتأسيس النظري لها، على يد الشيخ محمد عبده رحمه الله؛ حيث يعد الاهتمام بالسنن الإلهية أحد المقومات الرئيسة لمشروعه الإصلاحي النهضوي الذي استنبطه من القرآن الكريم، وما جاء في العروة الوثقى وفي مجلة المنار وما نقله عنه الشيخ رضا في تفسير المنار أكبر دليل على جهوده البارزة في هذا المجال، كيف لا؟ وهو منذ بدايات دعوته في الإصلاح يضع السنن الإلهية في ذهنه ؛ إذ الإصلاح والتغيير بني على سنن إلهية ثابتة ومطَّردة وماضية لا تتخلف، ولم يقف عند هذا الحد فقط، بل حث على الاهتمام بقراءة القرآن الكريم بمنظار مقاصدي يبتغي الوقوف على السنن الإلهية وتدوينها والعناية بها، وتأصيل علم الاجتماع

[١] المصدر نفسه، ٣٧. وانظر المقدمة، ٣٥.

على قواعد إسلامية قرآنية متينة فيقول: "إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سننا يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علما من العلوم المدونة لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وقد بينها العلماء بالتفصيل عملا بإرشاده، كالتوحيد والأصول والفقه، والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن سجل عليه في مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها"[١]، ويضيف قائلاً: "إن علم السنن أعظم الوسائل لكمال العلم بالله -تعالى- وصفاته ومن أقرب الطرق إليه وأقوى الآيات الدالة عليه، وهو أعظم العلوم التي يرتقي بها البشر في الحياة الاجتماعية المدنية فيكونون بها أعزاء أقوياء سعداء، وإنما يرجى الاستفادة منه إذا نظر فيه إلى الوجه الرباني والوجه الإنساني جميعًا وهو ما كان عمر ينظر فيه بنور الله في نظرته وهداية كتابه... وإن في سياسة عمر وفي كلامه لدلائل كثيرة على بصيرته في هذا العلم"[٢]، ويضيف: "لقد جاء في القرآن الكريم الكثير من قواعد هذا العلم، فغفل أكثر المفسرين عنه ولم يهتد إلى فقه بعضه إلا القليل منهم؛ إذ لم يكن هذا العلم مدونًا في عهدهم فينبههم إلى ذلك"[٣].

ويقول أيضًا: "إن لله في الأمم والأكوان سُننًا لا تتبدل، إن نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله، ويبني عليها سيرته، وما يأخذ به نفسه، فإن غفل عن ذلك غافل، فلا ينتظر إلا الشقاء، وإن ارتفع إلى الصالحين نسبُه أو اتصل بالمقربين سببُه، فمهما بحث الناظر وفكّر وكشف وقرر وأتى لنا بأحكام تلك السُّنن، فهو يجري مع

---

[١] تفسير المنار، ٤/ ١١٤؛ الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده، محمد عماره، ٥/ ٩٥.

[٢] تفسير المنار، ٧/ ٤١٧.

[٣] المصدر نفسه، ٤/ ٣٤.

طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه ولا تنفر منه"[١].

ثم دعا إلى تدوين علم السنن الإلهية فقال: "ولا يحتج علينا بعدم تدوين الصحابة لها، فإن الصحابة لم يدونوا غير هذا العلم من العلوم الشرعية التي وُضِعت لها الأصول والقواعد، وفُرِّغت منها الفروع والمسائل، وإنني لا أشك في كون الصحابة كانوا مهتدين بهذه السنن، وعالمين بمراد الله من وراء ذكرها.

بمعنى: أنهم بما لهم من معرفة أحوال القبائل العربية والشعوب القريبة منهم، ومن التجارب والأخبار في الحرب وغيرها، وبما منحوا من الذكاء، والحذق، وقوة الاستنباط، كانوا يفهمون المراد من سنن الله تعالى، ويهتدون بها في حروبهم وفتوحاتهم وسياستهم للأمم التي نقلوا نور الإسلام إليها، وما كانوا عليه من العلم بالتجربة والعمل أنفع من العلم النظري المحض، وكذلك كانت علومهم كلها.

ولما اختلفت حالة العصر اختلافًا احتاجت معه إلى تدوين علم الأحكام وعلم العقائد وغيرهما، كانت محتاجة أيضًا إلى تدوين هذا العلم، ولك أن تسميه علم السنن الإلهية أو علم الاجتماع أو علم السياسة الدينية"[٢].

ب - الشيخ محمد رشيد رضا.

وسار الشيخ محمد رشيد رضا في مؤلفاته عامة وتفسيره ومجلته خاصة على منهاج الشيخ محمد عبده، فكشف في مؤلفاته عن الكثير من السنن الإلهية، ويؤكد هذا ما جاء في صفحة غلاف تفسير المنار: "هذا هو التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور وصريح المعقول الذي يبين حكم التشريع، وسنن الله في الإنسان، وكون القرآن هداية للبشر في كل زمان ومكان، ويوازن

---

[١] الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، محمد عبده، مجلة المنار، ١٦ جمادى الآخرة - ١٣٢٠هـ، المجلد الخامس، ٤٤١ وما بعدها.

[٢] تفسير المنار، ٤/ ١١٥. المذهب الإصلاحي للإمام محمد عبده، محمد عمارة، ٧٨.

بين هدايته وما عليه ا لمسلمون في هذا العصر وقد أعرضوا عنها، وما كان عليه سلفهم المعتصمون بحبلها، وهذه هي الطريقة التي جرى عليها في دروسه في الأزهر حكيم الإسلام الأستاذ الإمام محمد عبده"[١].

ويقول: "أجمل القرآن الكلام عن الأمم وعن السنن الإلهية، وعن آياته في السموات والأرض، وفي الآفاق والأنفس، وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شيء علمًا، وأمرنا بالنظر والفكر والسير في الأرض لتفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاء وكمالا"[٢].

ثم أكد أهمية علم السنن الإلهية وآثار الأخذ به وإعماله في قوله: "إن العلم بسنن الله – تعالى- في عباده، لا يعلوه إلى العلم بالله-تعالى- وصفاته وأفعاله، بل هو منه أو من طرقه ووسائله، (...) فهو معراج الكمال الإنساني، أما العلم بسُنته في خلقه فهو وسيلة ومقصد، أعني: أنه أعم الوسائل لكمال العلم الذي قبله، ومن أقرب الطرق إليه، وأقوى الآيات الدالة عليه، وأنه أعظم العلوم التي يرتقي بها البشر في الحياة الاجتماعية المدنية، فيكونون بها أعزاء أقوياء سعداء"[٣].

ثم يضع يده على الجرح ومناط البلاء الذي أصاب الأمة لما أعرضت عن هدي السنن، فيقول: "ترى شعوب المسلمين يجهلون هذه السنن، وما ضاع ملكهم وعزُّهم إلا بجهلها الذي كان سببًا لعدم الاهتداء بها في العمل، وما كان سبب هذا الجهل إلا الإعراض عن القرآن، ودعوى الاستغناء عن هدايته بما كتبه لهم المتكلمون من كتب العقائد المبنية على القواعد الكلامية المبتدعة، وما كتبه الفقهاء من أحكام العبادات"[٤].

ويضيف في موضع آخر موجها اللوم للمسلمين بسبب تقصيرهم في علم السنن قائلاً:

---

[١] صفحة غلاف تفسير المنار.
[٢] تفسير المنار، ١/ ٢١.
[٣] المصدر نفسه، ٧/ ٤١٧.
[٤] المصدر نفسه، ٩/ ٤٨٢.

"وقد سبق حكماء المسلمين إلى بيان [بعض السنن الإلهية]، وبدأ ابن خلدون بجعله علمًا مدوَّنًا يرتقي بالتدرج كغيره من العلوم والفنون، ولكن استفاد غير المسلمين مما كتبه في ذلك، وبنوا عليه ووسعوه، فكان من العلوم التي سادوا بها على المسلمين الذين لم يستفيدوا منه كما كان يجب؛ لأنه كُتب في طور تدنّيهم وانحطاطهم، بل لم يستفيدوا من هداية القرآن العليا في إقامة أمر مُلكهم وحضارتهم على ما أرشدهم إليه من القواعد وسنن الله فيمن قبلهم"[١].

ثم يضيف مبينًا آثار علم السنن وأهمية العناية به قائلاً: "لا جَرَم أن العلم بعوارض الأمم من السعادة والشقاء هو العلم بالإنسان الذي هو أشرف الموجودات في هذا العالم، وهذا أشرف العلوم، وأهم مباحثه ما يشرح أسباب أمراض الأمم وهلاكها، (...)، هذا العلم هو الذي ينير البصائر، ويصلح السرائر، ولكن المسلمين تجاوزوا بأنظارهم آيات الكتاب الكثيرة التي أرشدتهم إليه، والآيات الكونية في الآفاق وفي أنفسهم"[٢].

وقد جمع الباحث حازم زكريا محي الدين في رسالته للماجستير الموسومة بـ:"مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي: السيد محمد رشيد رضا أنموذجًا" والتي طبعتها دار النوادر، جمع جل آراء الشيخ رضا بشأن الفكر السنني.

ت - سيد قطب.

تابع سيد قطب -رحمه الله- الشيخ رشيد رضا في التنبيه على أهمية علم السنن الإلهية، ولفت الأنظار إليه، ومن يطالع تفسيره "في ظلال القرآن" يقف على عدد هائل من السنن الإلهية المستنبطة من القرآن الكريم، فهو تفسير سنني بامتياز. يقول رحمه الله: "والقرآن الكريم يرد المسلمين إلى سنن الله في الأرض، يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور،

---

[١] المصدر نفسه، ٨/ ٩٧.

[٢] "رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ"، رشيد رضا، مقال منشور في مجلة المنار، ١(١٣١٦هـ-١٨٩٩م)، ٦٠٩-٦١٠.

فهم ليسوا بدعًا في الحياة؛ فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافًا، إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغازيها، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام، واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين؛ لينالوا النصر والتمكين، بدون الأخذ بأسباب النصر، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول"[١]، ويزيد حضًّا للمسلمين على الوعي بالسنن في قوله: "إن المسلم ينبغي أن يتجه إذن إلى تدبر حكمة الله من وراء ما يجري في الأرض، بعد أن يدرك طبيعة هذا الذي يجري والقدرة التي وراءه.."[٢].

والله تبارك وتعالى الحكيم ينبه الغافلين إلى تدبر آياته في صفحة الكون وتضاعيفه، في السماء والأرض، وفي الشمس والقمر، وفي الليل والنهار.. وفي مصارع القرون الأولى، وفي قصص الرسل فيهم.. وفي دلائل القدرة الكامنة والظاهرة في هذا الوجود..[٣].

والعلماء هم الذين يتدبرون هذا الكتاب العجيب، ومن ثَمَّ يعرفون الله معرفة حقيقية، يعرفونه بآثار صنعته، ويدركونه بآثار قدرته، ويستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقة إبداعه، من ثم يخشونه حقًّا ويتقونه حقًّا، ويعبدونه حقًّا[٤]. وصدق الله إذ قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر: ٢٨].

ثم يبين معنى السنن الإلهية بأنها: "النواميس التي تحكم الكون وفطرة البشر، وتصرف حياة الناس وأحداث الحياة، وتحدد مواضع النصر ومواضع الهزيمة وعدالة الموازين التي تقدر بها أعمال الخلق، ويقوّم بها نشاطهم في هذه الأرض، ويلقون على أساسها الجزاء في

---

[١] في ظلال القرآن، م١/ ٤٧٨.
[٢] المصدر نفسه، م ٣/ ١١٨٨.
[٣] المصدر نفسه، م ٣/ ١٧٥٩.
[٤] المصدر نفسه، ٥/ ٢٩٤٣.

الدنيا والآخرة"[(١)].

ث- الشيخ أحمد مصطفى المراغي.

إن من الذين اهتموا بعلم السنن الإلهية العلامة أحمد بن مصطفى المراغي (ت: ١٣٧١هـ/ ١٩٤٥م) في تفسيره القيم "تفسير المراغي"، وهو من التفاسير السننية الغنية بالحديث عن السنن الإلهية والقوانين الربانية من خلال الآيات القرآنية. يقول -رحمه الله-: "إذا كان الشرع والعقل حاكمين بأن للإنسان كسبًا اختياريًّا كلفه الله العمل به وأنه يجازى على عمله إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وجب على الإنسان أن يسعى في تدبير أمور نفسه بحسب ما وضعه الله في نظام الأسباب وارتباطها بالمسببات، وأن هذا الارتباط لم يكن إلا بتسخير الله تعالى وأن ما يناله باستعمالها فهو فضل من الله الذي سخرها وجعلها أسبابًا وعلّمه ذلك، وأن ما لا يعرف له سبب يطلب به، فالمؤمن يتوكل على الله وحده وإليه يتوجه فيما يطلبه منه.

أما ترك الأسباب وتنكب سنن الله في الخلق فهو جهل بالله وجهل بدينه وجهل بسننه التي لا تتبدل ولا تتحول"[(٢)].

ويفسر قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق: ٣]: "إذ من شروط التوكل الصحيح القيام بالأحكام الشرعية ومراعاة السنن الكونية والاجتماعية، فمن يترك العمل بالأسباب فهو الجاهل المغرور لا المتوكل المأجور، كيف وقد قال النبي ﷺ لمن سأله أيترك ناقته سائبة ويتوكل على الله؟ فقال: «اعقلها وتوكل» (رواه الترمذي)، وقال تعالى مخاطبا رسوله بعد أن أمره بمشورة أصحابه في غزوة أحد: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[آل عمران: ١٥٩]، وإنما يكون العزم بعد الأخذ بالأسباب فقد لبس من يومئذ درعين وأعدّ العدة لقتال أعدائه، ورتب الجيوش بحسب القوانين المعروفة في ذلك العصر"[(٣)].

---

(١) المصدر نفسه، م٥/ ٢٧٥٥.

(٢) تفسير المراغي، ٩/ ١٦٥.

(٣) المصدر نفسه، ٩/ ٦-٧.

ومن خلال ما سبق يتضح لنا فقه المراغي العميق ووعيه بسنن الله تعالى التي بثها في الكون والحياة، وتفسيره لآيات القرآن الكريم تفسيرًا سننيًا هدائيًا.

ج- الإمام الطاهر بن عاشور.

ومن المهتمين بالفقه السنني الإمام الطاهر بن عاشور -رحمه الله-، في تفسير القيم (التحرير والتنوير)، الذي يعد من أعظم التفاسير في الاهتمام بالمعرفة السننية، يقول في تفسيره قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ (الأنبياء: ١٦) "المقصود من ذلك إيقاظ العقول إلى الاستدلال بما في خلق السماوات والأرض وما بينهما من دقائق المناسبات وإعطاء كل مخلوق ما به قوامه، فإذا كانت تلك سنة الله في خلق العوالم ظرفها ومظروفها، استدل بذلك على أن تلك السنة لا تتخلف في ترتب المسببات على أسبابها فيما يأتيه جنس المكلفين من الأعمال، فإذا ما لاح لهم تخلف سبب عن سببه أيقنوا أنه تخلف مؤقت فإذا علمهم الله على لسان شرائعه بأنه ادخر الجزاء الكامل على الأعمال إلى يوم آخر آمنوا به، وإذا علمهم أنهم لا يفوتون ذلك بالموت بل إن لهم حياة آخرة وأن الله باعثهم بعد الموت أيقنوا بها، وإذا علمهم أنه ربما عجل لهم بعض الجزاء في الحياة الدنيا أيقنوا به، ولذلك كثر تعقيب ذكر نظام خلق السماوات والأرض بذكر الجزاء الآجل والبعث وإهلاك بعض الأمم الظالمة، أو تعقيب ذكر البعث والجزاء الآجل والعاجل بذكر نظام خلق السماوات والأرض"[1].

ح- العلامة محمد أبو زهرة.

ثم إن من المهتمين بعلم السنن الإلهية: العلامة محمد أبو زهرة -رحمه الله- في تفسيره "زهرة التفاسير" الذي يحوي إفادات كثيرة، ووقفات معتبرة عند آيات السنن، واستنباطات سننية سديدة. قال في تفسيره لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٧): "(خلت) معناها مضت وثبتت

[1] التحرير والتنوير، ١٧/ ٣١.

وتقررت، والسنن جمع سنة، وهي تطلق بمعنى الطريق المسلوك المعبد، وتطلق بمعنى المثال الذي يتبع، ولقد قيل إنها من قولهم سن الماء إذا صبه صبًّا متواليًّا فشبهت العرب به الطريقة المستقيمة المتبعة المستمرة، والمعنى أنه قد مضت وتقررت من قبلكم سنن ثابتة ونظم محكمة فيما قدره الله سبحانه وتعالى من نصر وهزيمة، وعزة وذلة، وعقاب في الدنيا وثواب فيها، فالحق يصارع الباطل، وينتصر أحدهما على الآخر بما سنَّه سبحانه من سنة في النصر والهزيمة، من طاعة للقائد، وإحكام في التدبير، وقوة إيمان، واستعداد للفداء، وهكذا، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩)﴾(الرعد).

وإن من سنن الله تعالى الثابتة ألا يمكن من الظلم وأن ينتصر أهل الحق إذا عملوا على نصرته، وتضافروا على إقامته ولم ينحرفوا عن طاعته، وأن أهل الباطل قد ينتصرون إن اتحدوا واستعدوا، فينالون الظفر لتخاذل أهل الحق وانقسامهم، أو إرادتهم عرض الدنيا أو عدم الصبر على طاعة القائد العظيم كما كان الشأن في أحد.

وإن من سنن الله تعالى أن يجعل العاقبة للصابرين الصادقين، فإن أَمْلى للكافرين سنة فإنه سيأخذهم من بعد أخذ عزيز مقتدر، وينصر عليهم أهل الحق، وإنما قدر الله تعالى نصرتهم الوقتية على أهل الحق ليصقل أهل الإيمان، وليهديهم هداية عملية إلى طريق الانتصار، وليميز من بينهم ضعيف الإيمان، ويظهر نفاق أهل النفاق، وبذلك تتبين الصفوة المختارة التي يعتمد عليها، ويذهب الذين مردوا على النفاق بنفاقهم، فلا ينخدع بهم أحد، ولا يرجفون بكيدهم في الجماعة، ولقد بين سبحانه لأهل الإيمان عاقبة المكذبين تثبيتا لقلوبهم، وتأييدًا لهم فقال جل من قائل: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

أي إنه إذا كانت سنة الله تعالى في خلقه أو العاقبة دائما للمتقين، فسيروا في الأرض، فانظروا الحال التي قد انتهى بها الكاذبون. والتعبير بلفظ (كيف) الدال على الاستفهام يقصد به التصوير وتوضيح الحال في صورة تدعو إلى العجب وتثير الاستغراب؛ أي إن عاقبتهم

التي انتهوا إليها من تدمير ديارهم، وتعفية آثارهم بعد أن طغوا وبغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد، تثير العجب والدهشة لمن ضعف إيمانه، وتلقي بالطمأنينة والصبر والرضا لمن قوى إيمانه، وفي هذه الآية وأمثالها من الآيات التي تدعو إلى السير في الأرض والبحث لمعرفة أحوال السابقين دعوة إلى أمرين؛ أحدهما - دراسة تاريخ الأمم بشكل عام، فإن التاريخ كتاب العبر، وسفر المعتبر، وهو رباط الإنسانية التي يربط حاضرها بماضيها"[1].

خ-العلامة محمد المكي الناصري.

وسار على درب السابقين العلامة محمد المكي الناصري -رحمه الله- في تفسيره "التيسير في أحاديث التفسير"، الذي تميز بالشرح والتفصيل، والعرض الجيد للسنن الإلهية. وهذا أنموذج لتفسيره لآية من آيات القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ "إشارة إلى سنة الله التي خلت من قبل في الأمم والشعوب عندما ترتكس في أوحال الضلال، وتصر على السير في طريق الخبال، فإن الله يسلط عليها أسباب الإبادة والهلاك، وعلى مدنها وقراها عوامل الخراب والاضمحلال، وبين كتاب الله أن هناك قانونًا ثابتًا لا يتخلف لارتقاء الأمم وسقوطها، وسعادتها وشقائها، وعزها وذلها، فقال تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾، ومعنى ذلك أن الله جعل لكل أمة عمرًا كأعمار الأفراد، وأجلاً لحياتها كأجل العباد"[2].

د- العلامة محمد متولي الشعراوي.

ثم لحق بهم الشيخ محمد متولي الشعراوي-رحمه الله- في تفسيره النفيس "الخواطر" الشهير بتفسير الشعراوي، تناول النص القرآني بأسلوب شيق وجذاب، منبهًا على سنن الله تعالى في الكثير من الآيات القرآنية، وهذا مثال تفسيره لقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ

---

[1] زهرة التفاسير، ٣/ ١٤١٨-١٤١٩.

[2] التيسير في أحاديث التفسير، ٣/ ٢٨٢.

وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: ٦٢)؛ حيث قال: "سنة متبعة ومتواترة، وهل رأيتم في موكب الرسالات رسولاً أرسله الله، ثم خذله أو تخلى عنه، وانتهى أمره بنصر أعدائه عليه؟، والسنة: هي الطريقة الفِطْرية الطبيعية المتواترة التي لا تتخلَّف أبدًا، فالأمر إذا حدث مرة أو مرتين لا يسمى سُنة. فالسنة إذن لها رتابة واستدامة، فالمراد بالسنة هنا غَلَبة الحق على الباطل ﴿فِي الذين خَلَوْاْ ... ﴾ يعني: الذين مَضَوْا من الأمم السابقة، وما زالتْ سنة الله في نصر الحق قائمة، وستظل إلى قيام الساعة؛ لأنها سنة، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً﴾: نعم لا تتبدل ولا تتغير؛ لأنها سنة مَنْ؟ سنة الله، والله سبحانه ليس له نظير، وليس له شريك يُبدل عليه، أو يستدرك على حكمه بشيء"(١).

ذ-العلامة وهبة الزحيلي.

ويضاف إلى أولئك الجلة العلامة وهبة بن مصطفى الزحيلي-رحمه الله- الذي له اهتمام بارز بعلم السنن الإلهية، ويتضح هذا جليًّا في تفسيره النفيس الموسوم بـ" التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج": يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]: "هذا إخبار عن سنة أخرى من سنن الله في عباده، وتلك السنة أنه لو آمن أهل القرى كأهل مكة وغيرهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، واتقوا ما نهى الله عنه وحرمه من الشرك والفساد في الأرض بارتكاب الفواحش والآثام، لأنزل عليهم الخيرات الكثيرة من السماء كالمطر، وأخرج لهم خير الأرض من نبات ومعادن وكنوز، وآتاهم من العلوم والمعارف والإلهامات الربّانية لفهم سنن الكون"(٢).

ويقول في تفسير قوله تعالى: "﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي

(١) تفسير الشعراوي، ١٩/ ١٢١٧٩.

(٢) التفسير المنير، ٩/ ١٨.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦]: إن في ذلك كله لآيات ودلائل دالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته وحكمته، وعظمته، وكمال علمه، لقوم يتقون مخالفة سنن الله في التكوين، وسننه في التشريع، فسنة الكون الحفاظ على الصحة، من خالفها مرض، وسنة الحياة الاستقامة، من أفسدها وخالفها، أساء لنفسه، وكل من لم يتق عقاب الله وسخطه وعذابه بارتكاب المعاصي ومخالفة السنن، عوقب على ذلك في الدنيا والآخرة"[1].

كما يفسر قوله جل وعلا: "﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[المدثر: ٣١]، لا يراد به خلاف لظاهره أن الإضلال والهداية أمران مبتدآن من الله عز وجل، ولا أنه تعالى يجبر فريقًا على الضلالة، وفريقًا على الهدى، وإنما المراد به تقرير سنة من سنن الله سبحانه في عباده، وهي ربط الأسباب التي خلقها بالمسببات، فمن ضل فإنما يضل بنفسه واختياره، ومن اهتدى فإنما يهتدي بنفسه وإرادته واختياره، ثم يزيد الله الضالين ضلالاً، فيبعدهم عن معالم الهداية؛ لسوء اختيارهم واستعدادهم وعنادهم، ويزيد المؤمنين إيمانًا بتوفيقهم إلى سبل الهداية والرشاد، لحسن اختيارهم، ولا يقع شيء في الكون قهرا عن الله تعالى، وإنما بإرادته ومشيئته، وإن كان مخالفًا لمأموره ومحبوبه"[2].

٤- مصنفات معاصرة في الفكر السنني.

هذه جملة من المصنفات المعاصرة التي اهتمت بعلم السنن الإلهية، إما في جانبه التطبيقي، وإما في جانبه النظري:

١ - أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين والمنحرفين، لمحدث العصر الشيخ العلامة عبد الله التليدي، دار البشائر الإسلامية بلبنان.

٢ - أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، أحمد كنعان، دار النفائس ببيروت.

[1] المصدر نفسه، ١١/ ١١٢.

[2] المصدر نفسه، ٢٩/ ٢٣٩.

٣ – أصول العلوم الإنسانية من القرآن الكريم (كشف موضوعي) السنن الإلهية في الآفاق والأنفس والأمم، للدكتورة زينب عطية محمد، دار الوفاء.

٤ – حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، للمفكر الإسلامي عماد الدين خليل، دار ابن كثير.

٥ – حول التفسير الإسلامي للتاريخ، للمفكر الإسلامي محمد قطب، دار الشروق بمصر.

٦ – الحقيقة الجوهرية في مشكلة الأكثرية والأقلية دراسة في التفسير الموضوعي، للدكتور أحمد رحماني، مكتبة وهبة، مصر.

٧ – السنن الإلهية ضوابط العلوم والمعارف، للأستاذ محمد بن معمر جابري، مؤسسة الندوي بوجدة-المغرب، (وهي سلسلة نافعة وماتعة ومفيدة، حيث وسع فيها مجال السنن الإلهية لتشمل كل العلوم الشرعية والاجتماعية والسياسية والمستقبلية، انطلاقًا من آيات القرآن الكريم).

٨ – السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، الدكتور عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة ببيروت.

٩ – السنن الإلهية في رحاب القرآن الكريم، للأستاذ الدكتور مصطفى الشكعة، الناشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.

١٠ – السنن الإلهية في السيرة النبوية، للدكتور رشيد كهوس، دار السلام، مصر.

١١ – السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم: أصول وضوابط" للأستاذ الدكتور مجدي محمد محمد عاشور. الناشر: دار السلام بمصر.

١٢ – السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، للأستاذ دكتور شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب.

١٣ – السنن الإلهية في الخلق، عبد الحميد محمود طهماز، دار القلم، بدمشق.

١٤ – السنن الاجتماعية في القرآن الكريم (دراسة تأصيلية تطبيقية على الأمم المسلمة والكافرة) (١/ ٣)، للأستاذ الدكتور محمد أمحزون، دار طيبة بالرياض.

١٥ – السنن التاريخية في القرآن الكريم (ضمن كتاب المدرسة القرآنية)، للشيخ محمد باقر الصدر، دار التعارف للمطبوعات بلبنان.

١٦ - سلسلة "سنن الله في النفس والمجتمع"، للمفكر الإسلامي جودت سعيد، وهي سلسلة نفيسة عالج فيها المؤلف مشكلة عدم إدراك المسلمين أن ما حل بأرضهم من مشكلات ونوازل إنما يقع وفق سنن الله تعالى الثابتة والمطردة.

١٧ - سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة، للأستاذ الدكتور حسين شرفه، مؤسسة الرسالة ببيروت.

١٨ - سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، للشيخ محمد الصادق عرجون، الناشر: الدار السعودية.

١٩ - سنن العمران البشري في السيرة النبوية، رسالة دكتوراه للباحث المغربي عبد العزيز البطيوي، نوقشت بجامعة ابن زهر بأغادير في: ٢٣ دجنبر ٢٠١٢م.

٢٠ - سنة الله، للشيخ عبد السلام ياسين، مطبعة الخليج العربي -تطوان.

٢١ - سنة الله في اليهود ومستقبل الأمة الموعود، للدكتور رشيد كهوس، دار الحكمة بمصر.

٢٢ - سنة الله في جهاد رسول الله ﷺ (نحو قراءة جديدة للسيرة النبوية)، للدكتور رشيد كهوس، دار الحكمة بمصر.

٢٣ - سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير، للدكتور أحمد حسن فرحات، دار عمار.

٢٤ - سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم، للأستاذ الدكتور حسن بن صالح الحميد، دار الهدي النبوي بمصر ودار الفضيلة بالرياض.

٢٥ - سنن الله في الحضارة الإنسانية (مقاربة جديدة عن دور الأنبياء والأمم المختارة في الحضارات)، للدكتور أحمد سريرات، دار السلام، مصر.

٢٦ - السنن التاريخية في القرآن المجيد، للأستاذ إياد الركابي، دار النهضة الإسلامية ببيروت.

٢٧ - السنن الربانية في التصور الإسلامي، للأستاذ الدكتور راشد شهبون، الناشر: الأكاديميون للنشر والتوزيع.

٢٨ - سنن الطبيعة والمجتمع في القرآن الكريم دراسة تأصيلية تطبيقية، للدكتور بكار محمود الحاج جاسم، دار النوادر.

٢٩ – سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، محمد هيشور، الناشر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

٣٠ – ظاهرة المحنة محاولة لدراسة سننية، للمفكر الإسلامي خالص جلبي، دار البشير بعمان.

٣١ – فقه السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري، للأستاذ عادل بن بوزيد عيساوي، منشورات إدارة البحوث والدراسات الإسلامية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقطر.

٣٢ – فلسفة التاريخ (نحو تفسير إسلامي للسنن الكونية والنواميس الاجتماعية)، للمفكر الإسلامي عبد الحليم عويس، دار الصحوة بمصر.

٣٣ – علم السنن الإلهية: الإعجاز القرآن في الكون والخلق والعلم، للدكتور محمد الصادق بوعلاق، دار البحار ودار مكتبة الهلال/ ببيروت.

٣٤ – على مشارف القرن الخامس عشر الهجري (دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر)، للمفكر إبراهيم بن علي الوزير، دار الشروق بمصر.

٣٥ – مبدأ السببية في الفكر الإسلامي في العصر الحديث دراسة تأصيلية مقارنة، للدكتور محمود محمد عيد نفيسة، دار النوادر/ سورية–لبنان.

٣٦ – معلمة السنن الإلهية في القرآن الكريم، –الكتاب الأول– (مجموعة من الباحثين)، منشورات مجموعة البحث في السنن الإلهية في القرآن والسنة والتاريخ بكلية أصول الدين بتطوان–المغرب، دار الكلمة، مصر.

٣٧ – مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي: السيد محمد رشيد رضا أنموذجًا، للأستاذ حازم زكريا محي الدين، دار النوادر، ببيروت.

٣٨ – مفهوم السنن الربانية، للأستاذ الدكتور رمضان خميس زكي، الناشر: مكتبة الشروق الدولية.

٣٩ – مستقبل الأمة المسلمة في ضوء سنة الله في خلقه، للدكتور رشيد كهوس، دار الحكمة بمصر.

٤٠ – مقال في السنن الإلهية الكونية والاجتماعية، محمد عمارة، دار السلام، مصر.

٤١ - من سنن الله في عباده، للشيخ محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر سورية.

٤٢ - المنهج الإصلاحي للإمام محمد عبده، للمفكر الإسلامي محمد عمارة، خصص فيه فصلاً مستقلاً بعنوان: "علم السنن والقوانين الاجتماعية"، دار السلام، مصر.

٤٣ - المنهج السنني أفق حضاري متجدد، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي، بيروت-عمان.

٤٤ - منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، للمفكر الجزائري الدكتور الطيب برغوث، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

٤٥ - النظام الإلهي للرقي والانحطاط، للشيخ محمد تقي الأمين، ترجمة: الدكتور مقتدى حسن الأزهري، مراجعة الدكتور عبد الحليم عويس.

أضف إلى كل ما سبق مؤلفات المفكر الإسلامي الجزائري مالك بن نبي (ت: ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، الذي أبدع في سنن النهضة وفلسفة الحضارة، ولفت الأنظار إلى قضية السنن في عديد من كتبه التي وضعها تحت عنوان: "مشكلات الحضارة"، ومنها: "شروط النهضة"، و"مشكلة الأفكار"، و"مشكلة الثقافة"، و"ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية"...

ومؤلفات الدكتور عبد الحليم عويس. والعديد من الرسائل والأطاريح الجامعية التي اشتغلت بموضوعات متفرقة من علم السنن الإلهية، وكذلك البحوث والمقالات العلمية في مختلف المجلات العلمية.

المبحث الثامن

منهج القرآن والسنة في عرض السنن الإلهية

المطلب الأول: منهج القرآن الكريم في تقرير السنن الإلهية.

لقد عني القرآن الكريم ببيان السنن الإلهية واستعمل في ذلك صيغًا مختلفة وأساليب متنوعة وطرائق عرض فريدة ومميزة نجمل أهمها فيما يلي:

أولاً- أسلوب القرآن وصيغه في بيان السنن الإلهية.

هذه نماذج بارزة من الأساليب والصيغ التي عرض القرآن السنن الإلهية من خلالها:

١ - الصيغة الصريحة.

الصيغة الصريحة هي ورود لفظة (سنة) وما اشتق منها في سياق الحديث عن نتائج متعلقة بسلوك الناس أو قبل تقرير حكم أو بعده، نحو قوله تبارك وتعالى في سنته في الهداية لسنن السابقين: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(النساء: ٢٦)، وقوله عز من قائل في سنة الجزاء من جنس العمل: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا﴾(فاطر: ٤٣)، وقوله عز وجل في سنته في المكذبين على مدار التاريخ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(الأنعام: ١١)، وقوله تقدست كلماته في المشركين المنكرين لدعوة الحق المتصدين للرسل:﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾(الأنفال: ٣٨)، وقوله جل جلاله في سنته في هزيمة المشركين المستكبرين الذين يصدون عن سبيل الله ويؤذون رسل الله -عليهم السلام-في بضع سنين: ﴿وَإِنْ كَادُوا

لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾(الإسراء: ٧٦-٧٧).

٢- الألفاظ الكونية.

إن من أساليب القرآن الكريم في الكشف عن السنن الإلهية، عرضها بألفاظ وصيغ كونية عامة "تتعلق بربوبيته وخلقه، وهو قضاؤه وقدره وفعله، ولا خروج لأحد عن حكمه الكوني القدري وأما حكمه الديني الشرعي فيعصيه الفجار والفساق"[(١)]، والألفاظ الكونية هي: (الحكم، والإرادة، والكتابة، والأمر، والكلمات، والتحريم، والإيتاء، والجعل...).

وهذه أمثلة لتلك الألفاظ الكونية:

أ- الحكم الكوني: في قوله تبارك وتعالى في سنة النصر: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ١١٢) "؛ أي احكم بيني وبين هؤلاء المكذبين وانصرني عليهم"[(٢)].

ب- الإرادة الكونية: قال تعالى في سنته في التوبة: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٢٧).

ت- الكتابة: قال الله تبارك وتعال في بيان سنته في الاستخلاف في الأرض: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥)، وقال سبحانه في سنته في النصرة والغلبة: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (المجادلة: ٢١)؛ أي: "حكم الله وقضى في سابق علمه الأزلي أن الله ورسله هم الغالبون... قدر محكم وأمر مبرم أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة"[(٣)].

---

(١) التفسير المنير، ١٧/ ١٤٧.

(٢) شفاء العليل، ٢٨٠.

(٣) التفسير المنير، ٢٨/ ٥٨.

ث- **الأمر الكوني**: قال جل ثناؤه في سنته في عقاب الأمم وإهلاكها: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)﴾(هود).

ج- **كلمات الله**: قال الله عز وجل في سنته في الكافرين: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (غافر: ٦) ". والمعنى: وكما وجب العذاب على الأمم المكذبة لرسلهم، وجب على الذين كفروا بك يا محمد، وجادلوك بالباطل، وتحزبوا عليك، فالسبب واحد والعلة واحدة، وذلك العذاب هو استحقاقهم النار"[١].

وقال عز وجل في سنته في النصر: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾(الصافات)؛ أي: "ولقد سبق وعدنا أن العاقبة للرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة، فننصرهم على أعدائهم بقهرهم والنيل منهم، بقتلهم أو تشريدهم أو إجلائهم عن الأوطان أو أسرهم أو نحو ذلك"[٢].

ح- التحريم: قال جل وعلا في سنته في الحساب والجزاء في الآخرة: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٥)؛ "لأنه قد يخطر للذهن أن هلاكها في الدنيا كان نهاية أمرها، ونهاية حسابها وجزائها. فهو يؤكد رجعتها إلى الله، وينفي عدم الرجعة نفيًا قاطعًا في صورة التحريم لوقوعه.. وهو تعبير فيه شيء من الغرابة، مما جعل المفسرين يؤولونه فيقدرون أن «لا» زائدة، وأن المعنى هي نفي رجعة القرى إلى الحياة في الدنيا بعد إهلاكها أو نفي رجوعهم عن غيهم إلى قيام الساعة، وكلاهما تأويل لا داعي له، وتفسير النص على ظاهره أولى"[٣].

---

[١] نفسه، ٢٤/ ٧٦.
[٢] تفسير المراغي، ٢٣/ ٩١.
[٣] في ظلال القرآن، ٤/ ٢٣٩٨.

قال العلامة محمد أبو زهرة: "والحرام هنا ما حرمه الله تعالى على نفسه، وهو تأكيد لرجوع الناس جميعًا إليه سبحانه وتعالى؛ أي حرَّم الله تعالى على نفسه ألا يرجع الذين هلكوا، والمعنى: أوجب اللهُّ تعالى على نفسه أنهم إليه راجعون"[١].

خ- الإيتاء: قال عز من قائل في سنته في الحكمة: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ٢٦٩). قال الإمام أبو زهرة –رحمه الله-: "بعد أن بيَّن سبحانه وتعالى نوازع الشر في نفس الإنسان وإلهام الله له بالخير، وأن الشيطان يعد بالفقر ويحرِّض على الفحشاء والبخل، وأن الله يعد بالمغفرة والفضل، بعد ذلك بيَّن أن الحكمة في أن يجيب داعي الله، وأن هذه الحكمة إنما هي من الله سبحانه وتعالى وأن من نالها فقد أعطاه الله خيرًا كثيرًا.

وأصل الحكمة مأخوذ من حكَم بمعنى منع، وهي في الإنسانية صفة نفسية هي أساس المعرفة الصحيحة التي تصيب الحق، وتوجه الإنسان نحو عمل الخير، وتمنعه من عمل الشر، فهي فيه مانعة ضابطة حاكمة للنفس مسيرة لها نحو الكمال...

فالحكمة إذن في حقيقتها تتضمن معاني العلم الصائب والإيمان بالحق والإذعان له وطلبه، والعمل على وفق ما علم، وإرشاد الناس إلى المنهاج المستقيم"[٢]، وقال جل جلاله في سنته في مداولة الأيام بين الناس: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ٢٦).

د- الجعل: نحو قول الله عز اسمه في سنته في الخلق: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الرعد: ٣)، وقوله عز سلطانه في سنة الاستخلاف: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي

[١] زهرة التفاسير، ٩/ ٤٩١٥.
[٢] المصدر نفسه، ٢/ ١٠٠٩-١٠١٠.

الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ١٤)، وقوله جلت عظمته في سنته في إهلاك الظالمين: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ (الأنبياء: ١٥)، وقوله تقدست كلماته في سنته في خلق الإنسان: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (فاطر: ١١)، وقوله تعالى وتقدس في سنته في الأرزاق: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (الحجر: ١٩-٢١).

٣- استفسارات استنكارية.

نحو قوله جل ثناؤه في سنته في الهداية والضلال: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ (الزمر: ١١٩)، وقوله تبارك وتعالى في سنته في الأجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ (الإسراء: ٩٩)، وقال جل في علاه في سنته في الإهلاك: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (القصص: ٧٨).

٤- ورود فعل الله ﷻ مع تعليله.(١)

يمكن لنا كذلك استخراج سنن الله واستنباطها من خلال سياق الآيات التي ورد فيها

(١) قال الشيخ محمد مصطفى شلبي -رحمه الله-: وبالوقوف على حقيقته -التعليل- تتجلى مدارك الأئمة، ويظهر بهاء الشريعة، ويسهل دفع شبه الطاعنين عليها بالجمود، وعدم مسايرتها للزمن، ومنه يبتدئ طريق الإصلاح، وعلى ضوئه يسير المصلحون، وبسبب التكلف فيه وقف الجامدون، والتعليل في اصطلاح أهل المناظرة: علل الشيء: بيَّن علته وأثبته بالدليل، والتعليل تبيين علة الشيء، ويطبق عندهم أيضًا على ما يستدل به بالعلة على المعلول"، تعليل الأحكام، ٥-١٢ بتصرف.
"والعلة هي الوصف الظاهر المنضبط المعرف للحكم؛ أي يوجد الحكم عند وجودها وينعدم عند عدمها، وهي قد تكون منصوصة أو مجمعا عليها أو مستنبطة بإحدى المسالك الأخرى أو مدركة بمجرد فهم اللغة". المصطلح الأصولي ومشكلة المفاهيم، علي جمعة، ٦٤.

فعل الله مع تعليله وخاصة فيما يتعلق بنظام الحياة، وأخذ العبر والدروس من قصص الغابرين:

أ - أن يذكر الله ﷻ فعله معللا إياه بحرف من حروف التعليل.[١]

حرف (الباء): نحو قوله تبارك وتعالى في سنة النعم وتغييرها: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾(النحل: ١١٢)، وقوله سبحانه في سنته في المكذبين على مر الأزمان: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾(غافر: ٢١)، وقوله جل وعلا في سنته في المنافقين: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾(النساء: من الآية ٨٨)، وقوله سبحانه وتعالى في سنته في المشاقين لله ولرسوله في كل أرض وفي كل وقت: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(الأنفال: ١٣).

حرف (اللام) : نحو قوله تبارك وتعالى في سنة التعارف بين الناس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات: ١٣)، وقوله جل شأنه في سنة الإملاء: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾(آل عمران: ١٧٨)، وقوله تقدست كلماته في سنة الفتنة: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾(طه: ١٣٢)، وقوله عز سلطانه في سنته في الاعتزاز بغير الله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾(مريم: ٨٢)، وقوله عز وجل في سنته في تداول الأيام واستبدال

---

[١] حروف التعليل: كي، واللام، وإذن، ومَن، ومِنْ، والباء، والفاء، وإنَّ، وإذْ. انظر: البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي، ٧/ ٢٣٧؛ والإحكام في أصول الأحكام، للآمدي، ٣/ ٣١٨.

الأقوام: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾(آل عمران: ١٤٠)، وقوله تبارك وتعالى في سنة التبشير و الإنذار: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾(مريم: ٩٦)، وقوله تبارك وتعالى في سنة الإنذار والإعذار: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(النساء: ١٦٥).

حرف (إِنَّ): نحو قول الله عز وجل في سنته في الذين يكتمون الحق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾(البقرة: ١٥٩)، وقوله سبحانه وتعالى في سنته في الإهلاك: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾(الدخان: ٣٧).

حرف (الفاء): نحو قوله جلت حكمته في سنة العقاب الدنيوي: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾(هود: ١١٣)، وقوله سبحانه في سنته في تكذيب المرسلين: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾(القمر: ٩).

حرف (إِذْ): نحو قوله تقدس وتعالى في سنة صراع الحق والباطل: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾(الأنفال: ٧).

حرف (كي): نحو قوله سبحانه وتعالى في تحقيق وعده بحفظ وإرجاع كليمه موسى عليه السلام إلى أمه[1]: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(القصص: ١٣).

---

[1] وهي سنة من سنن الله في نصر رسله؛ فكما رد الله تبارك وتعالى سيدنا موسى عليه السلام إلى أمه كي تقر عينها، رد الله حبيبه المصطفى سيدنا محمدا ﷺ إلى أم القرى مكة المكرمة كي تقر عينه عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

حرف (مِنْ): نحو قوله تبارك وتعالى في سنته في هلاك الأمم:﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَارًا﴾(نوح: ٢٥).

ب – أن يرد في القرآن فعلان يفرق بينهما بالحكم بذكر الصفة، ويكون التفريق بينهما بلفظة الاستدراك (لكن)[١]:

نحو قوله تبارك وتعالى في سنة الاختلاف والمختلفين:﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آَمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾(البقرة: من الآية ٢٥٣)، وقوله عز من قائل في سنة الهداية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾(البقرة: من الآية ٢٧٢)، وقوله عز وجل في سنة الاصطفاء: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(إبراهيم: ١١)، وقوله جل ذكره في سنته في هلاك الأمم: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(العنكبوت: ٤٠)، وقوله تبارك وتعالى في سننه في الدعوات:﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآَيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾(الأنعام: ٣٣).

٥- ورود فعل الله ﷻ في سياق الجملة الشرطية.[٢]

أ- تعليل عدم الجزاء بوجود المانع: فإذا وُجد الفعل امتنع الجزاء؛ نحو قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ

---

[١] هذا يندرج في المسلك الثالث من مسالك العلة (التنبيه والإيماء)؛ بحيث يذكر الشارع أمرين ويفرق بينهما بالحكم بذكر الصفة؛ ويكون التفريق بوسائل مختلفة، والذي يهمنا هنا التفريق بينهما بلفظة الاستدراك (لكن). انظر مثلا المسلك الثالث من مسالك العلة في كتاب: الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي، ٣/ ٣٢٦.

[٢] ويدخل في المسلك الثالث من مسائل العلة؛ أي الإيماء والتنبيه. انظر مثلا: الجامع لأحكام وأصول الفقه، ٣٣٢-٣٣٣.

عَظِيمٌ﴾(النور: ١٤)، وقوله سبحانه وتعالى في سنة الأجل: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(العنكبوت: ٥٣)، وقوله تعالى وتقدس في سنته في اليهود: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾(الحشر: ٣).

ب-تعليل ترتب الجزاء على وقوع الفعل: ترتب فعل الله ﷻ على الوصف بصيغة الشرط والجزاء: أي: يقع الجزاء إذا وقع الفعل: نحو قوله تبارك وتعالى في سنته في الهداية والضلال: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(البقرة: ٣٨)، وقوله عز اسمه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة: ٢٥٦)، وقوله عز وجل: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾(الأنعام: ١٠٤)، وقوله تبارك وتعالى في سنة الانتساب: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾(المائدة: ٥١)، وقوله جل في علاه في سنته في الأرزاق: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(الأعراف: ٩٦)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾(الطلاق: ٢-٣)، وقوله عز سلطانه في وعده في الإفساد اليهودي الأول؛ الذي تحقق في عهد النبي ﷺ وأصحابه ﵃: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾(الإسراء: ٥)، وقوله تبارك وتعالى في سنته التي تسوق بني إسرائيل إلى ﴿وعد الآخرة﴾ -وهو الإفساد اليهودي الأخير-؛ ليتم استئصالهم وقطع دابرهم بمقتضى سنة الله في قطع دابر المفسدين المستكبرين في الأرض: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ[١] لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ الإسراء: ٦-٧)، وقوله جل وعلا في سنة الجزاء من جنس العمل: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ النساء: ١٢٣)، وقوله جلت عظمته وتقدست كلماته في سنة الاستبدال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ المائدة: ٥٤)، وقوله عز من قائل: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ التوبة: ٣٩)، وقوله جل جلاله في سننه في الذنوب والمعاصي: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا[٢] فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ آل عمران: ١٥٢)، وقوله تعالى وتقدس في سننه في المكذبين: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا[٣] جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ الأنعام: ٣١)، وقوله جل وعلا في سننه في النصر بعد الاستيئاس: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ[٤] نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ يوسف: ١١٠)، وقول الله عز اسمه في سنة الإمهال والإهلاك: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ[٥] لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا

---

[١] ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾: هذه جملة شرطية معطوفة على الأولى ﴿فإذا جاء وعد أولاهما...﴾، وجواب جملة الشرط هذه –الثانية– محذوف تقديره: بعثنا عليكم عبادًا.

[٢] "إذا": ظرفية متعلقة بجوابها المقدر: انقسمتم. والجملة الشرطية مستأنفة.

[٣] "إذا": ظرفية شرطية متعلقة بـ"قالوا".

[٤] وجملة "جاءهم" جواب الشرط.

[٥] وجملة ﴿فلْيَمْدُد﴾ جواب الشرط الأولى.

السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ[١] مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾(مريم: ٧٥).

٦- ورود فعل الله ﷻ مرتبا على صفة.[٢]

فيفهم السامع أن هذا الفعل يدور مع تلك الصفة أينما وجدت؛ نحو قوله تبارك وتعالى في سنة الإملاء: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾(الحج: ٤٨)، وقوله عز من قائل في سنة الإهلاك: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾(القصص: من الآية ٥٨).

٧- ورود فعل الله ﷻ أو امتناعه منوطا بغاية.

نحو قوله تبارك وتعالى في سنة العقاب الدنيوي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾(الأعراف: ٤٠)، وقوله تقدس وتعالى في سنة التمييز: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(آل عمران: ١٧٩)، وقوله تبارك وتعالى في سنة التغيير: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد: من الآية ١١).

٨- ترتب الجزاء من الله ﷻ أو امتناعه منوطا بحال.[٣]

نحو قوله تبارك وتعالى في سنة الوحي إلى رسله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(الشورى:

---

[١] وجملة ﴿فسيعلمون﴾ جواب الشرط الثانية.

[٢] وغالبا يكون صدر هذه الجمل بـ(كم) الخبرية التي تدل على التكرار، و(كأين) بمعنى كم الخبرية.

[٣] وغالبًا ما يكون صدر الجمل في هذا الباب بالنفي أو بالكون المنفي (لم يكن، ما كنا، ما كان)؛ أي مجيء مشتقات فعل الكون مع (ما) أو (لم)، وقد تأتي بعدها لام الجحود وهي أبلغ، وقد لا تأتي.

٥١)، وقوله عز من قائل في سنته في الكافرين:﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾(النساء: ١٣٧)، وقوله عز سلطانه في سنته في هلاك الأمم:﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾(الحجر: ٤).

٩ - الأمر بالشيء مع بيان ما فيه من مصالح.

في مواضع يأمر الله ﷻ بالشيء مبينا ما فيه من مصالح، نحو قوله تبارك وتعالى في سنة الإعداد: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾(الأنفال: ٦٠)، وقوله تبارك وتعالى في سنة التحرز من الشيطان: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(فاطر: ٦)؛ فهي عداوة عامة قديمة لا تكاد تزول بمقتضى سنة الله المطردة.

١٠ - النهي عن شيء مع بيان عواقبه السيئة.

نحو قوله تبارك وتعالى في سنته في الذين يتبعون السبل:﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(الأنعام: ١٥٣).

١١ - ورود لفظة (كذلك) بمعنى (مثل ذلك) في سياق فعل الله ﷻ أو قصة قرآنية.

نحو قوله تبارك وتعالى في سنته في القوم المجرمين: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾(يونس: ١٣)، وقوله عز وجل في سنته في إخماد الباطل وإزهاقه وقطع دابر أهله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾(الأحقاف: ٢٥)، والآية في سياق الحديث عن عاد قوم هود عليه السلام وما حل بهم من الهلاك والاستئصال لما كذبوا الرسل وأنكروا رسالة نبي الله هود عليه السلام.

١٢ - وعود مطلقة على صفات مخصوصة.

نحو قول الله تعالى في سنة الاستخلاف والتمكين: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(النور: ٥٥).

هذه أهم أساليب القرآن الكريم وصيغه في بيان السنن الإلهية والكشف عنها.

ثانيًا: سياقات عرض السنن الإلهية.

ما ذكرناه سابقًا من نماذج كان على وجه التفصيل، أما على وجه الإجمال فيمكننا استخراج السنن من القصص القرآني[1] الذي يشغل مساحة واسعة من القرآن الكريم - تقارب ثلث القرآن، ومن الأمثال القرآنية كذلك، والآيات التي ورد فيها ربط الأسباب بالمسببات والنتائج بالمقدمات، وفي سياق تقرير الأحكام والتشريعات.

١ - القصص القرآني.

إن إلحاح القرآن الكريم على الأمر بالسير في الأرض، لا لمجرد التسلي والوقوف على مصارع الأقوام الغابرة، والنظر في عاقبة المكذبين على مدار التاريخ، ولكن للاعتبار، وتجنب أسباب الهلاك التي وقعوا فيها، واكتشاف سنن الله التي لا تتعطل ولا تنخرم في التاريخ حتى لا تسقط الأمة فيما سقطوا فيه وتحصدها عجلة السنن.

فالتاريخ يعيد نفسه، وتظهر فيه سنن الله جلية لاحبة. ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا

[1] والقصص في القرآن الكريم على أنواع ثلاثة: ١- قصص الأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام. ٢-قصص الأمم والأحداث الغابرة. ٣- قصص السيرة النبوية.

كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (التوبة: ٧٠). فأحداث التاريخ تتكرر، وسنة الله ثابتة مطردة على مدار التاريخ.

هذا وقد سعى القصص القرآني "لكشف تفاعل السنن الإلهية في واقع الناس لاستخلاص العبر والعظات بأن لا شيء يخرج عن عهوده الربانية والتي هي كلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر"[١].

يقول الشيخ محمد رشيد رضا-رحمه الله-: "فثلاثة أرباع القرآن تقريبا قصص، وتوجيه للأنظار إلى الاعتبار بأحوال الأمم، في كفرهم وإيمانهم، وشقاوتهم وسعادتهم، ولا شيء يهدي الإنسان كالمثلات والوقائع. فإذا امتثلنا الأمر والإرشاد، ونظرنا في أحوال الأمم السالفة، وأسباب علمهم وجهلهم، وقوتهم وضعفهم، وعزهم وذلهم، وغير ذلك مما يعرض للأمم – كان لهذا النظر أثر في نفوسنا يحملنا على حسن الأسوة والاقتداء بأخبار تلك الأمم فيما كان سبب السعادة والتمكن في الأرض، واجتناب ما كان سبب الشقاوة أو الهلاك والدمار"[٢].

ويقول الشيخ أحمد المراغي-رحمه الله-:"إن في قصص القرآن لأشعة من ضياء العلم والهدى جاءت على لسان كهل أمي لم يكن منشئا ولا راوية ولا حافظًا، ويمكن أن نحمل أغراضها فيما يلي:

١ – بيان أصول الدين المشتركة بين جميع الأنبياء من الإيمان بالله وتوحيده وعلمه وحكمته وعدله ورحمته والإيمان بالبعث والجزاء.

٢ – بيان أن وظيفة الرسل تبليغ وحي الله لعباده فحسب، ولا يملكون وراء ذلك نفعًا ولا ضرًا.

٣ – بيان سنن الله في استعداد الإنسان النفسي والعقلي لكل من الإيمان والكفر والخير والشر.

٤ – بيان سنن الله في الاجتماع وطباع البشر وما في خلقه للعالم من الحكمة.

---

[١] منهاج الفتوى على ضوء السنن الإلهية، ٩٨.

[٢] تفسير المنار، ١/ ٥٦.

٥ – آيات الله وحججه على خلقه في تأييد رسله.

٦– نصائح الأنبياء ومواعظهم الخاصة بكل قوم بحسب حالهم كقوم نوح في غوايتهم وغرورهم، وقوم فرعون وملئه في ثروتهم وعتوهم، وقوم عاد في قوتهم وبطشهم، وقوم لوط في فحشهم"[١].

لكن يا ترى لماذا القصص القرآني عبرة؟ إن العبرة من العبور، وكأن الواحد منا عندما يقف أمام قصص السابقين في القرآن يعبر إلى الماضين، كأنه يتخلص من قيد الزمان والمكان، ويتحرر من أسْر الواقع، ويستعلي على النظر القاصر القصير، وينطلق إلى عوالم فسيحة من تاريخ الأقدمين، وقصص السابقين فيعايشهم ويراقبهم ويتعظ بهم؛ إنها نماذج بشرية مكررة تقدمها لنا قصص السابقين في القرآن: نماذج المؤمنين ونماذج الكافرين، نماذج الضعفاء الأذلاء، ونماذج الرجال الصادقين الأقوياء، وإنها قيم دائمة توحي لنا بها قصص السابقين: قيم الحق وقيم الباطل، قيم الفضيلة وقيم الرذيلة؛ إنها المعركة المستمرة بين الحق والباطل، وإن التاريخ يعيد الكثير من ميادين هذه المعركة وأساليبها وصورها ومجالاتها، ولا يختلف فيها إلا الأشخاص، كم يقدم لنا قصص القرآن من دروس ودلالات وعبر، ومن قيم وحقائق وسنن، ومن زاد وعدة وسلاح، ومن طمأنينة وثقة وسعادة وثبات.

إن قصص القرآن كنزٌ لا ينفد، ومَعين لا ينضب في دروسه ودلالاته وعِبَره، في الإيمان والعقيدة، وفي العمل والدعوة، وفي الجهاد والمواجهة، وفي المنطق والأسلوب، وفي الصبر والثبات، وفي الموازين والحقائق[٢]. ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(يوسف: ١١١).

---

[١] تفسير المراغي، ١٢/ ١٤.

[٢] مع قصص السابقين في القرآن، ٣٠.

هذا علاوة على أن أفضل الفوائد والفرائد وأهم الدروس و العبر في القصص القرآني هو تنبيه الناس على سنن الله -تعالى- في نشوء المجتمعات واندثارها، وتأثير أعمال الخير والشر فيها، ومطالعة أمر الله في أحوال الكافرين وسنته المطردة التي -لا تتعطل- فيهم:﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾(الرعد: ٣١).

فمن قصص السابقين -غير الأنبياء- قصة قبيلة (سبأ) التي أنشأت حضارة قوية في اليمن، لكنها أعرضت عن الله وكفرت بأنعمه وطغت طغيانًا كبيرًا ؛ فحصدتها عجلة التاريخ، وكان ما حدث لها سنة إلهية مطردة لا تتعطل ولا تتوقف، تحكم البشرية في كل زمان ومكان. فكل من أعرض عن الله، وطغى وتجبر وعاث في الأرض فسادًا حل به عقاب الله وانتقامه وحصدته سنة الهلاك والدمار. قال الحق جل ثناؤه في القصة المذكورة: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾(سبأ: ١٥-١٧)."سبأ قبيلة معروفة في أداني اليمن، ومسكنهم بلدة يقال لها "مأرب"، ومن نعم اللهّ ولطفه بالناس عمومًا، وبالعرب خصوصًا أنه قص في القرآن أخبار المهلكين والمعاقبين، ممن كان يجاور العرب، ويشاهد آثاره، ويتناقل الناس أخباره ؛ ليكون ذلك أدعى إلى التصديق، وأقرب للموعظة فقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ أي: محلهم الذي يسكنون فيه ﴿آيَةٌ﴾ والآية هنا: ما أدرَّ اللهّ عليهم من النعم، وصرف عنهم من النقم، الذي يقتضي ذلك منهم، أن يعبدوا اللهّ ويشكروه، ثم فسر الآية بقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ وكان لهم واد عظيم تأتيه سيول كثيرة، وكانوا بنوا سدا محكما يكون مجمعا للماء، فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هناك ماء عظيم فيفرقونه على بساتينهم التي عن يمين ذلك الوادي وشماله، وتُغِلُّ لهم تلك الجنتان العظيمتان من الثمار ما يكفيهم، ويحصل لهم به الغبطة والسرور، فأمرهم اللهّ بشكر نعمه التي أدرَّها عليهم من وجوه كثيرة، منها: هاتان الجنتان اللتان غالب أقواتهم منهما.

ومنها: أن اللهّ جعل بلدهم بلدة طيبة، لحسن هوائها، وقلة وخمها، وحصول الرزق الرغد فيها، (...) ﴿وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بكفرهم باللهّ وبنعمته، فعاقبهم اللهّ تعالى بهذه النعمة التي أطغتهم، فأبادها عليهم، وأرسل عليها سيل العرم، أي: السيل المتوعر الذي خرب سدهم، وأتلف جناتهم، وخرب بساتينهم، فتبدلت تلك الجنات ذات الحدائق المعجبة، والأشجار المثمرة، وصار بدلها أشجار لا نفع فيها، ولهذا قال: ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ﴾؛ أي: شيء قليل من الأكل الذي لا يقع منهم موقعًا ﴿خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾، وهذا كله شجر معروف مر أو شائك، لا نفع فيه، وهو مجازاة من جنس عملهم، فكما بدلوا الشكر الحسن بالكفر القبيح بدلوا تلك النعمة بما ذكر ؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ﴾؛ أي: وهل نجازي جزاء العقوبة - بدليل السياق - إلا من كفر باللهّ وبطر النعمة؟

فلما أصابهم ما أصابهم تفرقوا وتمزقوا بعدما كانوا مجتمعين، وجعلهم اللهّ أحاديث يتحدث بهم، وأسمارا للناس، وكان يضرب بهم المثل فيقال: "تفرقوا أيدي سبأ" فكل أحد يتحدث بما جرى لهم، ولكن لا ينتفع بالعبرة فيهم"[١].

ومن قصص الأنبياء السابقين قصة سيدنا نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام. قال الحق جل ذكره: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٦-٧٧)، وهذه سنة إلهية دائمة في نصر رسل الله وأنبيائه عليهم السلام.

٢ - الأمثال القرآنية.

الأمثال القرآنية المقصودة هنا تلك التي جاء بعدها إلحاح على الاعتبار بها واستنباط الدروس منها أو تلك التي جاءت في سياق القصص القرآني.

---

[١] تفسير السعدي، ٦٧٧-٦٧٨.

والأمثال في القرآن الكريم لم تذكر عبثا، وإنما ذكرت لاستقراء ما وراءها من عبر غوالٍ، ودروس بالغة، وسنن إلهية ثابتة، ينكشف بها اللبس، وتتبين العثرات، حتى يدرك الناس ما ينفعهم، فيسعوا لتحصيله، ويدركوا ما يضرهم فيجتنبوه. قال الحق جل وعلا في بيان الحكمة من ضرب الأمثال: ﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (إبراهيم: ٢٥)، وقال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الزمر: ٢٧)، وقال جل جلاله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: ٢١).

ولذلك فإن للأمثال القرآنية شأنا عظيما في تزكية النفوس والرقي بها نحو المعالي، فمن الأمثال -مثلا- التي تتضح فيها سنن الله جلية واضحة قوله تبارك وتعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (النحل: ١١٢-١١٣). وفي المثل سنة مطردة وهي سنة الله في النعم وتغييرها.

٣- الآيات التي ورد فيها ربط النتائج بالمقدمات.

نحو قوله تبارك وتعالى في سنته في تيسير المخرج للمؤمنين: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الأنفال:٢٩)، وقوله عز وجل في سنة النصر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: ٧).

إذن، فسنة الله ترتيب الأسباب على المسببات والنتائج على المقدمات، وترتيب المرحلة على المرحلة، والمعلولات على العلة، وتغيير النعم على تغيير ما بأنفس الناس، والنصر في ساحة الوغى على إعداد القوة المستطاعة المعنوية والمادية.

هذا، وما خفي أعظم، وأبعاد سنن الله المطردة لا متناهية. قال الدكتور محمد رشاد خليل: "وسنن الله كثيرة لا تقع تحت حصر، منها ما نعرفه ومنها ما نجهله وقد نعرفه بعد

البحث، ومنها ما لا يحيط بعلمه إلا الله (...) ذلك أن السنن ليس ما نعرفه فقط وإنما ما لا نعرفه أيضًا، وما لا نعرفه أكثر كثيرًا مما نعرفه"[1]، ولا ننسى ما ورد في السنة النبوية المطهرة من سنن إلهية مطردة، نجدها متفرقة ومتناثرة في أسفار كتب الحديث.

٤- عرض السنن الإلهية في سياق الأحكام التكليفية.

وأعني الأحكام التكليفية: الإيجاب والتحريم والكراهة والإباحة، ونحوها.

والأحكام التكليفية إنما شرعت لإسعاد المكلفين الممتثلين لها في معاشهم ومعادهم، وتنظيم شؤونهم ومعاملاتهم، ومن خالفها عوقب بأنواع العقوبات الشرعية والكونية. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[الكهف: ٤٩].

ومن هنا فإن القرآن الكريم من خلال هذه الأحكام التكليفية يعرض للنتائج الحسنة المترتبة على المقدمات الحسنة، المتمثلة في الالتزام بتلك الأحكام والامتثال لها، كما يعرض النتائج السيئة لمن خالفها أو أعرض عنها، بحيث لا يكاد يذكر شيئا من هذه الأحكام إلا مصحوبا بالأثر (الجزاء) المترتب عليه، فعلاً أو تركًا.

ومن الأمثلة على ذلك قوله تبارك وتعالى في سنة الله في الربا والمرابين: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦)﴾[سورة البقرة]، وقوله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)﴾ [سورة البقرة].

---

[1] دفاع عن التاريخ الإسلامي، ١٠٥-١٠٦.

ومن أمثلة ذلك سنة الله تعالى في الزواج أن يكون شرعيا محققا لمقاصده النبيلة وحكمه الجليلة عبر الميثاق الغليظ والعقد المقدس الزواج، وفطر الله تعالى الرغبة الجنسية في الأبدان لكونها الوسيلة الطبيعية للإنجاب المشروع، وألهم سبحانه وتعالى مخلوقاته سبل التناكح وحببه إليهم وزينه، وأكد عدم الشذوذ والانحراف، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾(الإسراء: ٣٢). فكان الزواج الشرعي هو الطريق الوحيد لتلك المقاصد السامية، ولكن الإنسان تمرد على هذه الفطرة السليمة والشريعة القويمة، فسلك غير سبيل الحق، وأتى البيوت من غير أبوابها، فكانت النتيجة أن تحقق فيه قول رسول الله ﷺ: «وَلَا فَشَا الزِّنَا فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا كَثُرَ فِيهِمُ الْمَوْتُ»[1].

ومما تجدر إليه الإشارة هنا أن القرآن الكريم وإن عني بعرض السنن في سياق تقرير الأحكام التكليفية فإن ذلك قد يخفى على بعض الناس؛ حيث لا يذكرها بصورة صريحة وإنما تنبيها وإيماء، بخلاف عرضه لها في سياق القصص القرآني والأمثال والتشبيهات.. لذا تحتاج المسألة هنا إلى تدبر وتتبع واستقراء، فأنت مثلا عندما تقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، قد لا ينقدح في ذهنك أنك أمام رافد من روافد الهداية وسبب من أسبابها التي أمضى الله سنته في خلقه أنها لا تحصل إلا من هذا الطريق وأمثاله.

المطلب الثاني: منهج الحديث النبوي في بيان السنن الإلهية.

إن السنن الإلهية هي القوانين التي تحكم الحياة الكونية والحياة الإنسانية، وهي برهان على قدرة الله تعالى وإرادته وحكمته، تمضي بلا استثناء، وتجري قوانينها على الخلائق أجمعين، ولذلك أولاها النبي ﷺ عناية فائقة، واهتم بها اهتماما بالغا، وبينها وحث أمته على الأخذ بها

---

[1] موطأ مالك بن أنس، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، ٣/ ٦٥٤.

وتسخيرها والعمل بمقتضياتها.

وباستقراء نصوص الحديث النبوي نجد أن السنن الإلهية تحتل مساحة واسعة فيها، وقد كان منهج الحديث في بيانها؛ إما مصرحًا بذكرها، وإما شارحًا أسبابها ونتائجها، وإما ضاربًا الأمثال والتشبيهات للكشف عنها، أو مذكرا بقصص السابقين وما آل إليه أمرهم سلبًا أو إيجابًا وفق أخذهم بالسنن أو تنكبهم عنها أو في سياق تقرير الأحكام والتشريعات أو أثناء الحديث عن فتن آخر الزمان...

ويمكن تفصيل هذا فيما يأتي:

١ - بيان السنن الإلهية عن طريق قصص السابقين.

إن التاريخ البشري يعيد نفسه، والأحداث التاريخية تتكرر وتتشابه؛ لأن التاريخ يتحرك وفق سنن إلهية ثابتة ومطردة، وهو المرآة التي تعكس جريان سنن الله تعالى على البشرية جمعاء؛ ولهذا عني النبي ﷺ عناية بالغة بلفت الأنظار وتنبيه العقول إلى قصص السابقين، وجاء في سنته الغراء نماذج كثيرة منها، حتى يتبين للناس عاقبة النصر والسعادة في الدنيا والآخرة للمؤمنين برسلهم وأنبيائهم، وعاقبة الهلاك والبوار للمنكرين المكذبين برسالة السماء.

ومن أمثلة قصص السابقين التي عرضتها السنة النبوية ما يلي:

١ - عَنْ صُهَيْبٍ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ، قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ، إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ، فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا، فَقَالَ:

اللهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ، وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمِنْشَارِ، فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ

ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ»[1]، وهذا الحديث النبوي الشريف يكشف عن سنة إلهية مطردة، ألا وهي سنة الابتلاء عامة، وابتلاء المؤمنين بالمحنة على أيدي الكافرين خاصة، وما يتعرض له أهل الحق من أنواع التعذيب والاضطهاد والمحن والآلام في كل زمان ومكان.

٢ – عن خباب ﷺ قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً، وَهُوَ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلاَ تَدْعُو اللهَ؟ فَقَعَدَ وَهُوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ، فَقَالَ: «لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الحَدِيدِ، مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، مَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ»، زَادَ بَيَانٌ: «وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ»[2]، هكذا ينبه النبي ﷺ أصحابه ﷺ -لما اشتد بهم الابتلاء والمحنة- إلى سنة الله في ابتلاء المؤمنين المستميتين في الصبر على دين الحق والثبات على طريق الهدى، ويخبرهم بما لاقاه المؤمنون من الأمم السابقة من ابتلاء شديد ليفتنوا عن دينه ويصدوا عنه، فصبروا تحملاً واحتسابًا، حتى يمكن الله لدينه، وينشر نوره في ربوع الأرض كلها.

---

[1] صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام، ح٣٠٠٥.

[2] صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، بَابُ مَا لَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ، ح٣٦٣٩.

٣ - قَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ البَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتِ الأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ، فَوَافَتْ صَلاَةَ الصُّبْحِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا صَلَّى بِهِمُ الفَجْرَ انْصَرَفَ، فَتَعَرَّضُوا لَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ رَآهُمْ وَقَالَ: «أَظُنُّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدْ جَاءَ بِشَيْءٍ؟»، قَالُوا: أَجَلْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللهِ لاَ الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[١].

"إن التنافس في الدنيا وجمع مالها وحب الاستئثار به من أسباب الهلاك؛ لأن ذلك يؤدي إلى إضمار الأضغان والأحقاد، وتربية داء الحسد ثم العداوة ثم المجاهرة والمدابرة، وفي ذلك هلاك للمجتمع"[٢]، وهكذا يبين النبي ﷺ سنة الله في هلاك الأمم، ويحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها؛ لأن ذلك يستوجب عقاب الله تعالى.

٢- عرض السنن الإلهية من خلال الأمثال النبوية.

إن للأمثال أهمية كبيرة لتقريب المراد، وتفهيم المعنى، وإيصاله إلى ذهن السامع، وإحضاره في نفسه بصورة المثال الذي مثل به، فإنه قد يكون أقرب إلى تعقله وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره؛ فإن النفس تأنس بالنظائر والأشباه الأنس التام، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير؛ ففي الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمر لا يجحده أحد، ولا ينكره، وكلما ظهرت لها الأمثال ازداد المعنى ظهورا ووضوحا، فالأمثال شواهد المعنى المراد، ومزكية له[٣]، وقد وردت أحاديث كثيرة دالة على ضرب الأمثال للاعتبار والاتعاظ وقياس الشيء بنظيره.

---

[١] صحيح البخاري، كتاب الجزية، بَابُ الجِزْيَةِ وَالمُوَادَعَةِ مَعَ أَهْلِ الحَرْبِ، ح٢٩٨٨. صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، ح٢٩٦١.

[٢] أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين، عبد الله التليدي، ٦٤.

[٣] إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، ١/ ١٨٢-١٨٣.

ومن ذلك ما رواه النُّعْمَانُ بن بَشِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا»[١].

إنه تصوير نبوي محكم للمجتمع الذي يتعاون أهله على البر والتقوى، والذي يتعاون على الإثم والعدوان، تصوير دقيق لسنن الله تعالى في الأجسام والمجتمعات، فإذا كانت السفينة يحكمها قانون الطفو فإن المجتمع يحكمه قانون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر > يقول الدكتور شريف الخطيب: "وإنما تعم سنة التغيير في المجتمع كله؛ حتى ولو كان ما بالنفوس من فريق دون فريق، وإنما يكون ذلك بسبب تهاون الفريق الآخر وتقصيره في الأخذ على أيدي تلك الفئة التي غيرت ما بأنفسها، أو بسبب رضاهم وسكوتهم عما فعلوا"[٢].

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[٣]، وعَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ»[٤].

إنه لبيان من أوتي جوامع الكلم ﷺ لسنة الله في الوحدة والأخوة والائتلاف، والدعوة إلى التعاون والتحاب والتعاطف بين المسلمين ونبذ الفرقة بينهم، عز المسلمين في وحدتهم

[١] صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، ح٢٣٦١.

[٢] السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، ٢/ ١٢.

[٣] صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ح٢٥٨٦.

[٤] صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، ح٦٨٥٤؛ صحيح مسلم، كتاب الفضائل، بَابُ شَفَقَتِهِ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ وَمُبَالَغَتِهِ فِي تَحْذِيرِهِمْ مِمَّا يَضُرُّهُمْ، ح٢٢٨٣.

واعتصامهم بحبل الله المتين، وذلهم وفشلهم وذهاب قوتهم في تخاذلهم وتشتتهم واختلاف قلوبهم، وسنة الله لا تحابي أحدًا.

وعَن أَبِي مُوسَى ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمِ، إِنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ، فَالنَّجَاءَ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَدْلَجُوا، فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهَلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الحَقِّ»[١].

شبه ﷺ نفسه بالرجل وإنذاره بالعذاب القريب بإنذار الرجل قومه بالجيش المصبح، وشبه من أطاعه من أمته ومن عصاه بمن كذب الرجل في إنذاره ومن صدقه[٢]، فسار من صدقوه في الصباح فنجوا من أعدائهم ومن الهلاك الذي يهددهم به الجيش، وبقي مكانه من كذبه فصبحهم الجيش فأهلك حرثه ونسله، وخرب دياره، وهكذا من يتبع رسول الله ﷺ وهديه؛ فإنه يكون في مأمن من الخطر واستئصال الأعداء لهم فيعيشون في أمن ورخاء آمنين على أنفسهم وأموالهم وتكون لهم النجاة في الأخرى من عذاب النار، أما من عصاه وكذب بما جاءه من عند ربه فإنه يعيش حياة الضنك في الدنيا وحياة العذاب والشقاء في الآخرة.

وهكذا يقرر هذا الحديث النبوي الشريف سنة من سنن الله تعالى في الهدى والضلال، وتصديق الرسل وتكذيبهم.

٣- بيان السنن الإلهية من خلال الأحاديث التي ورد فيها ربط الأسباب بمسبباتها.

إن ربط الأسباب بمسبباتها والنتائج بمقدماتها، قانون عام وشامل لكل ما في الكون،

---

[١] صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، ح٤٦٧؛ صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ح٢٥٨٥.

[٢] فتح الباري، ١١/ ٣١٧.

ولكل ما يحصل للإنسان في المعاش والمعاد، "فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب والله خالق الأسباب والمسببات"[١]يقول الإمام ابن قيم الجوزية -رحمه الله-: "-إن الله سبحانه وتعالى- ربط الأسباب بمسبباتها شرعا وقدرا، وجعل الأسباب محل حكمته في أمره الديني والشرعي وأمره الكوني القدري، ومحل ملكه وتصرفه؛ فإنكار الأسباب والقوى والطبائع جحد للضروريات، وقدح في العقول والفطر، ومكابرة للحس، وجحد للشرع والجزاء، فقد جعل سبحانه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، والثواب والعقاب والحدود والكفارات والأوامر والنواهي والحل والحرمة ،كل ذلك مرتبطا بالأسباب قائما بها، بل العبد نفسه وصفاته وأفعاله سبب لما يصدر عنه، بل الموجودات كلها أسباب ومسببات، والشرع كله أسباب ومسببات، والمقادير أسباب ومسببات، والقدر جار عليها متصرف فيها؛ فالأسباب محل الشرع والقدر"[٢].

• والسنة النبوية مملوءة من إثبات الأسباب ومسبباتها، وهي طريقة من الطرائق التي تبين بها السنن الإلهية، ومن أمثلة ما رواه عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ -رضي الله عنهما-، قوله: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ، وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الْمُؤونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ، وَعَهْدَ رَسُولِهِ، إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ، إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»[٣].

---

[١] مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ٨/ ٧٠.

[٢] شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ١٨٨.

[٣] سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب العقوبات، ح٤٠١٩. قال الألباني: حديث حسن.

فهذه خمس خصال كل واحدة منها توجب نوعا أو أكثر من العذاب. فظهور الفاحشة يوجب الأوبئة والأمراض العامة والأوجاع التي لم تكن معروفة كالكوليرا والسل والسكتة القلبية والمعي الزائدة والفتق والسرطان، ومرض فقدان المناعة... وبالتالي كثرة الموت وغير ذلك من المصائب التي ابتلينا بها. والبخس في الكيل والميزان يتسبب عنه الجدب والقحط وارتفاع الأسعار وظهور الغلاء في الأغذية وغيرها، وتسلط الحكام على الناس بالجور والظلم وهضم حقوقهم. ومنع الزكاة ينشأ عنه تأخر الأمطار أو حبسها عنا نهائيا ولولا وجود الحيوانات العجماء بيننا لما مطرنا. ونقض عهود الله وعهود رسوله ﷺ التي كلفنا بها وأمرنا بالوفاء والالتزام بها يلزم منه جلب الأعداء إلينا وتسلطهم علينا واحتلالهم بلادنا واستعبادهم لنا ولأبنائنا واستثمارهم ما عندنا من منتوجات بلادنا وأخذهم ما لدينا من ثروة وأموال مع إفسادهم مجتمعنا وديننا وأخلاقنا وقيمنا...

أما الإعراض عن إقامة حدود الله تعالى فشأنه أعظم وأعظم، وحاله أدهى وأمر، وفتنته أشمل وأعم، ذلك بأنه يوجب تشتت شمل الأمة وتفردها وتشرذمها، وجلب الفتن المتنوعة بينها، وتسلط بعضهم على بعض بجميع أنواع التسلطات من خصام ونزاع ديني وسياسي، إلى مهاجمات ومقاتلات، إلى انتهاك الأعراض والمحرمات إلى غير ذلك[١].

وعَنْ مَيْمُونَةَ -رضي الله عنها زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «لَا تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَفْشُ فِيهِمْ وَلَدُ الزِّنَا، فَإِذَا فَشَا فِيهِمْ وَلَدُ الزِّنَا، فَيُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعِقَابٍ»[٢]، "هذا الحديث الشريف يدل دلالة واضحة على أن ظهور أولاد الزنا والبغاء من موجبات العذاب والهلاك، والعياذ بالله. ونحن اليوم نعيش في عصر قد انحرفت فيه كل أنظمة الحياة،لا من ناحية واحدة فحسب بل من جميع نواحيها الدينية والدنيوية والاجتماعية والفردية. وكل جيل طبعا إذا فسد مجتمعه وانحطت أخلاقه ظهر فيه أولاد الزنا

---

[١] أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين، ٧٤.

[٢] مسند أحمد بن حنبل، ٤٤/ ٤١٢.

وعم فيه الفجور وانتشر فيه أولاد البغاء، وهذا ما نلمسه في عصرنا الحاضر. فأولاد الزنا قد كثروا وعموا ... ولا شك أن مثل هذا يدل على انحلال عظيم من الدين وشر كبير عام في الأمة، فبالحري أن يكون من موجبات الهلاك والعذاب"[١].

وعن أَنَس بْن مَالِكٍ ﷺ، يَقُولُ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ، أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»[٢]، إنه إرشاد من النبي ﷺ لهذا الأعرابي أن التوكل على الله تعالى لا يعارض اتخاذ الأسباب، وأن التوكل الحقيقي هو في عقل الناقة وربطها، وفيه بيان وإثبات لسنة الأسباب.

٤- الكشف عن السنن الإلهية أثناء الحديث عن فتن آخر الزمان.

من طرائق السنة النبوية في الكشف عن السنن الإلهية عرضها في سياق أحاديث فتن آخر الزمان، ومن أمثلة ذلك: عَنْ ثَوْبَانَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا -أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا- حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[٣].

وهذه سنة من سنن الله تعالى في الخذلان، فما ذهب شيء من ملك المسلمين إلى أيدي الأجانب إلا بخذلان بعضهم لبعض ومساعدتهم للأعداء على أنفسهم، وتناحرهم

---

[١] أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين، ٧٥.

[٢] سنن الترمذي، أبواب المناقب، باب في فضل الشام واليمن، ح٢٥١٧. قال الألباني: حديث حسن.

[٣] صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، بَابُ هَلَاكِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، ح٢٨٨٩.

وتنازعهم وتمزق قلوبهم... والأدهى من ذلك والأمر ما يثيره أعداء الإسلام بين المسلمين من فتن هائجة، شغلتهم عن قضيتهم الكبرى والأساس قضية الإسلام ودعوة الإسلام؛ فانشغلوا عنها بالتنافس على الدنيا وطلب زخرفها وزينتها... بعد أن ضاع الميزان من بين أيديهم، فاستحرَّ القتل بهم، واستهانوا بدمائهم، وزاد ابتعادُهم عن دين الله، وزاد ابتلاء الله وعقابه، وسنة الله ماضية لا تتغير ولا تتخلف.

وعَنْ ثَوْبَانَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا»، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ»، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»[1]، وفي هذا الحديث النبوي الشريف تقرير لسنّة الله في الأسباب ومسبّباتها، فإنّ من أخذ بأسباب الوهن والضعف: ((حبّ الدنيا وكراهية الموت))، حصدته سنّة الله تعالى وأوكله الله إلى الدنيا، ويُلِيَ بالوهن والضعف، وفيه تحذير من الذنوب والمعاصي، وأنّها من أهمّ أسباب تسليط الكفّار على المسلمين، ونفاذ سنة الله في الذنوب والمعاصي، "فهذه صفة المسلمين اليوم، فهم مع كثرتهم ليس لهم من الإيمان الصحيح والدين المتين ما يؤهلهم للانتصار الكامل على عدوهم الصهيوني والصليبي والشيوعي"[2]، بل صاروا بين الأمم الكافرة كالقصعة بين الأكلة، تداعت عليهم الأمم من كل جانب، وسيطروا عليهم، وفقدوا سيادة العالم، وانتقلت هذه السيادة إلى الفرنجة (أوروبا وأمريكا ودول الشرق)، وما ظلمهم الله، ولكنها سنته في النهوض والسقوط والانحطاط والازدهار التي لا تحابي أحدًا ولا تتخلف عن موعدها.

---

[1] سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، ح٤٢٩٧. قال الألباني: صحيح.

[2] أسباب هلاك الأمم، ٤٨.

٥- بيان السنن من خلال ما يترتب على أفعال البشر السيئة من نتائج.

ومن الأحاديث النبوية المتعلقة بهذا ما يأتي:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»[١]، وكان الظالم في ظلمات يوم القيامة لأنه يكون فاقد النور الذي يسعى بين أيدي المؤمنين وبأيمانهم، فظلمه في الدنيا أكسبه في الآخرة ظلمة أو ظلمات حسب إقلاله منه أو إكثاره، والآخرة ليست إلا مظاهر للجزاء على الفعل الدنيوي إن نورا فنور وإن ظلمة فظلمة، أما الشح فهو أشد من البخل؛ لأن الشحيح يطمع فيما عند الناس ويمنع ما عنده، والبخيل يمنع ما عنده مما أوجب الله عليه من زكاة ونفقات، ومما ينبغي بذله فيما تقتضيه المروءة، والشح الذي يصب في نتائج السنن بحيث يكون قد (حملهم على أن سفكوا دماءهم) هو شح الأغنياء والأثرياء وشح خزينة الدولة.

ودلالة الحديث واضحة؛ حيث إن هذه الحالة هي التي أهلكت من كان قبلنا حملتهم على سفك دمائهم واستحلال محارمهم ومقاطعة أرحامهم وكثرة فجورهم، وهذه سلسلة من البلايا وجراثيم الفساد فأي خير سيبقى بعد هذه الدواهي؟ فلا شك أن الأمة التي تتصف بهاتين الصفتين الساقطتين المظلمتين -الظلم والشح- سيكون عاقبتها الهلاك ومآلها الخراب، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً ولا تغييرًا، وما أصيب به الأقدمون من الأمم قد ابتلينا به فهلكنا كما هلكوا، فكم من دم أريق في سبيل الشح وكم من فرج أبيح لأجله وكم من رحم هجرت من جرائه وكم من محرم استبيح في الحصول عليه والاستئثار به ولا يزال الأمر يستفحل ويعظم، وهذا نبينا صلوات الله وسلامه عليه ينصحنا ويحذرنا من هذا الجرثوم الخراب ويأمرنا باتقائه والتحفظ منه ومحاربته خوفا من أن يقضي على مجتمعنا جزاء وفاقا[٢].

---

[١] صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ح٢٥٧٩.

[٢] أسباب هلاك الأمم، ٦٦-٦٧.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ، وَإِنَّهَا سَتَكُونُ حَسْرَةً، وَنَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَنِعْمَتِ الْمُرْضِعَةُ، وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ»[١]، وهذا تقرير نبوي لأسباب الحسرة والندامة، فحب الإمارة وهي حب للدنيا، وإن استحلاها المرء فعواقبها وخيمة في الدنيا والآخرة؛ لأنها تؤدي إلى الاقتتال عليها، وضياع أمر المسلمين وثغورهم بسببها، وما وقع في تاريخ المسلمين من القتل بين الإخوة والأبناء والآباء ... لخير دليل على نتائج التنازع الكارثية عليها، الإمارة مسؤولية ضخمة وأمانة عظيمة؛ جعلها الشارع لحفظ الدين، وحراسة الدنيا، وتحقيق مصالح العباد في المعاش والمعاد، لا لتكون سبب الهزائم، وسفك الدماء، وشراء الضمائر، وخراب الدين والدنيا.

٦- تقرير السنن الإلهية عن طريق التوكيد في سياق القسم.

إن من بين أساليب السنة النبوية في عرض السنن الإلهية بيانها عن طريق التوكيد في سياق القسم، ومن أمثلة ذلك ما يأتي:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ»، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: اليَهُودَ، وَالنَّصَارَى قَالَ: «فَمَنْ»[٢]، "لتتبعن سنَن من قبلكُمْ اتبَاعا بشبر ملتبس بشبر وذراع ملتبس بِذِرَاع، وَهَذَا كِنَايَة عَن شدَّة الْمُوَافقَة لَهُم فِي المخالفات والمعاصي، لَا فِي الْكفْر... وَوجه التَّخْصِيص: بجحر الضَّب، لشدَّة ضيقه ورداءته، وَمَعَ ذَلِك فَإِنَّهُم لاقتفائهم آثَارهم واتباعهم طرائقهم لَو دخلُوا فِي مثل هَذَا الضّيق الرَّدِيء لوافقوهم"[٣].

---

[١] سنن النسائي، كتاب القضاء، باب الحرص على الإمارة، ح٥٨٩٧؛ مسند أحمد بن حنبل، ١٦/ ١٤٠. قال شاكر: إسناده صحيح.

[٢] صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، بَابُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ح٣٢٩٦؛ صحيح مسلم، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود، ح٢٦٦٩.

[٣] عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود الغيتابي العيني، ١٦/ ٤٣-٤٤.

إنه أسلوب السنة النبوية في التنبيه على أهمية السنن الاجتماعية وتأثيرها على المجتمع الإسلامي، وهنا يأتي أسلوبها في سياق التوكيد بالقسم (لتتبعن)؛ لتحذير المسلمين من اتباع السنن التاريخية للأمم المنحرفة السابقة ولاسيما اليهود والنصارى؛ لأن ذلك الاتباع الأعمى لا ينجم عنه إلا الضيق والضنك والفساد، والواقع المعاصر من أسطع البراهين على صحة ذلك، عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»[١]،فالسكوت عن المعاصي مع فشوها، والإعلان بها من موجبات العقاب والهلاك؛لأن السكوت عليها يُغري أصحابها بالتمادي فيها، واستفحال أمرها، وانتشارها بكثرة، وذلك قد يُعدي إلى كل طبقات المجتمع الإسلامي، فيصبح الناس كلهم منحلين من الأخلاق الكريمة، والآداب السامية الإسلامية... ولذلك؛ فإن الأخذ على أيدي المجرمين والمتهتكين والظالمين والمفسدين، والإنكار عليهم، من أسباب النجاة والصلاح، وانتشار الفضيلة والأخلاق الكريمة، وإهمال ذلك والإعراض عنه، يوجب العذاب، ويسد في وجوه المسلمين عدم استجابة دعواتهم، وهذا من أكبر المصائب[٢].

٧- عرض السنن الإلهية في سياق جملة الشرط والجزاء.

يتجلى عرض السنة النبوية للسنن الإلهية في سياق الجملة الشرطية، ومقدمات السلوك البشري ونتائجه أو ترتب الجزاء الإلهي على الفعل البشري أو امتناعه بسبب ذلك الفعل، في الأحاديث الآتية:

---

[١] سنن الترمذي، أبواب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ح٢١٦٩. قال أبو عيسى: حديث حسن.

[٢] انظر: أسباب هلاك الأمم، ٧٨-٧٩.

عن هُشَيم: وإني سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «ما مِن قومٍ يُعمَلُ فيهم بالمعاصي، ثم يَقدِرُونَ على أن يُغيِّروا ثم لا يُغيِّروا إلا يوشِكُ أن يعمَّهُمُ الله منه بعقاب»[١]، إنها سنة من سنن الله في تغيير النعم في المجتمعات إذا تقاعست عن مهمتها في الإصلاح والتغيير، وركنت إلى المفسدين ولم تضرب على أيديهم، ولم تغير المنكر مع القدرة على تغييره بأحد الوسائل الشرعية، فهو مداهنة مذمومة تستوجب العقوبة، قال الإمام النووي –رحمه الله–: "واعلم أن هذا الباب –أعني باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر– قد ضيع أكثره من أزمان متطاولة، ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جدًا، وهو باب عظيم به قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم، فينبغي لطالب الآخرة والساعي في تحصيل رضا الله عز وجل أن يعتني بهذا الباب؛ فإن نفعه عظيم لا سيما وقد ذهب معظمه ويخلص نيته ولا يهادن من ينكر عليه لارتفاع مرتبته"[٢]، ولذلك فإن من الأسباب التي تحل العذاب العاجل في الأمم فشو المنكرات وشيوعها، وذلك عندما تقصر الأمة في القيام بواجبها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال العلامة القاري –رحمه الله–: "إذا كان الذين لا يعملون المعاصي أكثر من الذين يعملونها، فلم يمنعوهم عنها، عمهم العذاب. وقال العزيزي: لأن من لم يعمل إذا كانوا أكثر ممن يعمل كانوا قادرين على تغيير المنكر غالبًا، فتركهم له رضًا به"[٣].

وعن عبد الله بن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا[٤] رأيتم أُمتي تَهَابُ الظالم أن تقول له: إنك أنت ظالم، فقد تُوُدِّعَ منهم»[٥]، والمعنى في هذا: "أنهم إذا خافوا على أنفسهم

---

[١] سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ح٤٣٣٨، (إسناده صحيح).
[٢] المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ٢/ ٢٤.
[٣] عون المعبود شرح سنن أبي داود، عون المعبود ١١/ ٣٢٩.
[٤] (إذا) هنا متضمنة معنى الشرط.
[٥] مسند أحمد بن حنبل، ٦/ ٨٦. (إسناده صحيح).

من هذا القول، فتركوه كانوا مما هو أشد منه، وأعظم من القول، والعمل أخوف، وكانوا إلى أن يدعوا جهاد المشركين خوفًا على أنفسهم، وأموالهم أقرب، وإذا صاروا كذلك فقد تودع منهم، واستوى وجودهم وعدمهم"[١]، إن الحديث النبوي الشريف يقرر سنة من سنن الله تعالى الاجتماعية؛ فحين يتعطل الإحساس بالمسؤولية الجماعية، ويقع التسليم بالمنكر، فحينئذ تكون الأمة في طريقها إلى تغيير نعم الله بها، وحلول نقمه وعقابه بمنازلها؛ لأن سنة الله تعالى لا تحابي أحدا، ولا تتعطل في أي حال.

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهَّ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللهُّ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»[٢].

والحديث يبين ثلاثة أسباب من أسباب العقاب الإلهي:

الأول: المعاملة بالغش والخديعة والخيانة وأنواع الخلابة والمكر والحيل، فقد عبر ﷺ عن كل ذلك بنوع واحد منها وهي العينة؛ لأنها من أقبح أنواع الحيل والخديعة، ونبه بها على كل ما ينافي النصيحة والعطفة بالرأفة ومعاملة المسلمين بالجميل وما يعود عليهم بالنفع الكامل، وقد أصبح المسلمون اليوم من أغرق الناس في الاتصاف بهذه الرذائل الساقطة.

الثاني: اتباع أذناب البقر والمراد بذلك لزوم الحراثة واستثمار الأرض والتشاغل بها عن الدين ومشاعره ومهماته والتوغل في الاكتساب والانقطاع إلى جمع الدنيا وحطامها، وعُبر باتباع أذناب البقر لأن المخاطبين وقته ﷺ كانوا أهل زراعة وحراثة وفلاحة، وإلا فكل أنواع الاكتساب داخلة في ذلك إذا شُغل بها المسلمون عن مهمات دينهم الفردية والاجتماعية.

الثالث: ترك الجهاد أي قتال أعداء الدين الذين استباحوا ثغور المسلمين، وانتهكوا حرماتهم،

---

[١] شعب الإيمان، البيهقي، ١٠/ ٤٥.

[٢] سنن أبي داود، باب في النهي عن العينة، ح٣٤٦٢. قال الألباني: صحيح.

واعتدوا على دينهم وحماهم وأنفسهم وأموالهم[١].

وعن النُّعْمَان بن بَشِيرٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ»[٢]، إن هذا الحديث النبوي الشريف يشير إلى جوهر قضية تربوية سلوكية، ألا وهي سنة الله في القلوب. فالسنن الإلهية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بفقه القلوب. فصلاح الإنسان بصلاح قلبه، وصلاح القلب أساس صلاح المجتمع، وفساده فساد للإنسان والمجتمع، قال سلطان العلماء العز بن عبد السلام: "مبدأ التكاليف كلها ومحلها أو مصدرها القلوب، وأول واجب يجب -بعد النظر- معرفة الله ومعرفة صفاته، وهي شرط في جميع عباداته وطاعاته، والطاعات كلها مشروعة لإصلاح القلوب والأجساد، ولنفع العباد في الآجل والمعاد إما بالتسبب وإما بالمباشرة، وصلاح الأجساد موقوف على صلاح القلوب، وفساد الأجساد موقوف على فساد القلوب.

ولذلك قال النبي ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»؛ أي إذا صلحت بالمعارف ومحاسن الأحوال والأعمال صلح الجسد كله بالطاعة والإذعان، وإذا فسدت بالجهالات ومساوئ الأحوال والأعمال فسد الجسد كله بالفسوق والعصيان.

وطاعة الأبدان بالأقوال والأعمال نافعة بجلبها لمصالح الدارين أو إحداهما، وبدرئها لمفاسد الدارين أو إحداهما، والأحوال ناشئة عن المعارف؛ والمقصود: ناشئة عن المعارف والأحوال، والأعمال والأقوال ناشئان عن القصود الناشئة عن المعارف والأحوال، وأحكام الله كلها مصالح لعباده، فطوبى لمن قبل نصح ربه، وتاب عن ذنبه"[٣].

---

[١] أسباب هلاك الأمم، ٩٥.

[٢] صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب فَضْلِ مَنِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، ح٥٢.

[٣] قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ١/ ١٩٧-١٩٨.

ويقول الإمام ابن قيم الجوزية -رحمه الله-: "ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود، الذي تصدر كلها عن أمره، ويستعملها فيما شاء، فكلها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله، قال النبي ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله». فهو ملكها، وهي المنفذة لما يأمرها به، القابلة لما كان يأتيها من هديته، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته. وهو المسؤول عنها كلها «لأن كل راع مسؤول عن رعيته»[1] كان الاهتمام بتصحيحه وتسديده أولى ما اعتمد عليه السالكون. والنظر في أمراضه وعلاجها أهم ما تنسك به الناسكون.

ولما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه، أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات عليه، وزين له من الأقوال والأعمال ما يصده عن الطريق، وأمده من أسباب الغي بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق، فلا نجاة من مصائده ومكائده إلا بدوام الاستعانة بالله تعالى، والتعريض لأسباب مرضاته، والتجاء القلب إليه، وإقباله عليه في حركاته وسكناته، والتحقق بذل العبودية الذي هو أولى ما تلبس به الإنسان ليحصل له الدخول في ضمان ﴿إِنّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]. فهذه الإضافة هي القاطعة بين العبد وبين الشياطين، وحصولها يسبب تحقيق مقام العبودية لرب العالمين. وإشعار القلب إخلاص العمل ودوام اليقين، فإذا أشرب القلب العبودية والإخلاص صار عند الله من المقربين، وشمله استثناء ﴿إِلاّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]"[2].

وخلاصة القول: هكذا اعتنت السنة النبوية بالسنن الإلهية عناية كبيرة، كما يتضح

[1] قال النبي ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ...». انظر الحديث بطوله في: صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، ح٨٥٣. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم، ح١٨٢٩.

[2] إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ١/ ٥-٦.

ذلك من عنايتها ببيانها، فأساليبها في عرضها للسنن متنوعة: إما بعرضها من خلال قصص الغابرين، وإما بالتنبيه إليها بالأمثال النبوية أو الحديث عنها في سياق ترتب المسببات على أسبابها أو في سياق ما يترتب على أفعال البشر السيئة من نتائج أو التوكيد في سياق القسم أو في سياق الجملة الشرطية أو من خلال ما تضمنته أحاديث فتن آخر الزمان من بيان لسنن الله تعالى الثابتة والمطردة.

هذه أهم أساليب السنة النبوية في عرض السنن الإلهية، وقفنا عليها من خلال استقرائنا لنصوصها، وتدبرنا لألفاظها.

المطلب الثالث: منهج استمداد السنن الإلهية من السيرة النبوية.

إن السيرة النبوية العطرة هي المجال العملي الذي تمثلت فيه السنن الإلهية، والساحة التطبيقية الناجحة لها، ولذلك تحتاج عملية استكشاف تلك السنن إلى منهجية منضبطة يمكن رسم معالمها الكبرى فيما يلي:

١ - استحضار مقاصد الشريعة في عملية الاستمداد.

يقول الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها؛ فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه، وعلى صدق رسوله أتم دلالة وأصدقها"[1].

وفي ضوء هذا النص فإن كل استمداد تنكب مقاصد الشريعة الإسلامية لا يعتمد عليه ولا يعول عليه، ومثال ذلك تفسير هذا الحديث النبوي الشريف على ظاهره، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ،

[1] إعلام الموقعين عن رب العالمين، ٣/ ١١.

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا أَسْفَلَ مِنَ الكَعْبَيْنِ مِنَ الإِزَارِ فَفِي النَّارِ»[(١)]؛ أي إن الموضع الذي يناله الثوب تحت الكعبين من الرجل فهو في النار وهو كناية عن دخول الجسم كله في النار.. فيكتفي بعض المتعلمين بتشديد الوعيد بمن تجاوز ثوبه كعبيه، دون مراعاة مقصد الشرع من ذلك النهي والتشديد في الإنكار الوارد في موضع آخر من صحيح الإمام البخاري -رحمه الله-: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاَءَ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ أَحَدَ شِقَّيْ ثَوْبِي يَسْتَرْخِي، إِلَّا أَنْ أَتَعَاهَدَ ذَلِكَ مِنْهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّكَ لَسْتَ تَصْنَعُ ذَلِكَ خُيَلاَءَ»[(٢)]، وغير هذا مما رواه البخاري ومسلم وغيرهما من النصوص، التي إذا ضمت إلى بعضها تَبَيَّن لمن اطلع عليها ما رجحه الحافظ ابن حجر-رحمه الله- وغيره: أن "هذا الإطلاق محمول على ما ورد من قبل (الخيلاء) فهو الذي ورد فيه الوعيد"[(٣)]، ولا يخفى ما لعملية الاستمداد بعيدًا عن مقاصد الشريعة وغاياتها من آثار سلبية؛ ذلك بأنّ الاستمداد الظاهري الحرفي سيكون هو السائد الطاغي، وهذا سيوقع الناس في الحرج ويضيّق عليهم، ولا يخفى تعارض هذا مع ما في الدين من رفع للحرج والمشقة والتيسير على الناس، وغاية المرام: إن مقصد الحركة الرسالية عبر التاريخ هو اكتشاف السنن الربانية وتسخيرها والعمل بمقتضياتها على أحسن وجه وأكمل صورة لبناء الفرد الصالح والمجتمع السليم والأمة الوسط.

٢- استقراء نصوص القرآن المتعلقة بالسيرة النبوية للوقوف على ما فيها من السنن الإلهية.

إن القرآن الكريم هو المصدر الأول والأساس والأصلي للسيرة النبوية العطرة، فهو يزخر بكثير من الآيات القرآنية التي تناولت السيرة النبوية وأحداثها؛ فقد جاء فيه الكثير من التفاصيل عن سيرة رسول الله ﷺ، فقد ذكر الله تعالى حال سيدنا رسول الله ﷺ منذ صغره كما في سورة الضحى، وذكر حاله بعد بدء نزول الوحي عليه حين ارتجف قلبه وذهب إلى زوجه أم المؤمنين

---

(١) صحيح البخاري، كتاب اللباس، بَابُ مَا أَسْفَلَ مِنَ الكَعْبَيْنِ فَهُوَ فِي النَّارِ، ح٥٤٥٠.
(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا»، ح٣٤٦٥.
(٣) انظر فتح الباري: ١٠/ ٢٥٧.

خديجة رضي الله عنها كما في سورة المزمل والمدثر، وذكر قصة زواجه من أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها بعد طلاقها من زوجها زيد بن حارثة ﷺ حِب رسول الله ﷺ كما في سورة الأحزاب، وذكر تكذيب كفار قريش للرسالة المحمدية في الكثير من آيات القرآن كسورة القمر والقلم والانشقاق وغيرها، وذكر ابتلاءه للمستضعفين بمكة...

كما اشتملت الكثير من سور القرآن الكريم على كثير من تفاصيل السيرة النبوية العطرة، كسورة النور التي تناولت حادث الإفك، وسورة الأحزاب -مثلا- التي تضمنت تعامله مع أزواجه وأصحابه كما تضمنت تفاصيل كثيرة عن غزوة الأحزاب، إضافة إلى سورة آل عمران التي تناولت تفاصيل غزوة أحد، وسورة الأنفال التي تحدثت عن أحداث غزوة بدر الكبرى، وسورة التوبة التي تناولت أحداث الهجرة وغزوة حنين وتبوك ومواقف الناس والمنافقين منها، وسورة الحشر التي تحدثت عن مواجهة النبي ﷺ ليهود بني النضير، وسورة الفتح التي تحدثت عن صلح الحديبية، وسورة الإسراء التي تحدثت عن حادثة الإسراء، وسورة القمر التي تحدثت عن المعراج... وغيرها من السور التي تناولت أحداث السيرة النبوية العطرة إما على وجه التفصيل وإما على وجه الإجمال والإشارة...

هذا إضافة إلى ذكر مجموعة من التشريعات التي عمل بمقتضاها سيد الوجود صلوات الله عليه في جوانب مختلفة: تربوية، وسياسية واقتصادية واجتماعية وعلمية وجهادية ودعوية..

والقرآن الكريم في عرضه للسيرة النبوية يركز على الدروس والعبر والسنن، ويتناولها في آيات موجزة كما عهدنا في بلاغته، ويطلعنا على الظروف التي مرت بها الدعوة الإسلامية منذ بدايتها بمكة المكرمة حتى مكن الله تعالى لها في مجتمع المدينة المنورة.

ولذلك فإن الكشف عن السنن الربانية المبثوثة في السيرة النبوية يستدعي جمع آيات القرآن الكريم المتعلقة بالسيرة الطاهرة، واستقراءها، مع الاستعانة بكتب التفسير في هذا الباب، ووضع تصور عام أو خريطة تشمل كل السنن الإلهية في السيرة النبوية، والتعريف بها

وبيان طبيعتها وأسبابها، ونتائجها، وأثر مراعاتها.. ثم بيان كيفية تنزيلها على أرض الواقع وتقييمه من خلالها، والاستفادة منها في تغيير الأنفس وإصلاح المجتمع...

ومن أمثلة السنن الإلهية المتعلقة بالسيرة النبوية الواردة في القرآن الكريم: سنة النصر في قوله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[آل عمران: ١٦٠]، وسنة التداول أو المداولة: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وسنة استبدال الأقوام: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]...

٣- استقراء نصوص الحديث المتعلقة بالسيرة النبوية لاستمداد السنن الإلهية منها.

الحديث النبوي هو المصدر الثاني للسيرة النبوية؛ حيث نقلت لنا بالأسانيد الصحيحة الكثير من أحداث السيرة المطهرة ومغازي رسول الله ﷺ، كما قامت بوصف حياته وأيامه وسيرته مع أصحابه وصفًا دقيقًا، إضافة إلى بيان كثير من الجوانب الدعوية والاجتماعية والتربوية والسياسية والاقتصادية...، وقبل عملية استقراء ما جاء في المصدر الثاني للسيرة النبوية، لابد من جمع الروايات المتعلقة بالسيرة النبوية ومعرفة المتقدم من المتأخر، والعام من الخاص، والألفاظ يفسر بعضها بعضًا. وبهذا نتمكن من الجمع بين النصوص والأخبار المتعارضة أو ترجيح أحدهما على الآخر على وجه صحيح. ويرى الدكتور أكرم ضياء العمري أن "المطلوب هو اعتماد الروايات الصحيحة وتقديمها، ثم الحسنة، ثم ما يعتضد من الضعيف؛ لبناء الصورة التاريخية لأحداث المجتمع الإسلامي في عصر صدر الإسلام... وعند التعارض يقدم الأقوى دائمًا، وأما الروايات الضعيفة التي لا تقوى أو تعتضد فيمكن الإفادة منها في إكمال الفراغات التي لا تسدها الروايات الصحيحة والحسنة، على ألا تتعلق

بجانب عقدي أو شرعي"[١].

وبعد هذه العملية نقوم باستقراء هذه الأحاديث النبوية الشريفة مستعينين بكتب شروح الحديث لاستنباط السنن الإلهية منها، وقد تأتي هذه السنن في الحديث النبوي إما تفصيلاً لسنن جاءت مجملة في القرآن الكريم، وإما بيانا لها، وإما تأكيدا لها أو سنن جزئية جاءت كلية في القرآن الكريم أو سنن كلية أو غير ذلك.

ومن أمثلة السنن الإلهية الواردة في الأحاديث النبوية سنة الله في العقوبات: فعن عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما– قال: ((كُنْتُ عَاشِرَ عَشَرَةِ رَهْطٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِّ ﷺ فِي مَسْجِدِهِ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَمُعَاذُ ابْن جَبَلٍ، وَحُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ، وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، وَأَنَا مَعَ رَسُولِ اللهِّ ﷺ، إِذْ أَقْبَلَ فَتًى مِنْ الْأَنْصَارِ فَسَلَّمَ عَلَى رَسُولِ اللهِّ ﷺ، ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِّ، صَلَّى اللهُّ عَلَيْكَ، أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، قَالَ: فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْيَسُ؟ قَالَ: أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ وَأَحْسَنُهُمْ اسْتِعْدَادًا لَهُ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ، أُولَئِكَ الْأَكْيَاسُ، ثُمَّ سَكَتَ الْفَتَى، وَأَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِّ ﷺ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسُ خِصَالٍ إِذَا نَزَلْنَ بِكُمْ وَأَعُوذُ بِاللهِّ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: إِنَّهُ لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا ظَهَرَ فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي أَسْلَافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمُؤْنَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ، وَلَمْ يَمْنَعُوا الزَّكَاةَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، فَلَوْلَا الْبَهَائِمُ مَا مُطِرُوا. وَمَا نَقَضُوا عَهْدَ اللهِّ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سُلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوٌّ مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذَ بَعْضَ مَا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ يَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِّ وَتَجَبَّرُوا فِيمَا أَنْزَلَ اللهُّ إِلَّا جَعَلَ اللهُّ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»))[٢].

---

[١] المجتمع المدني في عهد النبوة: خصائصه وتنظيماته الأولى، أكرم ضياء العمري، ٢٥ .

[٢] السيرة النبوية لابن هشام، ٢/ ٦٣١؛ سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب العقوبات، ح٤٠١٩. قال الألباني: حديث حسن.

ومن هذه السنن سنة الله في أهل الحق والهدى (أو سنة الله في الدعوات): يَقُولُ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً، وَهُوَ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ وَقَدْ لَقِينَا مِنَ المُشْرِكِينَ شِدَّةً، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلاَ تَدْعُو اللهَ؟ فَقَعَدَ وَهُوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ، فَقَالَ: «لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الحَدِيدِ، مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ المِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، مَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ»، زَادَ بَيَانٌ: «وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ»[1].

وهذا الحديث النبوي الشريف تفسير وبيان لقوله تبارك وتعالى في بيانه لسنة ابتلائه للمؤمنين أهل الحق والهدى المقرونة بسنة نصرهم وتأييدهم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾[البقرة: ٢١٤]. والآية الكريمة نزلت في غزوة أحد حين ابتلي المؤمنون وشج رأس النبي ﷺ وكسرت رباعيته. وقيل: إنها نزلت في غزوة الأحزاب إذ اتعد المشركون واليهود ومن تحالف معهم من المنافقين للقضاء على المسلمين، وأصاب المؤمنين يومئذ ما أصابهم من الجهد والشدة والجوع والحاجة وضروب الأذى.. فنزلت الآية الكريمة ببيان القانون الإلهي الذي لا يحيد ولا يميل ولا يتحول ولا يتغير.

٤- تتبع كليات السيرة النبوية وجزئياتها للوقوف على السنن الإلهية فيها.

إذا كان التاريخ مُهمًّا وضروريًّا لاستلهام العبر واكتشاف السنن الربانية في المجتمعات والأمم والحضارات، والوقوف على أسباب النصر والهزيمة وعوامل النُّهوض والسُّقوط، كما أكَّد القرآن الكريم في مواضعَ متعدِّدة: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧ - ١٣٨]، فإنَّ العلم بالسيرة النبوية العطرة -وهي جزءٌ من التاريخ، بل هي أفضل ما عُرف في التاريخ- واجب وضروري لاكتشاف هذه السنن الربانية.

---

[1] صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، بَابُ مَا لَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ، ح٣٦٣٩.

لقد تجلت السنن الربانية في السيرة النبوية تجليًّا عمليًّا وتطبيقًا كاملاً؛ حيث لم يقف ﷺ عند إدراكها فقط، وإنما تجاوزه إلى تسخيرها ومراعاتها في كل حركاته وتصرفاته ﷺ ومختلف جوانب حياته اليومية: الدعوية والعقدية والسياسية والاقتصادية..، وحث أصحابه وأمته من بعده على استثمارها والاهتداء بها، والعمل وفقها لمواجهة احتياجات الابتلاء والتدافع وتحدياتها، والاستجابة لآمال التداول والتجديد، والوقاية الحضارية: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾[النحل: من الآية ٩٢].

ولما كانت السيرة النبوية بهذا القدر الأعلى، والمحل الأسنى، والأنموذج الأمثل للاقتداء العملي في الحياة، والسراج المنير الذي يضيء الطريق إلى السنن الإلهية، ومن خلالها تستلهم الأمة المادة العملية الكافية لبناء الإنسان وممارسة الفاعلية الحضارية وتحقيق سنن الخلافة والعمران، وجب تتبع كلياتها وجزئياتها واستقراء أحداثها لاستنباط سنن الله منها. هذه السنن هي المحرك الأساس لحركة التاريخ والمجتمع، والفاعل المباشر في صيروراته العمرانية باستمرار، وعليه، فإن مضمون أحداث السيرة النبوية العطرة ليست فردية، وفريدة، غير قابلة للتكرار، ولكننا إذا نظرنا إلى هذه الوقائع والأحداث وسياقها التطوري، وأسبابها وعواملها، وفي النتائج التي انتهت إليها، ونظرنا إليها في كليتها، سنجد أن مضمون –وليس الشكل– هذه الوقائع والأحداث قابل للتكرار والاطراد، ويكشف عن علاقة سببية مطردة بين واقعة وأخرى، وحدث وآخر... وهذا الترابط هو الذي يتيح لنا استخلاص السنن الإلهية التي تخضع لها أحداث السيرة والتصرفات النبوية..

فهناك تكامل إذن بين مصادر السنن الإلهية: المصادر النظرية (القرآن والحديث)، والمصدر التطبيقي (واقع السيرة النبوية وتاريخها)؛ إذ باستقراء واقعها يقف الباحث على ثروة ومعرفة علمية سننية لا يستهان بها، ولا يستغنى عنها؛ ليتأكد لنا باستمرار ما قرره الوحي المنزل من سنن ربانية ثابتة وشاملة ومطردة، وصدقها الواقع العملي للسيرة النبوية العطرة.

المبحث التاسع

نماذج من السنن الإلهية

المطلب الأول: سنة الله في تغيير النعم.

١- تعريف التغيير.

قال ابن منظور: "تغيَّر الشيءُ عَنْ حَالِهِ: تَحَوَّلَ. وغَيَّرَه: حَوَّله وَبَدَّلَهُ، كأَنه جَعَلَهُ غَيْرَ مَا كَانَ"(١).

فالتغيير في اللغة هو: التبديل والتحويل.

أما في الاصطلاح فالتغيير كما عرفه المفكر الإسلامي جودت سعيد هو: "انتقال من حالة لا يرضى عنها إلى أخرى خير منها، وهذا الانتقال يخضع لقانون يتخذ علاقة بين الهدف والوسيلة وطاقة الإنسان"(٢).

أما "تغيير النعم" فالمقصود بها: التحول من حالة النعمة إلى حالة النقمة؛ إذ إن عاقبة عدم الحفاظ على النعم وشكر المنعم عليها هي الحسرة والندم وحلول النقم.

٢- تغيير النعم في القرآن الكريم.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[الرعد: من الآية ١١].

قال الشيخ السعدي –رحمه الله-: "﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من النعمة والإحسان

(١) لسان العرب، ٥/ ٤١، مادة: غير.

(٢) حتى يغيروا ما بأنفسهم، ٢٧.

ورغد العيش ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر ومن الطاعة إلى المعصية أو من شكر نعم الله إلى البطر بها فيسلبهم الله عند ذلك إياها.

وكذلك إذا غير العباد ما بأنفسهم من المعصية، فانتقلوا إلى طاعة الله، غير الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة"[١].

وقال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "أخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه؛ فإذا غير غير عليه، جزاء وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد. فإن غير المعصية بالطاعة غير الله عليه العقوبة بالعافية، والذل بالعز"[٢].

وقال الشيخ رشيد رضا -رحمه الله-: "ذلك الذي ذكر من أخذه تعالى لقريش بكفرها لنعم الله عليها التي أتمها ببعثه خاتم رسله ﷺ منهم، كأخذه للأمم قبلهم بذنوبهم، مؤيد بأمر آخر يتم به عدله تعالى وحكمته، وهو أنه لم يكن من شأنه، ولا مقتضى رسالته أن يغير نعمة ما أنعمها على قوم حتى يغيروا هم ما بأنفسهم من الأحوال التي استحقوا بها تلك النعمة وأن الله سميع عليم، سميع لأقوالهم عليم بأحوالهم وأعمالهم، محيط بما يكون من كفرهم للنعمة فيعاقبهم عليه"[٣].

وعليه، فإن الآيتين الكريمتين تقرران عدل الله في معاملة العباد، فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم، ويبدلوا سلوكهم، ويقلبوا أوضاعهم، ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه؛ للابتلاء والاختبار من النعمة التي لم يقدروها ولم يشكروها، ومن الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق الإنساني أكبر تكريم؛ حين يجعل قدر الله به ينفذ ويجري عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله، ويجعل التغيير القدري في حياة الناس مبنيًا على

---

[١] تفسير السعدي، ٤١٤.

[٢] الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن القيم، ٧٤.

[٣] تفسير المنار، ١٠/ ٣٢.

التغيير الواقعي في قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم، وأوضاعهم التي يختارونها لأنفسهم.. ومن الجانب الثالث يلقي تبعة عظيمة -تقابل التكريم العظيم- على هذا الكائن. فهو يملك أن يستبقي نعمة الله عليه ويملك أن يزاد عليها؛ إذا هو عرف فشكر، كما يملك أن يزيل هذه النعمة عنه إذا هو أنكر وبطر، وانحرفت نواياه فانحرفت خطاه[١].

وهي تبعة ثقيلة لا يغفل صاحبها ولا يغفو! وتشعر هذا الإنسان بالحاجة الدائمة للرجوع إلى السنن الإلهية الثابتة، ومنهاجها المطرد؛ ليظل على يقين أن هواه لم يخدعه، ولم يضلله؛ كي لا يقوده الهوى إلى المهلكة، ولا يحق عليه قدر الله فيمن يجعل إلهه هواه؛ وبذلك يظل قريبًا من الله، يهتدي بهديه، ويستضيء بالنور الذي أمده به في متاهات الطريق! ومن ثم فلا نهاية لما يملك هذا الإنسان أن يصل إليه من تزكية النفس وتطهيرها، وهو يغتسل في نور الله الفائض، ويتطهر في هذا العباب الذي يتدفق حوله من ينابيع الوجود[٢].

وهكذا فإن نعم الله تعالى على الأقوام والأمم منوطة ابتداء ودوامًا بأخلاق وقيم وصفات وعقائد وعوائد وأعمال تقتضيها. فما دامت هذه الشؤون لاصقة بأنفسهم متمكنة منها كانت تلك النعم ثابتة بثباتها، ولم يكن الرب الكريم لينتزعها منهم انتزاعًا بغير ظلم منهم ولا ذنب، فإذا هم غيروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والقيم والأخلاق، وما يترتب عليها من محاسن الأعمال، غير الله عندئذ ما بأنفسهم، وسلب نعمته منهم، فصار الغني فقيرًا، والعزيز ذليلاً، والقوي ضعيفًا، والنورانية ظلمة. هذا هو الأصل المطرد في الأقوام والأمم[٣].

وجحود نعم الله تعالى يكون "بالإسراف في الزينة والتمتع بالطيبات، وباقتراف الفواحش والآثام والبغي على الناس، وبخرافات الشرك والوثنية التي ما أنزل بها من

---

[١] في ظلال القرآن، ٣/ ١٥٣٥.

[٢] المصدر نفسه، ٦/ ٣٩١٨.

[٣] تفسير المنار، ١٠/ ٣٣.

سلطان، وبالكذب على الله بإرهاق الأمة بما لم يشرعه لها من الأحكام... فما من أمة من الأمم العزيزة السعيدة ارتكبت هذه الضلالات والمفاسد المبيدة، إلا سلبها الله سعادتها وعزها، وسلط عليها من استذلها وسلب ملكها"[١].

والحاصل أن الله تبارك وتعالى أرشدنا في الآيتين السابقتين وفي محكم التنزيل أن الأمم ما سقطت من عرش عزها، ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود، إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنها الله على أساس الحكمة البالغة، إن الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ورفاهة وخفض عيش وأمن وراحة، حتى يغير أولئك ما بأنفسهم من نور العقل، وصحة الفكر، وإشراق البصيرة، والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة، والتدبر في أحوال الذين جاروا عن صراط الله فهلكوا، وحل بهم الدمار، ثم لعدولهم عن سنة العدل، وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة، حادوا عن الاستقامة في الرأي، والصدق في القول، والسلامة في الصدر، والعفة عن الشهوات، والحمية على الحق، والقيام بنصره، والتعاون على حمايته، خذلوا العدل، ولم يجمعوا هممهم على إعلاء كلمته، واتبعوا الأهواء الباطلة، وانكبوا على الشهوات الفانية، وأتوا عظائم المنكرات؛ خارت عزائمهم، فشحوا ببذل مهجهم في حفظ السنن العادلة واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصرة الحق، فأخذهم الله بذنوبهم، وجعلهم عبرة للمعتبرين.

هكذا جعل الله بقاء الأمم ونماءها في التحلي بالفضائل التي أشرنا إليها، وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها. وجعل ذلك سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم، ولا تتبدل بتبدل الأجيال.

ولذلك علينا أن نرجع إلى قلوبنا، ونمتحن مداركنا، ونسبر أخلاقنا، ونلاحظ مسالك سيرنا؛ لنعلم هل نحن على سيرة الذين سبقونا بالإيمان، هل نحن نقتفي أثر السلف الصالح؟

---

[١] المصدر نفسه، ٨/ ٣٥٨.

هل غير الله ما بنا قبل أن نغير ما بأنفسنا، وخالف فينا حكمه، وبدل في أمرنا سنته؟ حاشاه وتعالى عما يصفون، بل صدقنا الله وعده، حتى إذا فشلنا وتنازعنا في الأمر، وعصيناه من بعد ما أرى أسلافنا ما يحبون، وأعجبتنا كثرتنا فلم تغن عنا شيئا؛ فبدل عزنا بالذل، وسمونا بالانحطاط، وغنانا بالفقر، وسيادتنا بالعبودية. نبذنا أوامر الله ظهريا، وتخاذلنا عن نصره، فجازانا بسوء أعمالنا، ولم يبق لنا سبيل إلى النجاة والإنابة إليه(١).

٣- أسباب تغيير النعم.

إننا بتتبعنا لآيات القرآن الكريم التي تحدثت عن أسباب تغيير النعم في الأقوام الماضية والأمم الغابرة، وقفنا على مجموعة من أسباب يمكن إجمالها فيما يأتي:

أ- مخالفة أمر الله وعصيان رسله وتكذيبهم.

إن من تأمل ما قصه الله تبارك وتعالى في كتابه الحكيم من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم وجد سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله، وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره وما أزال الله عنهم من نعمه وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب والمعاصي(٢).

يقول الرازي عند تفسيره للآية الكريمة: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص: ٥٨): "إِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَ لِأَهْلِ مَكَّةَ مَا خُصُّوا بِهِ من النعم أتبعه بما أنزله اللهُ تَعَالَى بِالْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الَّذِينَ كَانُوا فِي نِعَمِ الدُّنْيَا، فَلَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَزَالَ اللهُ عَنْهُمْ تِلْكَ النِّعَمَ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْكُفَّارَ لَمَّا قَالُوا إِنَّا لَا نُؤْمِنُ خَوْفًا مِنْ زَوَالِ نِعْمَةِ الدُّنْيَا، فَاللهُ تَعَالَى بَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ الْإِصْرَارَ عَلَى عَدَمِ قَبُولِ الْإِيمَانِ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ هَذِهِ النِّعَمَ، لَا الْإِقْدَامُ عَلَى الْإِيمَانِ"(٣).

---

(١) المصدر نفسه، ١٠/ ٣٢.
(٢) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، ٢/ ٢٠٦.
(٣) تفسير الرازي، ٢٥/ ٧.

ب- الذنوب والمعاصي.

عن أَبِي مُوسَى ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يُصِيبُ عَبْدًا نَكْبَةٌ فَمَا فَوْقَهَا أَوْ دُونَهَا إِلَّا بِذَنْبٍ، وَمَا يَعْفُو اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرُ»، وَقَرَأَ ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾»[1].

إن عواقب المعاصي والذنوب وخيمة؛ فهي تزيل نعم الله على العبد المذنب العاصي. "فما أذنب عبد ذنبًا إلا زالت عنه نعمة من الله بحسب ذلك الذنب، فإن تاب وراجع رجعت إليه أو مثلها، وإن أصر لم ترجع إليه، ولا تزال الذنوب تزيل عنه نعمة بعد أخرى حتى تسلبه النعم كلها.. وأعظم النعم الإيمان، وذنب الزنا والسرقة وشرب الخمر وانتهاب النهبة يزيلها ويسلبها، وقال بعض السلف: أذنبت ذنبًا فحرمت قيام الليل سنة. وقال آخر: أذنبت ذنبًا فحرمت فهم القرآن. وفى مثل هذا قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم

وبالجملة فإن المعاصي نار النعم تأكلها كما تأكل النار الحطب[2].

ت- كفر النعمة وجحودها.

إن الله عز وجل لا يزيل ما بقوم من العافية والنعمة والرخاء والهناء، فيبدلها بالآلام والأمراض والنوازل والأحداث والفتن وضروب العذاب حتى يزيلوا ويغيروا ما بأنفسهم، يعني من الحالة الجميلة، فيعصون ربهم ويجحدون نعمه عليهم؛ فعند ذلك تحل نقمه بهم،كما حلت بأهل سبأ[3]. قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا

[1] سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن، بَابٌ: وَمِنْ سُورَةِ حم عسق، ح٣٢٥٢.

[2] طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن قيم الجوزية، ٢٧١.

[3] أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين والمنحرفين، عبد الله التليدي،:٢٢.

عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)﴾[سبأ]، قال الإمام ابن كثير: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أَيْ: غَفُورٌ لَكُمْ إِنِ اسْتَمَرَرْتُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ أَيْ: عَنْ تَوْحِيدِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ وَشُكْرِهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَعَدَلُوا إِلَى عِبَادَةِ الشَّمْسِ"[١].

إن إعراضهم عن شكر الله تعالى، وإساءتهم فيما أنعم به عليهم، فكانت العقوبة من الله بأن سلبهم تلك النعم ومنعهم الوفرة والخضرة، فأرسل عليهم سيل العرم الجارف الذي حطم ذلك السد العظيم، وشتت شملهم بعد دعائهم بإبعاد القرى عنهم .

قال الشيخ الصابوني –رحمه الله– في ما وقع لأهل سبأ: "إخبارٌ بما قابلوا به النعم من الكفران أي أنهم حين بطروا النعمة، وملوا العافية، وسئموا الراحة طلبوا من الله أن يباعد بين قراهم المتصلة ليمشوا في المفاوز ويتزودوا للأسفار، فعجَّل الله إجابتهم، بتخريب تلك القرى وجعلها مفاوز قفاراً ﴿وظلموا أَنفُسَهُمْ﴾ أي وظلموا أنفسهم بكفرهم وجحودهم النعمة ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي جعلناهم أخباراً تُروى للناس بعدهم ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي وفرقناهم في البلاد شذر ومذر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي إن فيما ذكر من قصتهم لعبرًا وعظات لكل عبد صابرٍ على البلاء، شاكر في النعماء، والمقصود من ذكر قصة سبأ تحذير الناس من كفران النعمة لئلا يحل بهم ما حلّ بمن قبلهم"[٢].

فسبب تغيير الله للنعم هو كفرهم بالله وجحودهم لنعمه التي أنعمها عليهم من رغد

[١] تفسير ابن كثير، ٦/ ٥٠٧.

[٢] صفوة التفاسير، ٢/ ٥٠٦.

العيش من مال وبنين وبساتين وزروع.. وتكذيبهم لأنبياء الله تعالى ورسله، حيث "بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبيًّا فكذبوهم ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي: فثقبنا عليهم، حين أعرضوا عن تصديق رسلنا، سدَّهم الذي كان يحبس عنهم السيول"(١)، وكان هذا السد "يدعى العرم، وكان إذا مطر سالت أودية اليمن إلى العرم، واجتمع إليه الماء فعمدت سبأ إلى العرم فسدوا ما بين الجبلين، فحجزوه بالصخر والقار، فانسد زمانًا من الدهر، لا يرجون الماء"(٢)، فلما أعرضوا عن عبادته، وجحدوا نعمه، وكذبوا رسله أرسل عليهم سيل العرم.

فلما عبدوا غير الله وبطروا نعمته وسألوا بعد تقارب ما بين قراهم، وطيب ما بينها من البساتين وأمن الطرقات سألوا أن يباعد بين أسفارهم، وأن يكون سفرهم في مشاق وتعب، وطلبوا أن يبدلوا بالخير شرًّا كما سأل بنو إسرائيل بدل المن والسلوى البقول والقثاء والفوم والعدس والبصل، فسلبوا تلك النعمة العظيمة والحسنة بتخريب البلاد والشتات على وجوه العباد(٣).

ث – الاستكبار والطغيان.

إن القرآن الكريم حافل بالآيات التي تبين –لمن اعتبر– أن من أسباب تغيير النعم بالأمم الماضية تكبرهم على الخلق والاعتداء عليهم واستعبادهم وإذلالهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (١٦)﴾[فصلت]، قال الرازي: "وَهَذَا الِاسْتِكْبَارُ فِيهِ وَجْهَانِ الْأَوَّلُ: إِظْهَارُ النَّخْوَةِ وَالْكِبْرِ،

---

(١) تفسير الطبري، ٢٠/ ٣٧٨.

(٢) نفسه، ٢٠/ ٣٨٠.

(٣) البداية والنهاية، لابن كثير، ٢/ ١٩٣.

وَعَدَمُ الِالْتِفَاتِ إِلَى الْغَيْرِ وَالثَّانِي: الِاسْتِعْلَاءُ عَلَى الْغَيْرِ وَاسْتِخْدَامُهُمْ"[١].

أي فأما قوم عاد فتكبروا عن الإيمان بالله وتصديق رسله، واستعلوا على من في الأرض بغير استحقاق، وبغوا وعتوا وعصوا ربهم، وقالوا: لا أحد أقوى منا حتى يقهرنا، وقد كانوا ذوي أجسام طوال وقوة شديدة، فاغتروا بأجسامهم حين تهددهم هود عليه السلام بالعذاب، ومرادهم بهذا القول أنهم قادرون على دفع ما ينزل بهم من العذاب، فغير الله ما بهم من نعم وأذاقهم الله عذاب الذل والهوان في الدنيا بسبب استكبارهم، وإن عذاب الآخرة أشد إهانة وإذلالاً من عذاب الدنيا، وهم لا يجدون ناصرًا ينصرهم ولا دافعًا يدفع عنهم العذاب، لا في الآخرة ولا في الدنيا[٢]، وقال جل وعلا: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠)﴾[القصص].

"لقد طغى فرعون وقومه وأتباعه وتجبروا، وأكثروا في الأرض الفساد، واعتقدوا أنه لا قيامة ولا معاد، ولا حساب ولا عقاب، وكل من توهم ذلك هان عليه الطغيان والاستكبار والاستعلاء في الأرض، ولم يعلموا أن الله رقيب عليهم ومجازيهم بما يستحقون؛ لذا أبان تعالى عقابهم العاجل في الدنيا بعد تهديدهم بعقاب الآخرة فقال:

﴿فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة، فلم يبق منهم أحد، فانظر أيها المتأمل في قدرة الله وعظمته وآياته كيف كان مصير هؤلاء الظالمين الذي ظلموا أنفسهم، وكفروا بربهم، وادعى كبيرهم الألوهية من دون الله"[٣].

---

[١] تفسير الرازي، ٢٧/ ٥٥٢.
[٢] انظر: التفسير المنير، وهبة الزحيلي، ٢٤/ ٢٠٤.
[٣] انظر: التفسير المنير، ٢٠/ ١٠٩.

ج - الظلم والترف والأثرة.

ومن أسباب تغيير النعم الظلم والترف والأثرة والفساد. قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧)﴾[هود]، قال العلامة أبو زهرة؛ أي " إن الفريق الظالم اتبع ما أترفوا فيه؛ أي اتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه من الهوى والشهوات بكل أنواعها: شهوة السلطان والجاه، وشهوة الاقتراب من الحكام، والازدلاف إليهم، وشهوة التحكم في الضعفاء، وشهوة الأثرة، وفي الجملة الترف كل ما يتنعم به من مادة، ومن أمور أخرى.

والترف والأثرة متلازمان، فحيثما كان الترف كانت الأثرة؛ لأن من يطلب النعم لَا يهمه إن كان من طيب أم كان من خبيث، أو كان باعتداء أم كان من غير اعتداء، (...) وإن هذا الإجرام، والسكوت عن النهي عن الفساد، وترك الأشرار يرتعون، وترك الظالمين يترفون يجعل الأمة كلها فاسدة وظالمة، وبذلك تهلك"[١].

ولذلك فالأمة التي يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله، في صورة من صوره، فيجد من ينهض لدفعه هي أمم ناجية، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير. فأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيها من يستنكر، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد، فإن سنة الله تحق عليها، إما بهلاك الاستئصال، وإما بهلاك الانحلال، وتغيير النعم[٢].

ومن الآيات الدالة على تغيير النعم بسبب الظلم والترف قوله عز وجل: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا

---

[١] زهرة التفاسير، ٧/ ٣٧٧١.

[٢] في ظلال القرآن، ٤/ ١٩٣٢.

يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣)﴾[الأنبياء].

قال الشيخ السعدي: "﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾؛ أي: أهلكنا بعذاب مستأصل ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ تلفت عن آخرها ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾، وأن هؤلاء المهلكين لما أحسوا بعذاب الله وعقابه، وباشرهم نزوله لم يمكن لهم الرجوع، ولا طريق لهم إلى النزوع، وإنما ضربوا الأرض بأرجلهم، ندما وقلقا، وتحسرا على ما فعلوا وهروبا من وقوعه، فقيل لهم على وجه التهكم بهم: ﴿لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾؛ أي: لا يفيدكم الركوض والندم، ولكن إن كان لكم اقتدار فارجعوا إلى ما أترفتم فيه، من اللذات، والمشتهيات، ومساكنكم المزخرفات، ودنياكم التي غرتكم وألهتكم، حتى جاءكم أمر الله. فكونوا فيها متمكنين، وللذاتها جانين، وفي منازلكم مطمئنين معظمين، لعلكم أن تكونوا مقصودين في أموركم، كما كنتم سابقًا، مسئولين من مطالب الدنيا، كحالتكم الأولى، وهيهات، أين الوصول إلى هذا؟ وقد فات الوقت، وحل بهم العقاب والمقت، وذهب عنهم عزهم، وشرفهم ودنياهم، وحضرهم ندمهم وتحسرهم؟"[1].

قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (الحج: ٤٨)، وقال عز من قائل: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وتغيير النعم التي من الله بها على الأمم وإهلاكها نوعان:

"أحدهما: هو مقتضى سنته في نظام الاجتماع البشري، وهي أن الظلم سبب لفساد العمران وضعف الأمم، ولاستيلاء القوية منها على الضعيفة استيلاء مؤقتًا؛ إن كان إفساد الظلم لها عارضًا لم يجهز على استعدادها للحياة واستعادتها للاستقلال.

[1] تفسير السعدي، ٥٢٠.

ثانيهما: عذاب الاستئصال للأقوام التي بعث الله تعالى فيها رسلاً لهدايتها بالإيمان والعمل الصالح، وأعظم أركانه العدل، فعاندوا الرسل، فأنذروهم عاقبة الجحود والعناد بعد مجيء الآيات، وهو ما بينه تعالى بقوله: ﴿ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [يونس: ١٣] الدالة على صدقهم فيما جاؤوهم به ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾؛ أي وما كان من شأنهم ولا مقتضى استعدادهم أن يؤمنوا؛ لأنهم مرنوا على الكفر، واطمأنوا به، وصارت لذاتهم ومصالحهم القومية من الجاه والرياسة والسياسة مقترنة بأعمالهم الإجرامية من ظلم وفسق وفجور"[١].

ح- استعمال النعم في الصد عن سبيل الله.

إن الصد عن سبيل الله تعالى من أسباب زوال النعم وحلول النقم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]، وإن أعداء الإسلام سينفقون أموالهم ونعم الله عليهم؛ بغية القضاء عليه، وسيؤلبون عليه-لكسر شوكته- جميع قواهم، لكن عناية الله ستضع حدًّا لمكرهم، وترد كيدهم في نحرهم، فلا يجنون من نفقاتهم العريضة إلا حسرة وخسرانا، ولا من مؤامراتهم الطويلة إلا هوانًا وخذلانا[٢].

٤- أسباب زيادة النعم والحفاظ عليها.

أ- الإيمان والتقوى فهما للحياة أمان وسكينة، وللنعم حفظ وزيادة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[البقرة: ١٢٦]، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ

---

[١] تفسير المنار، ١١/ ٢٥٨.

[٢] التيسير في أحديث التفسير، ٢/ ٣٢٥.

مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

ب- وجوب شكر الله المنعم على نعمه: قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال جل وعلا: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

ت- التوجه إلى الله في كل الأحوال، وعدم الإعراض عنه وعن آياته: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤)﴾[طه].

ث- العمل الصالح: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]. إن من أسباب الحفاظ على النعم واستدامتها والاستزادة منها حسن الاعتقاد والعمل الصالح، ولا أدل على ذلك من أن الله تعالى "قد جعل أحوال الناس من الصلاح والفساد والخير والشر مرتبطة بما في نفوسهم من المبادئ وما في قلوبهم من المعتقدات، فإذا اعتقدوا بعقيدة الإيمان الصحيحة، وعملوا بمبادئ الإسلام القويمة صلحت أحوالهم، وحسنت أوضاعهم، وأما إذا كانت عقيدتهم فاسدة ومبادئهم زائفة فإن أحوالهم تفسد، وأوضاعهم تسوء"[١]، وهنا أسوق كلامًا نفيسًا للأستاذ محمد قطب؛ حيث يقول: "إن فكر المرجئة الذين يقولون إن الإيمان هو التصديق أو هو التصديق والإقرار، وإن العمل خارج عن مسمى الإيمان، هو فكر مصادم مصادمة مباشرة للسنن الربانية، وإن فكر المتواكلين الذين يضربون على صدورهم ويقولون إن ربك رب قلوب، وما دام قلبك عامرًا بالإيمان فلا يهمك العمل... فكر مصادم للسنن الربانية.

وإن فكر الذين يتصورون أن أعداء الإسلام -من صليبية عالمية، وصهيونية عالمية وإلحاد وشيوعية- ستحرقهم الصواعق ويتخطفهم الطير و«المسلمون» واقفون يتفرجون

---

[١] السنن الإلهية في النفس البشرية، عمر أحمد عمر، ٩.

عليهم بغير عمل يعملونه، ولا عدة يعدونها، لمجرد أن أولئك كفار وأن المسلمين مسلمون.. فكر مصادم للسنن الربانية.

وإن فكر الذين يتصورون أن الله سينصرهم دون أن يغيروا ما بأنفسهم من بعد عن طريق الله تصورًا وسلوكًا... فكر مصادم للسنن الربانية.

وإن فكر الذين يتصورون أن أي إسلام يمكن أن يجزئ في معركة الحق والباطل في مرحلتها الراهنة التي تكتلت فيها كل قوى الجاهلية لمحاولة القضاء على الإسلام -ولو كان إسلاما ناقصا، أو محرفا، أو مشوها، أو مبتدعا- فكر مصادم للسنن الربانية"[١].

ج- التسبيح والاستغفار: إن التسبيح من أسباب جلب النعم ودفع النقم، قال الله تبارك وتعالى عن نبيه يونس ﷺ: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)﴾[الصافات]. فبسبب تسبيحه وتنزيهه وتعظيمه لله تعالى حصلت له هذه النعمة الكبرى والمنة العظمى. وقال جل وعلا: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣]، هذا عن التسبيح أما الاستغفار فقال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾[هود: ١١]؛ أي اطلبوا مغفرته، وتوبوا إليه، واندموا على ما فات من المعاصي، (يمتعكم متاعًا حسنًا) ووصف المتاع «بالحسن» إنما هو لطيب عيش المؤمن برجائه في الله عز وجل، وفي ثوابه وفرحه بالتقرب إليه بمفترضاته، والسرور بمواعيده[٢].

وقال جل وعلا على لسان نبيه هود ﷺ: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]. ﴿يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً﴾: "إِشَارَةٌ إِلَى تَكْثِيرِ النِّعَمِ لِأَنَّ مَادَّةَ حُصُولِ النِّعَمِ هِيَ الْأَمْطَارُ الْمُوَافِقَةُ، وَقَوْلُهُ:

---

[١] حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ٩٣.

[٢] المحرر الوجيز لابن عطية، ٣/ ١٤٩.

﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى كَمَالِ حَالِ الْقُوَى الَّتِي بِهَا يُمْكِنُ الِانْتِفَاعُ بِتِلْكَ النِّعْمَةِ"[1].

ويؤكد القرآن هذا على لسان نبيه نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢)﴾[نوح]. وهنا يحض نوح قومه ويأمرهم بالاستغفار، فقد وعدهم أنه يحقق لهم خمس منافع: أولها أنه ينزل الغيث والرحمة، وثانيها أنه يمدهم بالأموال. والمال هنا بصفة عامة، وثالثها أنه يمدهم بالبنين، ورابعها: بجنات وحدائق بهجة، وخامسها: الأنهار المتدفقة والمياه الجارية، أضف إلى كل ما سبق أن التسبيح والاستغفار يدخلان في عموم الذكر الذي تحفظ به النعم، وتدفع به النقم، وتتنزل به السكينة، وتعم به الرحمة، وتنال به الدرجات في الآخرة.

ح-الحذر من الترف والأثرة والتبذير والإسراف، فهي من أسباب سخط الله تعالى على عباده؛ إذ تعد من كفر النعمة وجحودها.

خ- الصبر على الابتلاء، وعدم السخط على مقادير الله تعالى، والرضا بقضائه وقدره، ليعلم الإنسان أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

د- عدم اتباع خطوات الشيطان أو الاستسلام لوساوسه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[النور: ٢١].

ذ- عدم الركون إلى الظالمين: قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾من أسباب حفظ النعم والاستزادة منها عدم الركون إلى الظالمين، ومظاهرتهم، ومداهنتهم. قال الله تبارك وتعالى على لسان نبيه موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧]. وهذا يقتضي نصرة أهل الحق، والوقوف إلى جانبهم.

[1] تفسير الرازي، ١٨/ ٣٦٣.

وخلاصة القول: إن الله تعالى لا يغير ما بالأمم حتى تبادر إلى تغيير نفسها من الصلاح إلى الفساد، ومن طاعته وعبادته إلى الإعراض عنه وعبادة غيره، وحينئذ يجعل أمنها خوفًا، واستقرارها تشردًا، وبأسها بينها. ﴿فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

المطلب الثاني: سنة الأسباب والمسببات.

يزخر القرآن الكريم بالكثير من الآيات التي تتحدث عن سنته تعالى في الأسباب ومسبباتها، والحث على تسخيرها، والأخذ بها والعمل بمقتضياتها، بما يعود على الفرد والمجتمع والأمة بالخير والمنفعة في الدنيا والآخرة. وجل السنن الإلهية لها صلة وثيقة بسنته تعالى في الأسباب بصورة مباشرة أو غير مباشرة، بل هي من مفرداتها وفروعها، وليست سننًا مستقلة.

وفضلاً عن ذلك؛ فإن سنة الله في الأسباب لم تقتصر على إقامة نظام الكون وتسييره فحسب، وإنما تجاوزت ذلك لتكون الأصل في النتائج المترتبة على أفعال البشر وسلوكهم وتصرفاتهم، ثوابًا وعقابًا، وذلك من كمال العدل الإلهي والحكمة الربانية البالغة.

أولاً: تعريف السبب

السبب في اللغة: كل شيء يتوصل به إلى غيره.. والجمعُ أَسْبابٌ؛ وكلُّ شيءٍ يُتَوصّلُ بِهِ إِلى الشيءِ، فَهُوَ سَبَبٌ. وجَعَلْتُ فُلانًا لِي سَبَبًا إِلى فُلانٍ فِي حاجَتي وَوَدَجًا أَي وُصْلة وذَريعَة[1]. ورد بهذا المعنى في قوله جل وعلا: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥)﴾ [سورة الكهف]. فالمعنى: آتاه الله من كلّ شيء معرفة وذريعة يَتوصّل بها فأَتْبَعَ واحدًا من تلك الأَسباب، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾ [سورة غافر: ٣٦-٣٧]؛ أي لعلِّي أَبلغ الأَسباب والذرائع الحادثة في

---

[1] لسان العرب، لابن منظور، ١/ ٤٥٨، مادة: سبب.

السماءِ فأَتَوَصُل بها إِلى معرفة ما يدّعيه موسى[١].

أما في الاصطلاح الشرعي فالسبب عند جمهور الأشاعرة: عبارة عما يكون طريقًا للوصول إلى الحكم غير مؤثر فيه[٢].

وعند الغزالي وابن القيم: أنه الموجب لذاته ولكن بجعل الشارع إياه موجبا[٣]. والموجب في الحقيقة والشارع لها هو الله تعالى دون الأسباب[٤].

قال الإمام ابن القيم –رحمه الله-:"ولو تتبعنا ما يفيد إثبات الأسباب من القرآن والسنة لزاد على عشرة آلاف موضع، ولم نقل ذلك مبالغة بل حقيقة، ويكفي شهادة الحس والعقل والفطر. ولهذا قال من قال من أهل العلم: تكلم قوم في إنكار الأسباب فأضحكوا ذوي العقول على عقولهم، وظنوا أنهم بذلك ينصرون التوحيد فشابهوا المعطلة الذين أنكروا صفات الرب ونعوت كماله وعلوه على خلقه واستواءه على عرشه وتكلمه بكتبه وتكليمه لملائكته وعباده، وظنوا أنهم بذلك ينصرون التوحيد فما أفادهم إلا تكذيب الله ورسله وتنزيهه عن كل كمال... ثم من أعظم الجناية على الشرائع والنبوات والتوحيد إيهام الناس أن التوحيد لا يتم إلا بإنكار الأسباب! فإذا رأى العقلاء أنه لا يمكن إثبات توحيد الرب سبحانه إلا بإبطال الأسباب ساءت ظنونهم بالتوحيد وبمن جاء به، وأنت لا تجد كتابًا من الكتب أعظم إثباتًا للأسباب من القرآن، ويا لله العجب إذا كان الله خالق السبب والمسبب، وهو الذي جعل هذا سببا لهذا، والأسباب والمسببات طوع مشيئته وقدرته منقادة لحكمه، إن شاء أن يبطل سببية الشيء أبطلها كما أبطل إحراق النار على خليله إبراهيم، وإغراق الماء على

---

[١] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادي، ٣/ ١٥٩.

[٢] التعريفات، الجرجاني، ١٢٠.

[٣] البحر المحيط في أصول الفقه، الزركشي، ٢/ ٩، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن قيم الجوزية، ٣٥٨.

[٤] البحر المحيط في أصول الفقه، ٢/ ٨.

كليمه وقومه، وإن شاء أقام لتلك الأسباب موانع تمنع تأثيرها مع بقاء قواها، وإن شاء خلا بينها وبين اقتضائه لآثارها، فهو سبحانه يفعل هذا وهذا وهذا، فأي قدح يوجب ذلك في التوحيد، وأي شرك يترتب على ذلك!"[1].

والحق ما ذهب إليه الإمام ابن القيم، وهذا ما قرره القرآن الكريم في الكثير من آياته؛ حيث يربط بين الأسباب والمسببات والنتائج والمقدمات.. يقول الله تعالى في سنته في المصائب: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، ويقول جل وعلا في سنته في أخذ الأمم وإهلاكها: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٩٦]، ويقول عز من قائل في سنته في اليهود: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: من الآية ١٣].

هكذا أقام الله تبارك وتعالى نظام الكون على الأسباب، يقول الإمام ابن القيم: "إنه سبحانه ربط الأسباب بمسبباتها شرعًا وقدرًا، وجعل الأسباب محل حكمته في أمره الديني والشرعي وأمره الكوني القدري ومحل ملكه وتصرفه، فإنكار الأسباب والقوى والطبائع جحد للضروريات وقدح في العقول والفطر، ومكابرة للحس وجحد للشرع والجزاء، فقد جعل سبحانه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم والثواب والعقاب والحدود والكفارات والأوامر والنواهي والحل والحرمة كل ذلك مرتبطًا بالأسباب قائمًا بها، بل العبد نفسه وصفاته وأفعاله سبب لما يصدر عنه، بل الموجودات كلها أسباب ومسببات، والشرع كله أسباب ومسببات، والمقادير أسباب ومسببات، والقدر جار عليها متصرف فيها، فالأسباب محل الشرع، والقدر والقرآن مملوء من إثبات الأسباب كقوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا

[1] شفاء العليل، ١٨٩.

أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾: ﴿جَزَاءً وِفَاقاً﴾..."[١].

ويقول في موضع آخر: "الأسباب محل حكم الله ورسوله، وهي في اقتضائها لمسبباتها شرعا على وزان الأسباب الحسية في اقتضائها لمسبباتها قدرًا، فهذا شرع الرب تعالى وذلك قدره، وهما خلقه وأمره، والله له الخلق والأمر، ولا تبديل لخلق الله ولا تغيير لحكمه، فكما لا يخالف سبحانه بالأسباب القدرية أحكامها، بل يجريها على أسبابها وما خلقت له، فهكذا الأسباب الشرعية لا يخرجها عن سببها وما شرعت له، بل هذه سنته شرعًا وأمرًا، وتلك سنته قضاءً وقدرًا، وسنته الأمرية قد تبدل وتتغير كما يعصى أمره ويخالف، وأما سنته القدرية ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلًا﴾[فاطر: ٤٣] كما لا يعصى أمره الكوني القدري[٢].

ويقول حجة الإسلام أبو حامد محمد الغزالي: "إن مسبب الأسباب أجرى سنته بربط المسببات بالأسباب إظهارا للحكمة، والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الأسباب"[٣].

وقال إمام المقاصد أبو إسحاق الشاطبي: "وأما إذا لم تفعل الأسباب على ما ينبغي، ولا استكملت شرائطها، ولم تنتف موانعها، فلا تقع مسبباتها، شاء المكلف أو أبى؛ لأن المسببات ليس وقوعها أو عدم وقوعها لاختياره، وأيضًا فإن الشارع لم يجعلها أسبابًا مقتضية لمسبباتها إلا مع وجود شرائطها وانتفاء موانعها، فإذا لم تتوفر لم يستكمل السبب أن يكون سببًا شرعيًّا، سواء علينا أقلنا إن الشروط وانتفاء الموانع أجزاء أسباب أم لا، فالثمرة واحدة"[٤].

وعليه، فالمسببات مرتبطة بأسبابها شرعًا وقدرًا؛ ولذلك فطلبها من غير أسبابها مذموم، كما أن إنكار الأسباب لأن تكون موصلة لغاياتها أمر مردود، قال الله تبارك وتعالى:

---

[١] شفاء العليل، ١٨٨.

[٢] إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، ٣/ ٣٣٦.

[٣] إحياء علوم الدين، ٤/ ٢٨٥.

[٤] الموافقات في أصول الشريعة، ١/ ٣٤٥.

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[الطلاق: من الآية ٣]؛ أي إن الله تعالى قدر أسباب الأشياء كلها[١]، قال سيد قطب: "فكل شيء مقدر بمقداره، وبزمانه، وبمكانه، وبملابساته، وبنتائجه وأسبابه، وليس شيء مصادفة، وليس شيء جزافًا في هذا الكون كله، وفي نفس الإنسان وحياته.. وهي حقيقة ضخمة يقوم عليها جانب كبير من التصور الإيماني"[٢]، ويقول الشيخ رشيد رضا: إن لله تعالى في نظام التكوين والإبداع، وفيما هدى إليه البشر من نظام الاجتماع سننًا مطردة تتصل فيها الأسباب بالمسببات، ولا تتبدل ولا تتحول محاباة لأحد من الناس، وأنها عامة في عالم الأجسام وعالم الأرواح، وقد ورد ذكر هذه السنن باللفظ في عدة سور[٣]، وقال الشيخ أحمد المراغي:"إن من شروط التوكل الصحيح القيام بالأحكام الشرعية ومراعاة السنن الكونية والاجتماعية، فمن يترك العمل بالأسباب فهو الجاهل المغرور لا المتوكل المأجور.. وقال تعالى مخاطبًا رسوله بعد أن أمره بمشورة أصحابه في غزوة أحد: «فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ»﴾[آل عمرن: ١٥٩] وإنما يكون العزم بعد الأخذ بالأسباب فقد لبس من يومئذ درعين وأعدّ العدة لقتال أعدائه، ورتب الجيوش بحسب القوانين المعروفة في ذلك العصر"[٤].

ولذلك فإن الالتفات إلى الأسباب نقض في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقض في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤] وقال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦] وأمثال ذلك، فمن قال يفعل الله تعالى عندها؛أي عند هذه الأسباب، لا بها، فقد خالف لفظ القرآن، مع أن الحس والعقل يشهدان أنها أسباب، ويعلم أن الفرق بين الجبهة والعين

---

[١] انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٨/ ٣١٣.

[٢] في ظلال القرآن، ٦/ ٣٦٠١.

[٣] تفسير المنار، ١١/ ١٩٨.

[٤] تفسير المراغي، ٩/ ٦-٧.

اختصاص أحدهما بقوة ليس في الآخر، ويعلم أن الفرق بين الخبز والحصى في أن أحدهما يحصل به الغذاء دون الثاني.

ولذلك فإن أفعال العباد من أقوى الأسباب لما نيط بها، فمن جعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أو يجعل المتقين كالفجار، فهو من أعظم الناس جهلاً، وأشدهم كفرًا، بل ما أمر الله به من العبادات والدعوات والعلوم والأعمال من أعظم الأسباب فيما نيط بها من العبادات، وكذلك ما نهى عنه من الكفر والفسوق والعصيان هي من أعظم الأسباب لما علق بها من الشقاوات[1].

هذا، ويرجع إنكار الأسباب إلى القول بالجبر، وأن الإنسان يُفعل به ولا يَفعل، ولا حركة له في التاريخ والمجتمع والحياة، وإلى القول بمعارضة الأسباب للتوكل على الله تعالى والقضاء والقدر، والاستسلام للتواكل والخمول والكسل.

وخلاصة القول: لقد ذهب العلماء المحققون إلى فاعلية السبب في مسببه بإذن الله تعالى، وهذا ما يتفق مع ظواهر النصوص الشرعية وهو المسلك المختار بين الجبرية والمعتزلة الذي تلقاه السلف الصالح بالقبول.

ثانيًا- نماذج من الأخذ بالأسباب عند الأمم والأفراد في القرآن الكريم.

إن سنن الله تبارك وتعالى تكمن في كلمات الله التامات، وعهوده الربانية لكل شيء في هذا الوجود؛ إذ لا محيد لأحد عما أذن به الحق جل وعلا، ليندرج الكل في انسجام بديع بين مختلف مكوناته؛ إذ الحق جل جلاله سخر لنا ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه، وجعل بعضنا لبعض سخريًّا، فكان بهذا تسخير الكون وما فيه لخدمة الإنسان، وأمرنا بالعبادة طاعة له وانسجاما مع ذرات هذا الكون لنخضع لجلاله سبحانه، ولنعرف الله تعالى بحق ولنجله حق قدره.

---

[1] مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ٨/ ١٧٥-١٧٦؛ الفتاوى الكبرى، ابن تيمية، ٥/ ٢٣٢.

من هنا كانت سنن الله ذات أهمية قصوى تزيدنا معرفة بالله –سبحانه وتعالى–، وانضباطا بسننه؛ إذ هو القادر على كل شيء، ومع ذلك خلق السماوات والأرض في ستة أيام، لعل القصد من ذلك تبيين سننه للسير على عهدها وهديها.

- الحث على اتخاذ الأسباب

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠)﴾[سورة الليل].

وفي هذا دليل وحض على المبادرة بالأعمال الصالحة واتخاذ أسبابها للنجاة والفلاح، والابتعاد عن الأعمال السيئة وما يؤدي إليها من أسباب، للوقاية منها ومن نتائجها الوخيمة في الدنيا والآخرة.

يقول الإمام ابن تيمية –رحمه الله–: "إن الله تعالى خلق المخلوقات بأسباب، وشرع للعباد أسباباً ينالون بها مغفرته ورحمته وثوابه في الدنيا والآخرة. فمن ظنَّ أنه بمجرد توكله مع تركه ما أمره الله به من الأسباب يحصل مطلوبه وأن المطالب لا تتوقف على الأسباب التي جعلها الله أسباباً لها فهو غالط"[١].

قال ابن القيم –رحمه الله– : "فإن الله أمر بالقيام بالأسباب فمن رفض ما أمره الله أن يقوم به فقد ضاد الله في أمره، وكيف يحل لمسلم أن يرفض الأسباب كلّها؟"[٢].

ويقول الباري جل وعلا حاثًّا المؤمنين على اتخاذ أسباب النصر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَّ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٣]، وقال جلت حكمته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً

[١] مجموع الفتاوى، ٨/ ٥٣٠.
[٢] مدارج السالكين، ٣/ ٤٤٣.
[٣] سورة محمد:٧.

فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾[٢]، فكل هذه (نصرة الله تعالى بطاعته، واتباع أمره، واجتناب نهيه، ونصرة شريعته، والثبات في ساحة الوغى، وذكر الله تعالى، والإعداد المادي والمعنوي)، جعلها الله تعالى من أسباب النصر، إذن فنصر الله تعالى للمؤمنين متوقف على توفيرهم أسبابه، والتزامهم بسننه، وهكذا فإن ترك الأسباب بدعوى التوكل لا يكون إلا عن جهل بالشرع أو فساد في العقل، فالتوكل محله القلب، والعمل بالأسباب محله الأعضاء والجوارح، والمؤمن يجمع بين الواجبين ولا يستغني عنهما.

ذلك بأن الإنسان إذا توكل ولم يستعد للأمر ويأخذ له أهبته بحسب سنة الله في الأسباب والمسببات يقع في الحسرة والندم عندما يخيب ويفوته غرضه، فيكون ملومًا شرعًا وعقلاً، وإذا هو استعد وأخذ بالأسباب واعتمد عليها غافلا قلبه عن الله تعالى فإنه يكون عرضة للجزع والهلع إذا خاب سعيه ولم ينل مراده، فيفوته الصبر والثبات اللذان يهونان عليه الأمر، حتى لا يدري كيف يستفيد من الخيبة ويتدارك أمره فيها، وربما وقع في اليأس الذي لا مطمع معه في فلاح ولا نجاح؛ ولذلك قرن الله الصبر بالتوكل في عدة آيات من كتابه، قال تعالى حكاية عن الرسل -عليهم السلام- في محاجة أقوامهم: ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢] وذكروا أن الله هداهم سبله وهي سننه في الأسباب، وأنهم موطنون أنفسهم على الصبر؛ لأنهم متوكلون عليه تعالى[٣].

يقول سيد قطب: فالأمر لله من قبل ومن بعد، وهو ينصر من يشاء، لا مقيد لمشيئته

---

[١] سورة الأنفال:٤٥.

[٢] سورة الأنفال:٦٠.

[٣] انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٤/ ١٧٠.

سبحانه، والمشيئة التي تريد النتيجة هي ذاتها التي تيسر الأسباب، فلا تعارض بين تعليق النصر بالمشيئة ووجود الأسباب، والنواميس التي تصرف هذا الوجود كله صادرة عن المشيئة الطليقة، وقد أرادت هذه المشيئة أن تكون هناك سنن لا تتخلف وأن تكون هناك نظم لها استقرار وثبات، والنصر والهزيمة أحوال تنشأ عن مؤثرات، وفق تلك السنن التي اقتضتها تلك المشيئة الطليقة.

والعقيدة الإسلامية واضحة ومنطقية في هذا المجال. فهي ترد الأمر كله إلى الله، ولكنها لا تعفي البشر من الأخذ بالأسباب الطبيعية التي من شأنها أن تظهر النتائج إلى عالم الشهادة والواقع، إما أن تتحقق تلك النتائج فعلاً أو لا تتحقق فليس داخلاً في التكليف؛ لأن مرد ذلك في النهاية إلى تدبير الله، ولقد ترك الأعرابي ناقته طليقة على باب مسجد رسول الله ﷺ- ودخل يصلي قائلاً: «تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ» فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم-: «اعقلها وتوكل»[(١)]. فالتوكل في العقيدة الإسلامية مقيد بالأخذ بالأسباب، ورد الأمر بعد ذلك إلى الله[(٢)]، ولذلك فإن المسلم يأخذ بالأسباب ولا يعتقد بأن الأسباب هي المنشأة للمسببات، فهو يرد الأمر كله إلى خالق الأسباب، ويتعلق به ﷻ وحده بعد توفير الأسباب، وأداء واجبه في السعي والكدح والعمل طاعة لأمر الله ﷻ.

وهذه نماذج من الأخذ بالأسباب عن الأفراد والأمم كما يعرضها القرآن الكريم:

١ - يوسف الصديق عليه السلام وتخزين القمح.

تعد قصة نبي الله يوسف عليه السلام أنموذجًا للأخذ بسنة الله في الأسباب والمسببات، قال الله تبارك وتعالى في سورة يوسف: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ

---

(١) سنن الترمذي، ح٢٥١٧. قال الألباني: حديث حسن.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٧٥٨.

بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩)﴾.

لقد سلك نبي الله يوسف ﷺ أسباب الحفاظ على الإنتاج في ظروف بيئية قاسية؛ حيث اعتمدت خطته على التشغيل الكامل للأمة والبرمجة الكاملة، ثم التشغيل الكامل لطاقة كل فرد في الأمة، وهذا الذي أراده يوسف ﷺ وعبر عنه بقوله: ﴿تَزْرَعُونَ﴾، إن الذي يخطط له يوسف ﷺ هو الأخذ بأسباب مضاعفة الإنتاج وتقليل الاستهلاك؛ لأن الأزمات والظروف الاستثنائية تحتاج إلى سلوك استثنائي، ولأن سلوك الناس في الأزمات غير سلوكهم في الظروف العادية ـاسترخاء وبطالةـ فإن هذه الأمة تكون في حالة خلل خطير يحتاج إلى علاج ومعالج خبير[1].

إن النبي يوسف ﷺ قسم خطته لتلافي المجاعة التي ستهدد الناس جميعًا بالهلاك، إلى ثلاث مراحل:

الأولى: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ (يوسف، آية: ٤٧).
الثانية: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾(يوسف، آية: ٤٨).
الثالثة: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾(يوسف، آية: ٤٩).

وتظهر ملامح هذه الخطة جلية في الآتي:

- الطابع الغالب على المرحلة الأولى هو الإنتاج والادخار مع استهلاك محدود، فيوسف ﷺ حدد خطط الإنتاج بالزراعة وحدد استمرار الإنتاج الزراعي سبع سنين؛ العمل فيها دائب لا ينقطع. ومع هذا الجهد الكبير في الإنتاج المستمر كان هناك تحديد واضح للاستهلاك يبدو في قوله: ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (يوسف، آية: ٤٧)، وأمر يوسف بحفظ السنابل المخزونة من

[1] انظر: تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، الصلابي، ٣٢٧؛ سورة يوسف دراسة تحليلية، أحمد نوفل، ٤٠٩.

الغلال كاملة كما هي: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧] .أي: ما تحصدونه نتيجة الزرع بجِدٍّ واجتهاد؛ فلكم أنْ تأكلوا القليل منه، وتتركوا بقيته محفوظاً في سنَابله، والحفظ في السنابل يُعلِّمنا قَدْر القرآن، وقدرة مَنْ أنزل القرآن سبحانه، وما آتاه الله جل علاه ليوسف ﷺ من علم في كل نواحي الحياة، من اقتصاد ومقومات التخزين، وغير ذلك من عطاءات الله، فقد أثبت العلم الحديث أن القمح إذا خُزِّن في سنابله، فتلك حماية ووقاية له من السوس[1].

– فإذا ما انتهت سنوات الإنتاج السبع، بما فيها من جهد متصل دائب، واستهلاك محدود كان على الخطة أن تقابل تحديًّا ضخمًا هو توفير الأقوات سبع سنين عجاف. وبعبارة أخرى، بعد الإنتاج والجهد الدائب في المرحلة الأولى، سيأتي تحمل أيضًا في المرحلة الثانية، وهو تحمل يحتاج إلى تنظيم دقيق يصل فيه الطعام إلى كل فم[2]..

– ومع هذا التحمل والتنظيم الدقيق ينبغي ألا تأتي هذه السنوات العجاف على كل المدخرات، وإنما كان يوسف ﷺ واضحًا في قوله:﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ (يوسف، آية: ٤٨)، فكان هذا الجزء المدخر هو "الخميرة" التي تستطيع بها الأمة أن تقابل متطلبات البذر الجديد بعد السنوات العجاف؛ أي إعادة استثمارات المدخرات.

لقد أخذ نبي الله يوسف الصديق ﷺ بأسباب مضاعفة الإنتاج، وتقنين الاستهلاك أو ترشيده، ثم تخزين الطعام، وهذا يقتضي خطة تفصيلية؛ لأن الهدف العام الكبير ليس شيئًا؛ إذ لم يقترن بخططه التفصيلية.وهنا يأتي دور السياسيات والوسائل، والأدوات والموارد البشرية والإجراءات، والبرامج الزمنية والموازنة التقديرية.

---

[1] تفسير الشعراوي، ١١/ ٦٩٧٧.

[2] انظر: فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، ٣٢٨؛ مواقف إسلامية، عبد العزيز كامل، ٨٣-٨٦؛ تفسير الشعراوي، ١١/ ٦٩٧٧.

وهذا هو ما فعله يوسف عليه السلام ،كأنه إجراء يلائم اليوم علم الإدارة الحديث، وإن كان القرآن الكريم حصر كلام يوسف عليه السلام في جمل جامعة وجيزة، ولم يشر إلى تنمية الإنسان لكنها متضمنة قطعًا ضمن الخطة؛ لأن القرآن علّمنا أن الإنسان إنما هو نفسيته ومضمونه ومحتواه، وأن تغيير الخارج بدون تغيير الداخل لا يغير نقيرًا.

لقد وضع يوسف عليه السلام العنصر البشري في الأسباب التي أخذ بها، بعلمه أنه لا تنجح خطة ليس وراءها الإنسان الذي ينفذها، وأما منهاجه في التعامل مع الإنسان فقد ظهر في دعوته السجينين للتوحيد، وبذلك يكون منهجه في الارتقاء بالإنسان الذي هو عدة الحضارة ومحرك النهضة ومنفذ البرامج ومنجز المشاريع دعوته للتوحيد، وتعليمه حقيقة الإيمان بالله وهذا الكون وهذه الحياة[1].

إن من معالم الخطة السياسية والاقتصادية الناجحة أن تكون مبنية على معلومات يقينية صادقة حقيقية لا على الخيال الشعري المجنح الذي لا يرتبط بالواقع، ومن هنا صارح يوسف عليه السلام الشعب بالشدائد التي تنتظره، لكنها ليست المصارحة التي تثبط أو تقعد عن العمل، ولكنها التي تدفع إلى العمل وتزيد الهمة وتضاعف من الجهد والطاقة وتأخذ بأسباب مواجهة القحط والجفاف والمجاعة...[2]، لقد كان من ثمار تدبير يوسف عليه السلام وتخطيطه وأخذه بالأسباب التي يسرها الله تعالى له أن حفظ أهل مصر ومن جاورها من الهلاك والجوع، وخرج من الشدائد وعاد إلى الرخاء.

٢- نوح عليه السلام وصناعة الفلك.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا

[1] انظر: فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، ٣٢٩.

[2] انظر: فقه النصر والتمكين، ٣٣١؛ سورة يوسف دراسة تحليلية، ص٤٢٧.

تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (المؤمنون: ٢٧).

والفلك وسيلة للنجاة من الطوفان، ولحفظ بذور الحياة السليمة، كما يعاد بذرها من جديد، وقد شاء الله أن يصنع نوح الفلك بيده؛ لأنه لابدَّ للإنسان من الأخذ بالأسباب والوسائل، وبذل آخر ما في طوقه، ليستحق المدد من ربه. فالمدد لا يأتي للقاعدين المستريحين المسترخين، الذين ينتظرون ولا يزيدون شيئًا على الانتظار، ونوح قدر الله له أن يكون أبا البشر الثاني، فدفع به إلى الأخذ بالأسباب مع رعاية الله له، وتعليمه صناعة الفلك؛ ليتم أمر الله، وتتحقق مشيئته عن هذا الطريق...، فسنة الله لا تحابي، ولا تنحرف عن طريقها الواحد المستقيم، من أجل خاطر ولي ولا قريب!

ولا يفصل هنا ما حدث للقوم بعد هذا الأمر. فقد قضي الأمر، وتقرر: ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾، ولكنه يمضي في تعليم نوح عليه السلام كيف يشكر نعمة ربه، وكيف يحمد فضله، وكيف يستهديه طريقه: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩)﴾[المؤمنون].. فهكذا يحمد الله، وهكذا يتوجه إليه، وهكذا يوصف سبحانه بصفاته، ويعترف له بآياته، وهكذا يتأدب في حقه العباد، وفي طليعتهم النبيون؛ ليكونوا أسوة للآخرين[1].

٣- ذو القرنين والأخذ بالأسباب.

يقول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا

[1] انظر: في ظلال القرآن، ٤/ ٢٤٦٥-٢٤٦٦.

(٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨)﴾[الكهف]، فهذه الآيات الكريمة تتحدث عن الحاكم الصالح ذي القرنين الذي حكم بمنهاج الله تعالى حتى دان له المشرق والمغرب.

لقد مكن الله تعالى لذي القرنين في الأرض، فأعطاه سلطانًا وطيد الدعائم، ويسر له أسباب الحكم والفتح، وأسباب البناء والعمران، وأسباب السلطان والمتاع، وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكنوا فيه في هذه الحياة[1].

وهنا يذكر القرآن الكريم معلمًا إيانا أن ذا القرنين أخذ بالأسباب وعمل جهده في سبيل تسخيرها للهدف الذي كلفه الله تعالى بتحقيقه، فها هو بعد أن أعطاه الله تعالى الأسباب، اتبع هذه الأسباب بالبحث عن كيفية استثمارها وتسخيرها بما يحقق له هدفه، فتجد القرآن الكريم يقول معلقًا بعد أن آتاه الله تعالى الأسباب، بقوله: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾، وهكذا كان ذو القرنين يأخذ الأمور بأسبابها الظاهرة التي تبدو لعين العاقل البصير العالم.

ولنلحظ أن الحق تعالى قد قال: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾؛ أي: سخرنا له أسبابًا يصل بها إلى ما يريد، فما من شيء يريده إلا ويجعل الله له وسيلة مُوصِّلة إليه.

أما قوله: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾. أتبع السبب؛ أي: لا يذهب لغاية إلا بالوسيلة التي جعلها

[1] في ظلال القرآن، ٤/ ٢٢٩٠.

الله له، فلقد مكَّن الحق لذي القرنين في الأرض، وأعطاه من كل شيء سببًا، ومع ذلك لم يركن ذو القرنين إلى ما أُعطي، فلم يتقاعس، ولم يكسل[١]، بل أخذ بالأسباب التي تؤدِّي إلى الخير، وتحقق مصالح الأمة في العاجلة والآخرة.

يقول الشيخ محمد المكي الناصري –رحمه الله–: "والآن فلننظر إلى ما يتخلل هذه القصة من مغزى عميق أو معنى دقيق، فقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ بعد قوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ إشارة إلى: أن التمكين في الأرض؛ أي أرض كانت، واستقرار السلطان فيها، إنما يتم عند توافر الأسباب والعوامل الضرورية له، ويفهم من هذا أنه متى اختل سبب من تلك الأسباب أو عامل من تلك العوامل، وقع من الخلل بحسبه، وعلى قدر أهميته، وعلى رأس تلك الأسباب والعوامل: الإيمان بالله، وإقامة العدل بين الناس، ومقاومة الفساد وردع المفسدين، وهذه الأسباب والعوامل كلها توفرت في ذي القرنين، طبقا لما حكاه كتاب الله في قصته"[٢].

وفي ضوء ما سلف فإن الإنسان مطالب بأن يصنع أشياء تُرَقِّي أساليب الحياة في الأرض، فالله ضمن للإنسان الخليفة مقومات الحياة الضرورية، فما عليه إلا أن يأخذها من أسبابها ويوفر لها شروطها وعواملها.

٤- السيدة هاجر –عليها السلام– والسعي بين الصفا والمروة.

قال الله جلت عظمته وتقدست كلماته: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾[آل عمران].

وزمزم التي توجد في حضن الكعبة، أليست آيات بينات؟ إن هاجر –زوج خليل الله إبراهيم وأم إسماعيل عليهم السلام– تترك الكعبة وتروح إلى «الصفا» وتصعد إلى «المروة»

[١] تفسير الشعراوي، ١٤/ ٨٩٨١-٨٩٨٢.
[٢] التيسير في أحاديث التفسير، ٤/ ١٣.

بعد أن تضع «إسماعيل» بجانب الكعبة، وتدور بحثًا عن المياه. وسعت هاجر سبعة أشواط لعلها ترى طيرًا أو تجد إنسانًا يعرف طريق المياه؛ لأن ابنها يحتاج إلى الشرب، ولو أنها وجدت على الصفا أو المروة مياها في أول سعيها لكانت تجد تصديقا لقولها لإبراهيم عليه السلام عندما جاء بها للإقامة في هذا المكان «إن الله لا يضيعنا» إنما سعت، وكأن الله يقول لها ولكل إنسان: عليك بالسعي، ولكن لن أعطيك من السعي، إنما أعطيك الماء تحت رجل إسماعيل. إذن فصدقت في قولها: لن يضيعنا الله، لقد جعلها الحق سبحانه تسعى سبعة أشواط، ولا يمكن لامرأة في مثل عمرها أن تقدر على أكثر من ذلك، وهذا يعلمنا أن الإنسان عليه أن يباشر الأسباب، ولكن القلب عليه أن يتعلق بمسبب الأسباب، وهو الله سبحانه، وفي هذا ما يعدل سلوك الناس جميعا. فساعة يرى الإنسان أن البئر مكان قدم إسماعيل عليه السلام وعلى البعد تكون الصفا والمروة، وتسعى بينهما، وبعد ذلك تجد زمزم مكان ضربة قدم إسماعيل، أليس في هذا آيات بينات تهدي الإنسان أن يباشر الأسباب ويأخذ بها، ويتعلق القلب بمسبب الأسباب؟

إن هذا يعطي المؤمن إيمانية التوكل، وهي تختلف عن الكسل و«بلادة التواكل» فإيمانية التوكل هي أن الجوارح تعمل، والقلوب تتوكل، وأما الكسل عن الأخذ بالأسباب مع الادعاء بالتوكل فهذه بلادة. ومثل هذا الكسول المتواكل عندما يُطرح الأكل أمامه يأكل بنهم وشره، ولو كان صادقًا لترك اللقمة تقفز إلى فمه، ولماذا يمضغها إذن؟ لماذا يختار التواكل والكسل، وعدم العمل، ثم يمد يده ليأكل؟ إن هذه هي «صفات التواكل»، إننا نأخذ من سعي «هاجر» وتفجر الماء عبرة، وهي الأخذ بأسباب الله تعالى[1].

٥ - السيدة مريم -عليها السلام- وهز جذع النخل.

إن القرآن الكريم حافل بالآيات التي تدعو المسلمين إلى الأخذ بسنة الأسباب في الحياة، ألم يقل ربنا تبارك وتعالى لمريم العذراء عليها السلام: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ

---

[1] تفسير الشعراوي، ٣/ ١٦٣٨.

تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾ [سورة مريم:٢٥]؟ وهو قادر أن يقول للشيء كن فيكون، ومع ذلك أمرها باتخاذ الأسباب.

وكأن الحق تبارك وتعالى يريد أنْ يُظهِر لمريم آية أخرى من آياته؛ إذ أمرها أنْ تهزَّ جذع النخلة اليابس الذي لا يستطيع هَزَّه الرجل القويّ، فما بالها وهي الضعيفة التي تعاني ألم الولادة ومشاقها؟

كما أن الحق سبحانه قادر على أنْ يُنزِل لها طعامها دون جَهْد منها ودون هَزِّها، إنما أراد سبحانه أن يجمع لها بين شيئين هما؛ طلب الأسباب والاعتماد على المسبب، والأخذ بالأسباب في هَزِّ النخلة، على الرغم من أنها متعبة قد أرهقها الحمل والولادة، وجاء بها إلى النخلة لتستند إليها وتتشبث بها في وحدتها لنعلم أن الإنسان في سعيه مُطَالب بالأخذ بالأسباب مهما كان ضعيفًا، لذلك أبقى لمريم اتخاذ الأسباب مع ضَعْفها وعدم قدرتها، ثم تعتمد على المسبِّب سبحانه الذي أنزل لها الرُّطَب مُسْتويًا ناضجًا، وهل استطاعت مريم أنْ تهزَّ الجذع الكبير اليابس؟ إنها مجرد إشارة إليه تدلُّ على امتثال الأمر، والله تعالى يتولى إنزال الطعام لها، وقد صَوَّر الشاعر هذا الموقف بقوله:

ألم تر أن الله أوحى لمريم	وهزي إليك الجذع يسَّاقط الرطب
ولو شاء الله أحنى الجذع من غير هزه	إليها ولكن كل شيء له سبب[1].

٦- سيدنا محمد ﷺ والأخذ بالأسباب.

إن سنة الله تعالى قضت بأنه لا يمكن الوصول إلى نتيجة إلا بمقدماتها، ولا إلى مسبَّب إلا عن طريق سببه، فالله تعالى جعل نظام خلقه يقوم وفق نظام ارتباط الأسباب بمسبباتها، وهذه الأسباب لم تكن سببًا إلا بتسخير الله لها، وما يصل الإنسان إليه من خير ومنفعة بأخذه بهذه الأسباب، إنما هو من فضل الله تعالى الذي سخرها بقدرته العلية طرقا للمقاصد، وأقدر

[1] تفسير الشعراوي، ١٥/ ٩٠٦٧-٩٠٦٨.

الإنسان عليها، وأرشده إليها بما وهبه له من وسائل المعرفة والإدراك، فما على الإنسان إلا أن يأخذ بالأسباب ولا يعتقد فيها، فالله سبحانه وتعالى أمر بإعداد القوة وأخذ الأهبة في المعارك، لكن بعدما ينتصر المسلمون في معركة من المعارك ينسب النصر إليه؛ لأنه هو الذي سخر هذه الأسباب ووجه عباده إلى استخدامها، فقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾[الأنفال: من الآية ٦٠]. وهنا دعوة إلى اتخاذ الأسباب وتوفير الوسائل والشروط.

ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾[التوبة: ٢٥]. فالآية نزلت في غزوة حنين، حين انشغل من دخل في الإسلام حديثا عن الله باعتمادهم على قوتهم وعددهم وما أخذوا به من أسباب، وظنوا أن هذه العدة والعدد سيكون نتيجتها النصر لا محالة، فبين الله تعالى لهم أن الكثرة العددية الغافلة عن مسخر الأسباب ومهيئها ليست بشيء، وقد تكون هذه الكثرة سببًا في الهزيمة، إذا دخل فيها من غفل عن الله تعالى وانشغل بالأسباب عن المسبب.

ولأهمية سنة اتخاذ الأسباب لم يغفل عنها سيد الوجود ﷺ وهو المؤيد بالوحي في تصرفاته وحياته وجهاده ودعوته وتربيته، وكان يوجه أصحابه الكرام ﷺ دائمًا إلى مراعاتها في كل أمورهم الدنيوية والأخروية، ولعلنا نقتطف من أحداث السيرة النبوية العطرة الهجرة النبوية المباركة لنرى فيها سنة الأسباب ومسبباتها واضحة جلية:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)﴾[التوبة]، وقال عز من قائل: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾[الأنفال].

لم يتحقق نصر الله تعالى لنبيه ﷺ في الهجرة النبوية من فراغ، وإنما جاء نتيجة لجملة من الأسباب التي يسرها الله تعالى للنبي ﷺ لنجاح هجرته؛ حيث تيقن ﷺ استعداد الأنصار لقبول دعوة الإسلام ونشرها في المدينة، تلاه بيعة العقبة الأولى وبعث مصعب بن عمير ﷺ سفيرا للإسلام بالمدينة، يعلم أهلها الدين وحب النبي الأمين ﷺ، تلاه بيعة العقبة الثانية التي مهدت الطريق للهجرة بنشر الإسلام في المدينة، وتعهد الأنصار بحماية النبي ﷺ مما يحمون به أنفسهم في المنشط والمكره، وموافقتهم على أن تكون المدينة دار هجرته، ثم تلاه هجرة الصحابة أرسالا وجماعات.

تلاه الإذن الإلهي للنبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة، فاختار ﷺ الصديق الحميم المحب الرفيق في الطريق وهو أبو بكر الصديق ﷺ، وأخبره في الوقت المناسب، وأمره بكتمان أمر الهجرة، والاستعانة على ذلك بالسر والحيطة والحذر، وخرج من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته في النهار ساعة القيلولة والهاجرة وفي الحر الشديد، وأعد الصديق ﷺ راحلتين، واستأجر الدليل الخبير بالطريق (عبد الله بن أُرَيْقِط وكان مشركًا)، وبحث عن مكانٍ يستقرّ فيه حتى تَخْمُد شدّة الطَّلَب عليه، فاختار غار ثَور ومكثا فيه ثلاثة أيام، وسار بِطَرِيقٍ معاكسٍ لِطَرِيق المدينة -سار مساحلاً-، واختارَ رجلاً (عبد الله بن أبي بكر ﷺ) يكتشف حركة كفار قريش بمكة ويتقصى أخبارها وهو ما يسمى اليوم بجهاز الاستخبارات، وآخر يمحو بِغَنمه آثار أقدامه (عامر بن فُهَيْرة مولى أبي بكر ﷺ)، ومن يأتيه بالزاد كلّ يوم (أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما-)، مع إخفاء شخصية النبي ﷺ في طريق الهجرة[1]... واتخذ جميع الأسباب التي تؤدّي إلى نجاته وبلوغ هدفه، ثمّ توكَّل على الله تعالى حق التوكل.

كما تظهر سنة اتخاذ الأسباب جلية في أحداث غزوة بدر الكبرى يوم الفرقان يوم التقى

[1] فعن أنس ﷺ "أن أبا بكر كان رديف النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، وكان أبو بكر يختلف إلى الشام، فكان يعرف وكان النبي ﷺ لا يعرف فكانوا يقولون: يا أبا بكر من هذا الغلام بين يديك قال: "هاد يهديني السبيل". مصنف ابن أبي شيبة، باب ما قالوا في مهاجر النبي ﷺ، ٧/ ٣٤٦.

الجمعان؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧)﴾[آل عمران].

إنه في الوقت الذي ظن المسلمون أنهم يُساقون إلى مصارعهم، جاءتهم البشارة على لسان رسول الله ﷺ بالنصر والتأييد، ومع هذا الوعد الصادق لم يتوقف عن اتخاذ الأسباب ولم يعطل التدابير التي ترسم لهم خطوات النصر، وبدا هذا جليًّا في استشارة أصحابه ﷺ قبل خوض المعركة، وحركة الاستخبارات النبوية قبل التوجه إلى ميدان المعركة، والتعبئة النفسية للمسلمين، والمهارة الفائقة في فن الحرب والقتال، ورسم الخطط العسكرية وأعمال المبادرة، وفي توزيع المهام وفقًا للكفاءات، ومفاجأة العدو، وتسديد الضربات، وسرعة الحركة، إلى جانب الإيمان بالنصر..، ولم يدع النبي ﷺ اتخاذ الأسباب المادية والمعنوية اللازمة، بعدما أعد العدة الكاملة وتوكل على الله جل وعلا... فلما اجتمع الأخذ بالأسباب والوقوف بباب رب الأرباب، كان النصر المبين وتأييد رب العالمين لجنده المؤمنين بملائكة من الملأ الأعلى، فولى جيش الكفر فرارا يجر أذيال الخيبة والهزيمة والخسران، فتضافر الأخذ بالأسباب مع توفيق الله تعالى وتقدس.

يقول الشيخ تقي الدين السُّبكي: "سئلتُ عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي ﷺ مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه فقلت: وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي ﷺ وأصحابه، وتكون الملائكة مددًا على عادة مدد الجيوش رعاية لصورة الأسباب وسنتها التي أجراها الله تعالى في عباده، والله تعالى هو فاعل الجميع والله أعلم"[1].

كما نقطف من أحداث السيرة النبوية غزوة -وتسمى كذلك غزوة الخندق- ، قال الله

[1] فتح الباري، ٧/ ٣١٣.

تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)﴾[الأحزاب].

لقد أخذ سيدنا رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام ﷺ يوم الأحزاب بأسباب النصر وعوامله وسنن الإعداد والتخطيط، فتوكلوا على الله تعالى حق التوكل، وأعدوا ما استطاعوا من قوة مادية ومعنوية وروحية، وحفروا الخندق، وعندما واجهتهم تلك الصخرة الكبيرة وعجزوا عن تفتيتها استعانوا بسيدنا رسول الله ﷺ، فأخذ معْوَلَه وضَرَبَها؛ محاولاً تفتيتها طبقًا للسُّنن الربانية في تسخير الأسباب، وتوفير ما استطاعوه من شروط النصر، وكلُّه يقين في نصر الله وتأييده لهم، ولم يغتر بعدته ولا بعدده بل كان على إيمان كامل بأن النصر من عند الله تعالى مهما أخذ بالأسباب وأعد من عدة، فأكرمه الله جل وعلا إكرامًا عظيمًا وأراه آيات عظيمة؛ وهي البشرى بفتح بلاد فارس والرُّوم وسقوط الباطل وأهله، ليؤكد من خلال تصرفه هذا لأصحابه ولأمته من بعده، أن للنصر أسبابًا وعوامل، من أخذ بها ناله النصر وكان حظه وحليفه-بتوفيق من الله-، ومن تنكبها؛ فالسماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة.

وفضلا عن ذلك، فإن قول الله تبارك وتعالى في سورة الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾ الآية ٢١ ، قد نزلت في غزوة الأحزاب، واصفة التأسي برسول الله ﷺ في الأخذ بالسنن الربانية عامة، وسنن الأسباب خاصة.

ومن تأمل في بقية الغزوات والسرايا النبوية سيدرك مدى فاعلية سنة اتخاذ الأسباب في مسار الدعوة والتربية والجهاد، وتظهر الحقيقة البلجاء لهذه السنة في أحداث غزوة أحد حينما قصر بعض المسلمين في الأخذ بأسباب النصر، قادهم ذلك التقصير إلى انكسار وهزيمة، وأصيبوا بجرح غائر فقدوا سبعين من شهدائهم، وفقدوا أحب الناس إلى رسول الله ﷺ أسد الله حمزة بن عبد المطلب ﷺ عم رسول الله ﷺ، وظل ينزف من الجسد الإسلامي سنوات طوال ربما لم يلتئم إلا بعد فتح مكة.

وقد بدأت تظهر بعض بوادر التقصير في الأسباب وأهمها مخالفة رسول الله ﷺ. قال إمام أهل السير محمد بن إسحاق: -فاستشار النبي ﷺ أصحابه وقال- فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها... وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج، فقال رجال من المسلمين، ممن أكرم الله بالشهادة يوم أحد وغيره، ممن كان فاته بدر: يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا؟ ... فلم يزل الناس برسول الله ﷺ، الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم، حتى دخل رسول الله ﷺ بيته، فلبس لأمته، وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة... وقد ندم الناس، وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ، ولم يكن لنا ذلك. فلما خرج عليهم رسول الله ﷺ، قالوا: يا رسول الله: استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل، فخرج رسول الله ﷺ في ألف من أصحابه[(١)].

وكان التقصير الأكبر في مخالفة الأمر المباشر لرسول الله ﷺ، مما كانت له نتائجه الوخيمة على نهاية المعركة، وذلك لما أمر النبي ﷺ خمسين رجلاً من الرماة على جبل عينين بأحد، وقال لهم: «لاَ تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلاَ تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلاَ تُعِينُونَا»[(٢)].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ٢/ ٦٠؛ كتاب السير والمغازي، محمد بن إسحاق، ٣٢٢.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد، ح٣٨١٧.

وكان خالد بن الوليد كلما أتى من قبل مسيرة النبي ﷺ ليجوز حتى يأتي من قبل السفح، ردّه الرماة، حتى فعلوا ذلك مرارًا، ولكن المسلمين أتوا من قبل الرماة. إن رسول اللهَّ ﷺ أوعز إليهم فقال: «احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا نغنم فلا تشركونا»[1]، فلما انهزم المشركون وتبعهم المسلمون يضعون السلاح فيهم حيث شاؤوا أجهضوهم عن العسكر، ووقعوا ينتهبون العسكر، قال بعض الرماة لبعض: لم تقيمون هنا في غير شيء؟ قد هزم اللهَّ العدو، وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم، فادخلوا عسكر المشركين فاغنموا مع إخوانكم، فقال بعض الرماة لبعض: ألم تعلموا أن رسول اللهَّ ﷺ قال لكم: احموا ظهورنا فلا تبرحوا مكانكم، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا نغنم فلا تشركونا، احموا ظهورنا؟ فقال الآخرون: لم يرد رسول اللهَّ هذا، وقد أذل اللهَّ المشركين وهزمهم، فادخلوا العسكر فانتهبوا مع إخوانكم. يقول رافع بن خديج: فكنا أتينا من قبل أنفسنا ومعصية نبينا، واختلط المسلمون وصاروا يقتلون ويضرب بعضهم بعضًا، ما يشعرون به من الدهشة والعجل![2]، فلما أخل الرماة تلك الخلة التي كانوا فيها دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النبي ﷺ فضرب بعضهم بعضًا، فاستشهد سبعون من المسلمين.

وهكذا فحين يقصر المسلمون في توفير الأسباب اللازمة للنصر، فإن عليهم أن يتقبلوا نتيجة التقصير. فإن كونهم مسلمين لا يقتضي خرق السنن الجارية لهم وإبطال الناموس الكوني، وإنما هم مسلمون؛ لأنهم يطابقون حياتهم كلها على سنن الهداية، ويصطلحون بفطرتهم كلها مع القوانين التي بثها الله في الكون والحياة.

وهذا الذي وقع في غزوة أحد مثال للتقصير في اتخاذ الأسباب وتوفير شروط النصر. فقد عرف الله المسلمين سنته وشرطه في النصر والهزيمة. فخالفوا هم عن سنته وشرطه،

---

[1] انظر: السيرة النبوية لابن كثير، ٣/ ٤٧.

[2] مغازي الواقدي، ١/ ٢٢٩؛ إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، المقريزي، ٨/ ٣٥٥.

فتعرضوا للألم والقرح الذي تعرضوا له.. ثم بيّن لهم السبب المباشر والأول فيما حدث لهم من هزيمة؛ فقال جل وعلا: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٦٥).

يقول سيد قطب في تدبره لهذه الآية الكريمة: "أنفسكم هي التي تخلخلت وفشلت وتنازعت في الأمر، وأنفسكم هي التي أخلت بشرط الله وشرط رسوله ﷺ، وأنفسكم هي التي خالجتها الأطماع والهواجس، وأنفسكم هي التي عصت أمر رسول الله ﷺ وخطته للمعركة. فهذا الذي تستنكرون أن يقع لكم، وتقولون: كيف هذا؟ هو من عند أنفسكم، بانطباق سنة الله عليكم، حين عرّضتم أنفسكم لها. فالإنسان حين يعرّض نفسه لسنة الله لابد أن تنطبق عليه، مسلمًا كان أو مشركًا، ولا تنخرق محاباة له، فمن كمال إسلامه أن يوافق نفسه على مقتضى سنة الله ابتداء! ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ومن مقتضى قدرته أن تنفذ سنته، وأن يحكم ناموسه، وأن تمضي الأمور وفق حكمه وإرادته، وألا تتعطل سننه التي أقام عليها الكون والحياة والأحداث"[١].

ثم مضى الوحي يذكر المسلمين ما جهلوه من سنن الحياة ويذكرهم بما نسوا من ذلك، فيبين أن المؤمن مهما عظمت بالله صلته فلا ينبغي أن يغتر به أو يحسب الدنيا دانت له أو يظن أن قوانينها الثابتة طوع يديه! كلا فالحذر البالغ والعمل الدائم هما عدتا المسلم لبلوغ أهدافه المرسومة، ويوم يحسب المسلم أن الأيام كلها كتبت له، وأن شيئا منها لم يكن عليه، وأن أمجاد الدارين تنال دون بذل التكاليف الباهضة، فقد سار في طريق الفشل الذريع[٢].

قال الله جلت عظمته وتقدست كلماته: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا

---

[١] في ظلال القرآن، ١/ ٥١٤.

[٢] دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، ٢٠١-٢٠٢.

وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٢).

و﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ كان ذلك في مطالع المعركة؛ حيث بدأ المسلمون يحسون المشركين؛ أي يخمدون حسهم، أو يستأصلون شأفتهم قبل أن يلهيهم الطمع في الغنيمة.

﴿حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ وَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.. وهو تقرير لحال الرماة، وقد ضعف فريق منهم أمام إغراء الغنيمة ووقع النزاع بينهم وبين من يرون الطاعة المطلقة لأمر رسول الله ﷺ وانتهى الأمر إلى العصيان والإخلال بأسباب النصر، بعد ما رأوا بأعينهم طلائع النصر الذي يحبونه. فكانوا فريقين؛ فريقًا يريد غنيمة الدنيا، وفريقًا يريد ثواب الآخرة، وتوزعت القلوب فلم يعد الصف وحدة، ولم يعد الهدف واحدًا، وشابت المطامع جلاء الإخلاص والتجرد الذي لابدَّ منه في معركة العقيدة. فمعركة العقيدة ليست ككل معركة، إنها معركة في الميدان ومعركة في الضمير، ولا انتصار في معركة الميدان دون الانتصار في معركة الضمير،إنها معركة لله، فلا ينصر الله فيها إلا من خلصت نفوسهم له. وهذا هو ناموسه الثابت.

وما داموا يرفعون راية الله وينتسبون إليها، فإن الله لا يمنحهم النصر إلا إذا محصهم ومحضهم للراية التي رفعوها كي لا يكون هناك غش ولا دخل ولا تمويه بالراية، ولقد يغلب المبطلون الذين يرفعون راية الباطل صريحة في بعض المعارك -لحكمة يعلمها الله- وأما الذين يرفعون راية العقيدة ولا يخلصون لها إخلاص التجرد، فلا يمنحهم الله النصر أبدًا، حتى يبتليهم فيتمحصوا ويتمحضوا.. وهذا ما يريد القرآن أن يجلوه للجماعة المسلمة بهذه الإشارة إلى موقفهم في المعركة. وهذا ما أراد الله- سبحانه- أن يعلمه للجماعة المسلمة، وهي تتلقى الهزيمة المريرة والقرح الأليم ثمرة لهذا الموقف المضطرب المتأرجح! ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.

والقرآن يسلط الأضواء على خفايا القلوب التي ما كان المسلمون أنفسهم يعرفون وجودها في قلوبهم، وبذلك يضع قلوبهم أمامهم مكشوفة بما فيها ويعرفهم من أين جاءتهم الهزيمة ليتقوها! وليسلكوا طريق النصر بتوفير أسبابه وعوامله[1].

يقول الشيخ محمد المكي الناصري -رحمه الله- في تفسيره للآية السابقة: وهذه الآية تضع اليد على سبب المتاعب التي لقيها المسلمون يوم أحد؛ وذلك بغية تنبيه الجيل الإسلامي الأول إلى تجنب عوامل الهزيمة وأسبابها، بالنسبة لما ينتظره من جهاد طويل في سبيل الله، ثم تنبيه كل الأجيال الإسلامية اللاحقة إلى نفس العوامل والأسباب، حتى يتجنبها، ولا تبتلى بها ولا بنتائجها الحتمية. وهذه الأسباب يلخصها كتاب الله في أربعة أشياء:

١ - الفشل الذي يصيب بعض ضعفاء النفوس، فيجرون الهزيمة على من معهم ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾.

٢ - التنازع بين المحاربين وعدم الاتفاق فيما بينهم ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

٣ - عصيان المحاربين لأوامر القيادة العليا وعدم تنفيذهم لتلك الأوامر تنفيذًا حرفيًّا ﴿وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾.

٤ - اختلاف الوجهة وعدم الاتحاد في الهدف ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.

فهذه الأسباب الأربعة التي حددها كتاب الله أوضح تحديد هي الأسباب المباشرة في كل هزيمة لحقت المسلمين، في يوم أحد أولاً، وفي كل الغزوات والفتوحات التي أخل فيها المسلمون بشروط النصر وأسبابه.

ثم جاء التعقيب بآية كريمة تشير صراحة إلى أن الحق سبحانه وتعالى سوف يتولاهم

---

[1] في ظلال القرآن، ١/ ٤٩٣-٤٩٤.

بفضله وكرمه، وسينقذهم من العثرات إذا ما رجعوا إلى الله، وتمسكوا بهديه، واعتصموا بحبله، وعملوا بمقتضى سننه الثابتة في الكون، وذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وهكذا نستطيع أن نقرر -في ضوء ما سبق- أن السنن الربانية تجري بترتيب النتائج على الأسباب، ولكن الأسباب ليست هي التي تنشئ النتائج. فالفاعل المؤثر هو الله تعالى، وهو الذي يرتب النتائج على الأسباب بقدره ومشيئته، ومن ثم يطلب إلى الإنسان أن يؤدي واجبه، وأن يبذل جهده، وأن يفي بالتزاماته. وبقدر ما يوفي بذلك كله يرتب الله النتائج ويحققها. وهكذا تظل النتائج والعواقب متعلقة بمشيئة الله وقدره، وهو وحده الذي يأذن لها بالوجود حين يشاء، وكيفما يشاء. وهكذا يتوازن تصور المسلم وعمله. فهو يعمل ويبذل ما في طوقه وهو يتعلق في نتيجة عمله وجهده بقدر الله ومشيئته، ولا حتمية في تصوره بين النتائج والأسباب. فهو لا يحتم أمرًا بعينه على الله![2].

ويبقى أن التأمل في قوله عز وجل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ هو أن يأتي الأخذ بالأسباب المعنوية والمادية شرطًا أساسًا لتحقيق نصر الله تعالى للمؤمنين؛ لتتأصل حقيقة كبرى من حقائق هذا الدين، مفادها أن التوكل الصادق على الله لا يعني ترك الأسباب، وإنما الأخذ بالأسباب دليل على صدق التوكل على الله تعالى؛ لذلك اهتم القرآن الكريم بالسلامة العقدية والفكرية للصحابة ﷺ وتربيتهم على التوكل على الله تعالى، والأخذ بالأسباب، والوعي بأهمية السنن في إنجاز الأعمال، والإيمان بتسخير الكون، والبعد عن العجز وتجنب الاتكال.

فإذا كان هذا مع السنن الجارية التي ترتبط فيها الأسباب بالمسببات، والنتائج

---

[1] التيسير في أحاديث التفسير، ١/ ٢٦٩.

[2] في ظلال القرآن، ١/ ٥٠٣.

بالمقدمات، فإن الأصل لا يتغير في السنن الخارقة[١]، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾[البقرة: ٦٠]. قال الإمام القرطبي: "وقد كان الله تعالى قادرا على تفجير الماء وفلق البحر من غير ضرب، لكن أراد أن يربط المسببات بالأسباب، حكمة منه للعباد في وصولهم إلى المراد، وليرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم في المعاد"[٢].

وفي القصص القرآني نماذج كثيرة للأخذ بالأسباب التي بثها الله تعالى في الكون والحياة، لكي ندرك أن الإسلام لا يقوم على التخمين أو التواكل، ولكنه يهتم بالفاعلية والأخذ بالأسباب التي يسرها الله تعالى وسخرها لعباده؛ إذ التوكل لا ينافي أبدًا الأخذ بالأسباب المادية، بل إن التوكل الحق الذي أمر الله تعالى به عباده وفهموه، هو الذي يجمع بين القلب وعمل الجوارح، وإن ترك الأسباب والتوكل أو أحدهما من العجز الذي لا يرضي الله تعالى.

ثالثًا: المستفاد من سنة الله في الأسباب والمسببات.

إن ما أصاب الأمة المسلمة اليوم من تخلف وركود وعجز حضاري كان بسبب كسلها وخمولها، واكتفائها بالأماني المعسولة، وعدم أخذها بأسباب الوقاية الحضارية والشهود الحضاري وعوامل النصر والتمكين، فأصبحت كما نرى اليوم من الخطوب التي تلهب ظهرها بكرة وعشيا. وهذا تنبيه لها لأن تعيد وصلتها بالأسباب التي بثها الله تعالى في الكون، وتخدم بها منهج الله، وتعمر بها أرضها، وتبني عمرانها، وتحقق ازدهارها ورقيها.. قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

---

[١] هي خوارق بالنسبة للبشر، أما عند الله فليست هناك خارقة، فأمره بين الكاف والنون، وإرادته لا حدود لها، والكون يسير وفق سنن مقننة ومطردة، وإن ظهر بعضها في شكل خوارق، لكنها لا تخرج عن دائرة نواميسه الثابتة، وأفضل تسميتها بسنن التأييد؛ أي ما سنه الله تعالى في تأييد رسله وأنبيائه وعباده الصالحين من المعجزات والكرامات.

[٢] الجامع لأحكام القرآن، ١/ ٤١٩.

وهكذا فإن معيار التقدُّم هو الأخذ بالأسباب، فمن أخذ بالأسباب وهو مؤمن نال حُسْن خير الدنيا وحُسْن ثواب الآخرة، ومَنْ لم يؤمن وأخذ بالأسباب نال خير الدنيا ولم يَنَلْ ثواب الآخرة.

إذن: فواجب على المؤمنين "أن يستقبلوا عطاء الربوبية بحسن الأخذ بالأسباب؛ ليأخذوا النتيجة، ولا يتقدم أهل الكفر عليهم؛ لأن الكافر حين يسبقك في الأخذ بالأسباب، ربما استغل هذه المسألة في أن يفرض عليك ما يخالف دينك"(١).

لذلك وجب على الإنسان أن يسعى في تدبير أمور نفسه بحسب ما علمه من سنن الله تعالى في نظام الأسباب وارتباطها بالمسببات، معتقدًا أن الأسباب لم تكن أسبابًا إلا بتسخير الله تعالى، وأن ما يناله باستعمالها فهو من فضل ربه الذي سخرها وجعلها أسبابًا وعلمه ذلك(٢).

فشأن المؤمن المتوكل في دائرة الأسباب، أن يطلب كل شيء من سببه، خضوعًا لسننه تعالى في نظام خلقه، وهو بذلك يطلبها من حيث أمره أن يطلبها أمرًا تكوينيًا قدريًّا وتشريعيًّا وتكليفيًّا"(٣).

وبهذا لا يكون الإنسان قد خرج من مقتضى التوحيد، بل هو تنفيذ والتزام بما أمر الله تعالى به، بالجمع بين التوحيد وبين الأخذ بالسنن والأسباب.

يقول الشيخ محمد الغزالي: "التوازن في حس المسلم بين الإيمان بالقدر وبين الأخذ بالأسباب، وهو من أجمل خصائص العقيدة الإسلامية. إن المتواكلين يزعمون أنهم يتوكلون على الله ثم يهملون الأخذ بالأسباب جملة، فيصيبهم ما يصيبهم من فقر ومرض وجهل وعجز وهوان في الأرض. وإن الجاهلية الأوروبية من جانب آخر تأخذ بالأسباب منقطعة عن الله وقدره،

(١) تفسير الشعراوي، ٩/ ٥٦٨٧.

(٢) تفسير المنار، رشيد رضا، ٩/ ٤٩٣.

(٣) نفسه، ١٠/ ١١٤.

فتنتج إنتاجًا ماديًّا ضخمًا، ثم يصيبها ما يصيبها من قلق واضطراب وأمراض عصبية ونفسية وجنون وانتحار وضياع؛ لأنها تفقد الطمأنينة التي يجدها المؤمن لذكر الله ولقدر الله"[1].

وإن تأخر المسلمين اليوم عن القيادة العالمية لشعوب الأرض لم يكن ظلمًا نزل بهم، بل كان نتيجة طبيعية لقوم نسوا رسالتهم، وحطوا مكانتها، وشابوا معدنها بركام هائل من الأهواء والأوهام في مجالي العلم والعمل على السواء، وأفرطوا في الأخذ بأسباب السيادة والقيادة، وأهملوا النظر في السنن الإلهية والبصائر القرآنية، وظنوا أن إصلاح الحاضر واستشراف المستقبل بالأماني المعسولة: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

والحاصل أن الأصل في نظام الكون عدُّ الأسباب مع التوكل على الله تعالى، إلا أن يكون هناك سبب، فلا مناص من التعلق المحض بمحض التوكل على الله تعالى، والتباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة، وجهل بسنة الله تعالى، والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عز وجل لا يناقض التوكل، فما على المسلم إلا أن يأوي إلى المُسبِّب، فهو الركن الشديد، والسند القوي، بعد أن يأخذ بالأسباب الممدودة له من يد الله، وبذلك يكون ذهابه إلى الحق هو ذهاب المُضطر، لا ذهاب الكسول عن الأخذ بالأسباب.

وخلاصة الكلام: لئن سبق القول على أن الله تعالى قد جعل لكل شيء أسبابًا تؤثر في مجراه، فإنه على المسلم أن يأخذ بالأسباب، ولا يعتقد أنها هي الفاعلة المؤثرة بنفسها، وأنها تنفع وتضر بذاتها، بل إنها تؤثر بتسخير الله تعالى وتيسيره لها.

وختامًا إن لله تعالى في خلقه سننًا ثابتة ومنتظمة ومحكمة ومطردة، ترتبط فيها الأسباب والمسببات، والعلل والمعلولات، والمقدمات والنتائج، ارتباطًا وثيقًا: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: من الآية ٤٣].

---

[1] ركائز الإيمان، محمد الغزالي، ٤٠٨.

المطلب الثالث: سنة الاختلاف.

أولاً: مفهوم الاختلاف وتأصيله.

١ - معنى الاختلاف.

أ - الاختلاف لغة: نقيض الاتفاق، واختلف الأمران لم يتفقا، وكل ما لم يتساوَ فقد اختلف. والخلاف: المضادة، وخالفه إلى الشيء عصاه إليه أو قصده بعد أن نهاه عنه[١].

ويستعمل الاختلاف عند الفقهاء بمعناه اللغوي وكذلك الخلاف.

ب - الاختلاف اصطلاحًا: عرفه الدكتور طه جابر العلواني بقوله: "الاختلاف والمخالفة أن ينهج كل شخص طريقًا مغايرًا للآخر في حاله أو في قوله"[٢].

٢ - تأصيل الاختلاف.

يقول الله عز وجل: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣)﴾[سورة البقرة]. فهذه الآية الكريمة تقر وقوع الاختلاف بين الناس وبين الذين آمنوا، لكن يجب أن يقوم هذا الاختلاف بالدور المعرفي والمعنوي في حياة المسلمين حتى يعود عليهم بالخير والعزة والمنعة، لا بالفرقة والخلاف والتنازع وذهاب قوتهم ومنعتهم.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ (الروم: ٢٢). في هذه الآية الكريمة إقرار لواقع معروف غير منكر، بل بيان لسنة من سنن الله في الكون، وهي اختلاف لغات الناس وألوانهم؛ فاختلاف

---

[١] انظر: لسان العرب، مادة: خلف، ٩/ ٩٠.

[٢] أدب الاختلاف في الإسلام، طه جابر فياض العلواني، ٢١.

الألسنة والألوان يعني: اختلاف اللغات والأجسام، ما ينتج عنه اختلاف التصورات والأفكار، والمدارك والعقول.

قال الإمام الزمخشري (٥٣٨هـ/ ١١٤٣م)-رحمه الله-: "الألسنة: اللغات أو أجناس النطق وأشكاله. خالف عزّ وعلا بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس واحد، ولا جهارة، ولا حدّة، ولا رخاوة، ولا فصاحة، ولا لكنة، ولا نظم، ولا أسلوب، ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله، وكذلك الصور وتخطيطها، والألوان وتنويعها، ولاختلاف ذلك وقع التعارف، وإلا فلو اتفقت وتشاكلت وكانت ضربا واحدا لوقع التجاهل والالتباس، ولتعطلت مصالح كثيرة، وربما رأيت توأمين يشتبهان في الحلية، فيعروك الخطأ في التمييز بينهما، وتعرف حكمة الله في المخالفة بين الحلىّ وفي ذلك آية بينة؛ حيث ولدوا من أب واحد، وفرّعوا من أصل فذ، وهم على الكثرة التي لا يعلمها إلا الله مختلفون متفاوتون"[1].

ويقول الشيخ السعدي –رحمه الله-:"﴿اخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ على كثرتكم وتباينكم مع أن الأصل واحد، ومخارج الحروف واحدة، ومع ذلك لا تجد صوتين متفقين من كل وجه ولا لونين متشابهين من كل وجه إلا وتجد من الفرق بين ذلك ما به يحصل التمييز. وهذا دال على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته.

ومن عنايته بعباده ورحمته بهم أن قدر ذلك الاختلاف لئلا يقع التشابه فيحصل الاضطراب ويفوت كثير من المقاصد والمطالب"[2].

وفي آية أخرى قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤)﴾[سورة النحل]. وانطلاقًا من الآية الكريمة، فالاختلاف طبيعة بشرية وسنة إلهية، لكن عندما يدرك المرء الحق، ويتبين له الصواب يجب أن يخضع له وينقاد له.

---

[1] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ٣/ ٤٧٣.

[2] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، ٦٣٩.

لقد تبين مما سبق "أن الله تعالى خلق الناس مختلفين في المواهب والقدرات، إلى جانب اختلافهم في الألسنة والألوان، وذلك يفضي إلى تعدد الآراء والأحكام، وهذا الاختلاف ضروري لبناء الكون وازدهاره؛ إذ إن قيام الحياة لا يتحقق لو أن البشر خلقوا سواسية في كل شيء، فاختلاف أفكارهم أمر فطري وسنة إلهية ماضية.

فالاختلاف في الفكر سنة إلهية، وأما الاختلاف في العقيدة (أصول الدين)؛ فالسنة الإلهية لا تقتضي الاختلاف فيها، وإنما جاء الاختلاف بغيًا وعدوانًا على فطرة الله التي فطر الناس عليها، لقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة: ٢١٣). فالدين واحد، وعندما اختلف الناس في أمره لطول العهد أو لتشعبهم وتباعدهم أو لاتباع أهوائهم، بعث الله إليهم رسلاً وكتبًا. وبهذه الرسل والكتب انقسموا إلى قسمين: قسم ازداد في اختلافه بغيًّا، وقسم آخر هداه الله تعالى فرجع أمة واحدة.

إذن، فاختلاف الناس في الفكر سنة إلهية ماضية لبناء الحياة وتعارف الناس، وأما اختلافهم في الدين فهو مخالف لفطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها، وهذا هو الاختلاف المذموم الذي نهى عنه الله تعالى وحذر من عواقبه.

فسنة الله تعالى في الاختلاف المذموم أن يجعل أهله في ضعف وفُرقة، بل يهلك أصحابه، ولا يجمع الناس إلا دين إلهي يحتوي اختلاف المدارك والعقول، بمرونته وقابليته المستمرة في جميع الأمكنة والأزمنة، ولا يوجد دين هذه صفاته وخصائصه سوى دين الإسلام"[١].

---

[١] سنن الطبيعة والمجتمع في القرآن الكريم، بكار جاسم، ٣٢٣ وما بعدها.

أما في السنة النبوية الشريفة فقد أقر النبي ﷺ سنة الاختلاف في قوله: «إِنِّي وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لاَ أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلاَّ أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَتَحَلَّلْتُهَا»[١].

وإذا وقفنا عند الاختلاف في عصر النبوة والتنزيل يتبين لنا جواز الاختلاف في الاجتهادات الفقهية مثل قصة تأبير النخل، وفي الاجتهادات العسكرية مثل مكان موقعة بدر، وحفر الخندق، وفي الاجتهادات السياسية مثل ما دار بين النبي ﷺ والذين معه في صلح الحديبية وغيرها، وما دار في سقيفة بني ساعدة حول الإمامة بعد وفاة رسول الله ﷺ.

والحاصل أن المؤمنين عبروا عن آرائهم بكل حرية في عهد التنزيل والخلافة الراشدة ولم يمنع رسول الله ﷺ أحدًا من إبداء رأيه المخالف، سواء أكان من وزرائه أم من قادة جيشه أم من غيرهم من المؤمنين، وإنه ﷺ أخذ باجتهاداتهم إلا إذا تعارضت مع الوحي المنزل. وهذا دليل عملي من رسول الله ﷺ على جواز الاختلاف الفقهي والسياسي، بل حتى العقدي[٢] بين المؤمنين ما دامت له حدود شرعية، وضوابط صحيحة، ومقاصد معلومة.

بل لقد وجد الاختلاف حتى عند الملائكة في قصة قاتل المائة نفس الذي اختلفت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب كما وردت في الصحيحين، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام اختلفوا، فاختلف موسى مع هارون، وموسى والخضر، واختلف الصحابة رضي الله عنهم في تأويل أمر رسول الله ﷺ لهم: « لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ» فَأَدْرَكَ بَعْضُهُمُ العَصْرَ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ نُصَلِّي، لَمْ يُرِدْ مِنَّا ذَلِكَ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ [٣]، "وظاهر من هذا الحديث الشريف أن الصحابة ﵃

---

[١] صحيح البخاري، كتاب كفارات الأيمان، باب الكفارة قبل الحنث، ح٦٣٤٢؛ صحيح مسلم، كتاب الأيمان، باب نذر من حلف يمينا فرأى غيرها خيرا منها أن يأتي الذي هو خير ويكفر عن يمينه، ح١٦٤٩.

[٢] وأقصد بالعقدي اختلاف تفسيرات المسلمين لنصوص الإيمان الإسلامية، كما اختلفت الأشعرية والماتريدية والكُلابية وغيرها من الفرق الإسلامية في تأويل النصوص المتعلقة بأبواب الإيمان.

[٣] صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم، ح٣٨٩٣؛ صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب المبادرة بالغزو وتقديم أهم الأمرين المتعارضين، ح١٧٧٠.

انقسموا إلى فريقين في موقفهم من أداء صلاة العصر: فريق أخذ بظاهر اللفظ أو ما يسميه أصوليو الحنفية بـ"عبارة النص"، وفريق استنبط من النص معنى خصصه به. وتصويب رسول الله ﷺ للفريقين دليل على مشروعية كل من المذهبين"[١].

واختلف كبار الصحابة من الخلفاء الراشدين في بعض القضايا، لكنهم كانوا إخوانا وعلى بناء صرح الأمة ونشر الإسلام أعوانا، كما كانت للصحابة مدارس فقهية، مدرسة ابن عمر، ومدرسة ابن عباس، وغيرهما... وكان للإمام الشافعي مذهب في مصر، ولما ذهب إلى العراق كان له مذهب آخر، وغيره من الأئمة.

يقول الدكتور العلواني: "لقد اختلف الأئمة في كثير من الأمور الاجتهادية، كما اختلف الصحابة والتابعون قبلهم، وهم جميعًا على الهدى ما دام الاختلاف لم ينجم عن هوى أو شهوة أو رغبة في الشقاق، فقد كان الواحد منهم يبذل جهده وما وفي وسعه ولا هدف له إلا إصابة الحق وإرضاء الله جل شأنه؛ ولذلك فإن أهل العلم في سائر الأعصار كانوا يقبلون فتاوى المفتين في المسائل الاجتهادية ماداموا مؤهلين، فيصوبون المصيب، ويستغفرون للمخطئ، ويحسنون الظن بالجميع، ويسلمون بقضاء القضاء على أي مذهب كانوا، ويعمل القضاء بخلاف مذاهبهم عند الحاجة من غير إحساس بالحرج أو انطواء على قول بعينه، فالكل يستقي من ذلك النبع وان اختلفت الدلائل، وكثيرًا ما يصدون اختياراتهم بنحو قولهم: «هذا أحوط» أو «أحسن» أو «هذا ما ينبغي» أو «نكره هذا» أو «لا يعجبني» فلا تضييق ولا اتهام، ولا حجر على رأي له من النص مستند، بل يسر وسهولة، وانفتاح على الناس لتيسير أمورهم"[٢].

ويقول الإمام ابن قيم الجوزية -رحمه الله-: "ووقوع الاختلاف بين الناس أمر ضروري لابدَّ منه لتفاوت إرادتهم وأفهامهم وقوى إدراكهم، ولكن المذموم بغي بعضهم على بعض وعدوانه، وإلا فإذا كان الاختلاف على وجه لا يؤدي إلى التباين والتحزب وكل من المختلفين

---

[١] أدب الاختلاف في الإسلام، طه جابر العلواني، ٣٤-٣٥.

[٢] المرجع نفسه، ١١٦.

قصده طاعة الله ورسوله لم يضر ذلك الاختلاف، فإنه أمر لابدَّ منه في النشأة الإنسانية، ولكن إذا كان الأصل واحدًا، والغاية المطلوبة واحدة، والطريق المسلوكة واحدة، لم يكد يقع اختلاف، وإن وقع كان اختلافًا لا يضر، كما تقدم من اختلاف الصحابة، فإن الأصل الذي بنوا عليه واحد، وهو: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والقصد واحد، وهو: طاعة الله ورسوله، والطريق واحد، وهو: النظر في أدلة القرآن والسنة، وتقديمها على كل قول ورأي وقياس وذوق وسياسة"[١].

أضف إلى كل ما سبق "أن من حقائق الكون اختلاف الأشياء وتنوعها وتعددها، والإنسان كجزء من هذا الكون ينطبق عليه هذا الاختلاف والتنوع والتعدد، بل إن الاختلاف فيه كأقوى ما يكون من بين مخلوقات الله المتعددة؛ ذلك لأنه يتميز بالعقل والمعرفة والإدراك، وهي لا يمكن تلاقيها على نسق واحد بين اثنين، فلكل عقله وعلمه الخاص به، وإدراكه للأشياء بالطريقة التي تناسب عقله وعلمه، ومن هذا الاختلاف نشأت الأفكار والفلسفات والعلوم المختلفة"[٢].

ثانيًا: الاختلاف والأمر القدري الكوني.

لقد قضت سنَّة الله سبحانه وتعالى في خلقه أن يكونوا مختلفين في المقدرات العقلية والبدنية؛ ليكون بعضهم في خدمة بعض، فيتحقق بذلك التكامل بين الخلق إن اجتمعوا، ونبهنا سبحانه وتعالى ألطف تنبيه على ما في سنة الاختلاف المركونة في الفطرة من الحكمة البالغة فقال تبارك وتعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)﴾ [الزخرف]. قال الزمخشري: "فاوت بينهم في أسباب العيش، وغاير بين منازلهم، فجعل منهم أقوياء وضعفاء، وأغنياء ومحاويج، وموالي وخدما؛ ليصرف بعضهم بعضًا في حوائجهم، ويستخدموهم في مهنهم، ويتسخروهم في أشغالهم، حتى يتعايشوا

---

[١] الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، ٢/ ٥١٩.

[٢] الإسلام دين الإنسانية، عبد الرشيد سالم، ٤٤٩.

ويترافدوا، ويصلوا إلى منافعهم ويحصلوا على مرافقهم، ولو وكلهم إلى أنفسهم وولاهم تدبير أمرهم، لضاعوا وهلكوا"[١].

وبناء عليه، فإن الاختلاف ضرورة لازمة للاجتماع البشري، ولو كان الناس في صورة مكررة في الخلق والفكر والعقل لاستغنى بعضهم عن بعض، ولتعطلت المصالح، وتوقفت المقاصد، وفسد نظام الدنيا، فاقتضت سنة الله تعالى وحكمته الأزلية أن يكون الناس في اختلاف وفق أمره القدري الكوني، فقال تعالى: ﴿ولَو شَاء ربُّكَ لَجعلَ النَّاسَ أمَّةً واحِدةً ولاَ يزَالُونَ مُختَلِفينَ * إلاَّ مَن رَّحمَ ربُّكَ ولذَلكَ خَلقَهُم﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

الاختلاف سنة كونية وقدر واقع لا محالة بمشيئة الله الكونية، والقدر الكوني إن كان شرًّا فيجب أن يسعى الإنسان للخروج منه وعدم الوقوع فيه، كالكفر فهو قدر كوني حكم الله بوجوده كونًا، ومع ذلك واجب على كل إنسان أن يجتنبه وكذلك المعاصي، وكل ذلك مقدر شاء الله وقوعه كونًا بناء على علمه باختيار الإنسان، فالله عز وجل وهب خلقه مشيئة واختيارًا خاضعة لمشيئة الله مع علمه باختيارهم وكتابته له وتقدير كونه منهم.

فالخلاف قد يكون قدرًا كونيًّا فيه شر ولا يخلو من خير -فالله لا يخلق شرًّا محضًا- فلا يستسلم له العبد بل يقاومه بالقدر، فإن لم يزله خفف من آثاره وخرج بأقل أضراره[٢].

والاختلاف وجد منذ بداية الخلق، فخلقَ الله سبحانه وتعالى الحزَن والسهل، والأصفر والأحمر، والأسود والأبيض... فعَن أَبِي مُوسَى الأَشعَرِيِّ قالَ: قالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: «إنَّ اللهَّ تعالى خلقَ آدمَ مِن قَبضةٍ قَبضَها مِن جَميعِ الأَرضِ، فجاءَ بنُو آدمَ على قَدْرِ الأَرضِ، فجاءَ منهُم الأَحمَرُ والأَبيَضُ والأَسوَدُ وبَينَ ذلكَ والسَّهلُ والحَزْنُ والخَبيثُ والطَّيِّبُ»[٣].

[١] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ٤/ ٢٤٨.

[٢] الاختلاف في العمل الإسلامي الأسباب والآثار، ناصر بن سليمان العمر، كتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية.

[٣] سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب سورة البقرة، ح٢٩٥٥.

وعليه، فالإسلام لا يريد من الأشخاص أن يكونوا متطابقين إلى درجة زوال الفروق الفردية بينهم، ولا يريد منهم أن يكونوا نسخًا طبق الأصل بعضهم لبعض، وكذلك لا يريد منهم أن يكونوا متنافرين متنازعين متناحرين متشاحنين بحيث يصبحوا أعداء، لكن المطلوب أن يتقارب المسلم مع أخيه المسلم ويتعاون ويتحاور فلا يغلوا ولا يقصر، وهذا في كل مجالات الحياة، فلابد من الاختلاف ولم يعصم منه أحد من قبل ولا من بعد؛ فقد اختلف الصحابة الكرام ﷺ في عدد من القضايا، واختلف الأئمة الكبار وعلى رأسهم الأئمة الأربعة، لكنه كان اختلافًا تفاعليًّا حيويًّا طبيعيًّا، وصورة راقية لتنوع الأفهام وتباين الآراء، وكان خلافًا في أحكام فرعية ولم يكن في أصول الدين، واستمرت سنة الاختلاف حتى أصبحت في عصور الانحطاط وفي عصرنا الحاضر تعصبًا أعمى وتقديسًا، للآراء، وحظًّا من حظوظ النفس، وزورق التناحر والتنابز بالألقاب وتبادل الشتائم والتبديع والتكفير، وتحوّل الأمر من اختلاف فكري وفقهي وسياسي إلى اختلاف نفسي وروحي وعنصري؛ فأبغض بعضنا بعضًا، وشتم بعضنا بعضًا؛ لأننا لم نفهم بعد أدب الاختلاف، وأنه عنصر حيوي في جسم الأمة، وأنه يؤسس لفلسفة إسلامية متميزة في رؤية الكون والحياة، ولم يدرك هؤلاء المتعصبون أن الاختلاف سنة إلهية كونية ثابتة ومطردة في سائر عوالم المخلوقات من الجماد إلى النبات إلى الحيوان إلى الإنسان وعوالم الأفكار. فالإنسانية التي خلقها الله من نفس واحدة تتنوع إلى شعوب وقبائل وأمم وأجناس وألوان وثقافات وحضارات، وكذلك إلى شرائع في إطار الدين الواحد، والمشترك الإنساني الواحد. فالدين واحد والشرائع مختلفة من آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد ﷺ.

إن أصل الاختلاف الفكري والعلمي والسياسي والفقهي طبيعي، بل ضروري في الحياة يضفي عليها حركة مستمرة، وهو حق مشروع ما دام للإنسان عقل يفكر به، ويعبر عن رأيه وفكره. فالبشر فيهم من الاختلاف والتنوع ما جعله الله سبحانه وتعالى سنة للحياة وعلامة على استمرارها إلى أجلها الذي قدره الله لها، فلقد خلق الله من كل شيء مقابلاً له يختلف عنه ليتحقق التكامل المنشود في الكون والحياة.

يقول الله تبارك وتعالى في سورة الذاريات: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩)﴾، ويقول عز من قائل: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (سورة هود: ١١٨)، وحتى اختلاف الألسن والألوان، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾(سورة الروم: ٢٢)، والحياة بدون اختلاف بناء ومثمر تصبح كحمار الرحى رتيبة مملة، وتخيل أن كل شيء في الحياة مثل بعضه: أشكال الناس وصورهم وكلماتهم، ولباسهم، وحركاتهم وتصرفاتهم، الطرق والبيوت والأشجار والأحجار، كلها لو كانت نمطًا واحدًا لكانت مكررة مكروهة: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣)﴾[سورة القصص].

لكن الاختلاف المنهي عنه هو الاختلاف المذموم الذي يؤدي إلى التناحر والتنازع وانقسام الصف المسلم؛ لذلك كان ﷺ يجتث بذرة هذا النوع من الاختلاف قبل أن تتنامى، ويقول لأصحابه: «لاَ تَخْتَلِفُوا، فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا»[1].

ثالثًا: الاختلاف والأمر الشرعي الديني.

إن الأمر القدري الكوني يقتضي أن يكون الناس مختلفين، وأما أمره الشرعي الديني فيوجه الناس إلى الائتلاف والتوحد والابتعاد عن الفرقة والتشرذم. قال الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

---

[1] صحيح البخاري، كتاب الخصومات، بَابُ مَا يُذْكَرُ فِي الإِشْخَاصِ وَالخُصُومَةِ بَيْنَ المُسْلِمِ وَاليَهُودِ، ح٢٢٧٩.

قال صاحب المنار: " فالاعتصام بحبل الله هو الأصل وبه يكون الاجتماع والاتحاد الذي يجعل الأمة كالشخص الواحد، والدعوة إلى الخير هي التي تغذو هذه الوحدة وتمدها وتنميها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقوم به أمة قوية هو الذي يحفظها ويؤيدها ويشد أزرها. قال الأستاذ الإمام: إن هذه الآية كالدليل على أنه يجب أن تكون وجهة الأمة الداعية الآمرة الناهية واحدة ؛ لأن الذين سبقوهم ما أفلحوا لعدم وحدتهم، كأنه يقول: لا يمكن أن تتكون فيكم أمة للدعوة والأمر والنهي إلا إذا اجتمعت على مقصد واحد، فالترتيب في الآيات طبيعي؛ إذ من البديهي أن المتفقين في المقصد لا يختلفون اختلافا ضارا ينافيه، وإنما يقع الاختلاف بعد التفرق في المقاصد والتباين في الأهواء بذهاب كل إلى تأييد مقصده وإرضاء هواه فيه، والاختلاف في الرأي لأجل تأييد المقصد المتفق عليه لا يضر بل ينفع، وهو طبيعي لا مندوحة عنه"[1].

وقال العلامة محمد أبو زهرة –رحمه الله-: "وقد ذكر سبحانه أن الأمر بالاعتصام لَا يؤدي غايته وحقيقته إلا إذا اعتصمت الأمة جميعها؛ ولذلك قال سبحانه: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا)؛ أي كونوا جميعًا مستمسكين به؛ وذلك لأن هذا الدين كل لَا يقبل التجزئة، والجماعة الإسلامية كل وطائفة واحدة، وكلمة (جَمِيعًا) يصح أن تكون حالا من الواو، ويصح أن تكون حالاً من حبل الله تعالى، وعلى الأول يكون المعنى كونوا جميعًا مستمسكين بحبل الله، ولا يصح أن ينفصل منكم طائفة لَا تأخذ بذلك الحبل؛ لأن الشيطان ينفذ إليكم عن طريق هذه الطائفة التي شذت وعصت أمر ربها.

وعلى أن كلمة (جَمِيعًا) حال من حبل الله، يكون المعنى خذوا بالقرآن كله، ولا تجعلوه عضين تؤمنون ببعضه وتكفرون ببعضه أو خذوا بشريعته كلها ولا تأخذوا بجزء منها دون جزء، فإنها كل لَا يقبل التجزئة.

---

[1] تفسير المنار، ٤-٣٩.

والأمران مرادان معًا، فإن مقتضى النص أن نأخذ جميعًا بالشريعة كلها، لا نفرق بينها، ولا نتفرق في أمرها؛ ولذا قال سبحانه: (وَلا تَفَرَّقُوا)؛ أي لَا تتفرقوا في أنفسكم، فلا يضرب بعضكم رقاب بعض، ولا تتنادوا بنداء الجاهلية، ولا تتفرقوا في دينكم، فتذهبوا في فهمه شيعًا وفرقًا مختلفة، فتضلوا عن سبيل الله، ولا شيء يذهب بنور الحق المبين أكثر من اختلاف الأنظار في فهمه وإدراكه، والنظر إليه بروح التعصب الذي يغفل عن الاتجاه إلى الحق في كل جوانبه"[1]، وعليه؛ فإن الاختلاف بوجهات النظر بدل أن يكون ظاهرة صحة تغني العقل المسلم بخصوبة في الرأي، والاطلاع على عدد من وجهات النظر، ورؤية الأمور من أبعادها وزواياها كلها، وإضافة عقول إلى عقل، انقلب عند مسلم عصر التخلف إلى وسيلة للتآكل الداخلي والإنهاك، وفرصة للاقتتال، حتى كاد الأمر أن نصل ببعض المختلفين إلى حد التصفية الجسدية، وإلى الاستنصار والتقوي بأعداء الدين على صاحب الرأي المخالف؛ ولهذا في التاريخ القريب والبعيد شواهد، فكثيرا ما يعجز الإنسان عن النظرة الكلية السوية للأمور، والرؤية الشاملة للأبعاد المتعددة فيقبع وراء جزئية يضخمها ويكبرها حتى تستغرقه إلى درجة لا يمكن معها أن يرى شيئًا آخر، أو إنسانًا يرى رأيًا آخر، وقد تصل به أن يرى بمقايسات محزنة أعداء الدين أقرب إليه من المخالفين له بالرأي من المسلمين الذين يلتقون معه على أصول العقيدة نفسها...[2].

ولعل مرد معظم اختلافاتنا اليوم إلى عوج في الفهم تورثه علل النفوس من الكبر والعجب بالرأي، والطواف حول الذات والافتتان بها، واعتقاد أن الصواب والزعامة وبناء الكيان إنما يكون باتهام الآخرين بالحق وبالباطل، الأمر الذي قد يتطور حتى يصل إلى فجور في الخصومة والعياذ بالله تعالى.

إننا قلما ننظر إلى الداخل؛ لأن الانشغال بعيوب الناس، والتشهير بها، والإسقاط عليها، لم يدع لنا فرصة التأمل في بنائنا الداخلي.

---

[1] زهرة التفاسير، ٣/ ١٣٣٩-١٣٤٠.

[2] أدب الاختلاف في الإسلام، طه جابر العلواني، ١١.

لقد اختلف السلف الصالح ﷺ، لكن اختلافهم في الرأي لم يكن سببًا لافتراقهم، إنهم اختلفوا لكنهم لم يتفرقوا؛ لأن وحدة القلوب كانت أكبر من أن ينال منها شيء، إنهم تخلصوا من العلل النفسية وإن أصيب بعضهم بخطأ الجوارح، وكان الرجل الذي بشر رسول الله ﷺ الصحابة ﷺ بطلعته عليهم وأخبرهم أنه من أهل الجنة، هو الذي استكنهوا أمره وعمله، فتبين أنه لا ينام وفي قلبه غل على مسلم... أما نحن اليوم فمصيبتنا في نفوسنا وقلوبنا؛ لذلك فإن معظم مظاهر التوحد والدعوة إليه والانتصار له إنما هي عبارة عن مخادعة للنفس، ومظاهر خارجية قد لا نختلف فيها كثيرًا عن غيرنا.

إن أزمتنا أزمة فكر، ومشكلتنا في عدم صدق الانتماء، والأمة المسلمة عندما سلم لها عالم أفكارها، وكانت المشروعية العليا الأساسية في حياتها للكتاب والسنة استطاعت أن تحمل رسالة وتقيم حضارة على الرغم من شظف العيش وقسوة الظروف المادية، فكان مع العسر يسر؛ ذلك أن الحيدة عن الكتاب والسنة موقع في التنازع والفشل.

لقد أوقف الإسلام التشرذم والتآكل الداخلي ووجه العرب وجهة الإله الواحد الحق وألغى الآلهة المزيفة؛ حيث كان لكل قبيلة إلهها الذي تتجه إليه. أما المسلمون اليوم في مواقعهم الكثيرة فإنهم لا يشكون من قلة المادة وتوفر الأشياء، ومع ذلك انقلبوا إلى أمة مستهلكة على مستوى الأفكار والأشياء معًا؛ لأنهم افتقدوا المعاني الجامعة والقواسم المشتركة، وغابت عنهم المشروعية الكبرى في حياتهم، وأصاب الخلل بنيتهم الفكرية[1].

إن على الأمة اليوم أن تدرك أن المشكلة ليست في الاختلاف الذي قدر على كل أمة نصيب منه، لكن المشكلة في كيف نواجه ونرد هذا القدر بقدر مثله وتوجيهه وتفعليه ليكون عنصر حيوية ونشاط وتعددية في الأمة، لا عنصر تفرقها وتشرذمها وتعصبها وتمزقها كما هو حالها اليوم.

---

[1] المرجع نفسه.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا –صاحب المنار في بيانه كيفية تدبير مبدأ الاختلاف في قاعدة ذهبية نفيسة: "نتعاون فيما اتفقنا عليه، وليعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه"[١]، إنها قاعدة نفيسة لم يضعها الشيخ رضا من فراغ، بل استنبطها من هدي القرآن الكريم والسنة النبوية، وآراء علماء الأمة وفقهائها، وإملاء الواقع وظروفه وضروراته، وحاجة الأمة المسلمة إلى الوحدة والائتلاف والتعاون والتفاهم والتآزر والتساند والوحدة في مواجهة أعدائها، وبناء كيانها، واستشراف مستقبلها، ومعنى القاعدة: أن نتعاون فيما اتفقنا عليه من الخير للنهوض بالأمة لتكون كما أراد لها رب العزة –جل جلاله– أمة الخيرية والوسطية والشهادة على الأمم... وليعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه من الفروع والمتغيرات من مسائل الدين وقضاياه.. ما دام للمخالف مستند يعتمد عليه، ويطمئن إليه، وإن خالفناه نحن في ترجيح ما رجحه؛ "إذ الاختلاف لا يفسد للود قضية".

ولذلك يجب أن يكون الاختلاف أخلاقيًا ما دام سنة إلهية في الكون والحياة، وأن نتعامل معه بعقلانية وذكاء لتوظيفه في التيسير على الناس والتوسعة عليهم ورفع الحرج عنهم، لا للتشديد عليهم وتضييق الخناق عليهم وحصارهم، كأنهم آلات إلكترونية مبرمجة.

ولنا في سيدنا رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فلنسمع ماذا يقول ﷺ عن حلف الفضول الذي كان زمن الجاهلية: «لو دعيت إليه اليوم لأجبت»[٢].. إنه الفهم السديد لسنة الله في الاختلاف، فلم يكن ﷺ متعصبًا لرأي أبدًا. فالأصول لا اختلاف فيها بين جميع المسلمين، وأما الفروع والمتغيرات فهي من رحمة الله بالأمة.

إننا حين نفسح المجال لكل الآراء أن تتحدث، وحين نفتح المجال للحوار البناء، والجدال بالتي هي أحسن، فسوف تطرد العملة الصحيحة كل عملة مزيفة، وسوف تسود الأخوة والألفة ويتفيأ المجتمع كله ظلالها الوارفة، ويكون فيها الخير للجميع.

---

[١] "دعاية الرفض والخرافات والتفريق بين المسلمين"، مجلة المنار، ربيع الآخر ١٣٤٧هـ، المجلد: ٢٩، ٤٢٤.

[٢] أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس المكي الفاكهي، ٢/ ٢٥٧.

لكن حين تضيق صدورنا وتستريب أنفسنا من كل صاحب رأي يختلف معنا في الرأي، ونسعى بكل جهد لتكريس أنموذج واحد للفهم والتفكير، وحشر الدماغ بحجم الململمتر، ونخنق أنفاس الآخرين، فسوف يكون ذلك وبالاً علينا، ونكون أول من يختنق بذلك باختناقنا أنفاس الآخرين؛ ذلك بأن السفينة حين تغرق لا تستثني أحدًا، فعلى العقلاء وأصحاب الرأي أن يتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منهم خاصة.

فلننظر إلى الغرب -(أمريكا وأوروبا)- كيف استغل الاختلاف الهائل في مجتمعه، وحوله إلى صورة إيجابية، فإنه طور نفسه معها في كل الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتعليمية والثقافية، وأنشأ تعددية صحية تساعد على وحدته وقوته وتماسك كيانه والحفاظ على مصالحه.

ولا نذهب بعيدًا، فننظر إلى المحتل الصهيوني الذي انقسم إلى يمين معتدل، ويمين متطرف، ويسار، ولكنها عندما تجتمع هذه الأحزاب اليهودية الصهيونية في "الكنيست"، توظف تلك الخلافات بينها لمصلحة حاضر كيانها الصهيوني ومستقبله.

في حين انشغل بعض المسلمين ببعضهم، وتتبعوا عورات بعضهم، وخاض بعضهم في عرض بعض، بل أصبح الاختلاف عندهم مَرَضيًّا في السياسة والعلم والفكر والثقافة في كل شيء، وتعاملوا بسلبية مَقيتة أدت إلى تخلفهم في الكثير من المجالات العلمية والفكرية والسياسية والثقافية والتربوية والإبداعية والإشعاعية، فزاد الشرخ اتساعًا، والجسد تمزقًا، والقلوب تفرقًا.

فصار الأعداء يتوحدون ويتكتلون، والمسلمون يتفرقون ولا يتوحدون. والأصل فيهم التوحد، ويتمزقون ولا يتكتلون، والأصل فيهم التكتل، كل وحدة من وحداتهم تؤول إلى وحدات، وكل دولة إلى دويلات، حتى ضيعوا قوتهم وأهلكوا أنفسهم، ومكنوا لأعدائهم بأيديهم، ثم ينتظرون نصرًا خارقًا للعادة، ويقول لسان حالهم: متى نصر الله؟ وتجيبهم سنن الله الثابتة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد:٧)

﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]. إن تنصروا الله بوحدتكم واجتماع قلوبكم والتعاون بينكم ومحبة بعضكم لبعض، وقبولكم للآخر وإن اختلف معكم في الرأي، ينصركم الله ويمكن لكم في الأرض ويقذف الرعب في قلوب أعدائكم... فهذه بتلك والجزاء من جنس العمل.

ففي اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم، وتوحد صفهم، وتقبلهم لآراء بعضهم، يصلح دينهم وتصلح دنياهم، ويحققون من الأمور ما لم يحققوه في الفرقة والتشرذم، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالتفرق شذر مذر، وبغضهم بعضهم بعضا، وعدم تقبل الرأي الآخر، يختل نظامهم وتنقطع روابطهم ويصير كل واحد يسعى في شهوة نفسه، والتعصب لرأيه، ولو أدى إلى الضرر بالأمة.

وغاية المرام: إن الأمر القدري الكوني قضى بأن يكون الناس مختلفين، لكن سنته الشرعية الدينية أمرت بأن يعتصموا بحبل الله المتين، وأن يجعلوا من اختلافاتهم قنطرة إلى ائتلافهم لبناء العمران وتحقيق الاستخلاف والشهود الحضاري.

خاتمة

لقد مر علم السنن الإلهية بمراحل تاريخية مهمة، أولها مرحلة الوحي؛ التي رسمت خارطة الحياة الإنسانية، وبينت سنن الهدى وسنن الله في الآفاق والأنفس، وحددت المقاصد والأهداف. هذه المرحلة التي أطلقت عليها : (مرحلة الوعي النظري والعملي بالسنن الإلهية)؛ ذلك لأنها لفتت الأنظار إلى السنن الإلهية من خلال نصوص الوحي (قرآنًا وسنة)، وكانت - هذه المرحلة- تجسيدًا عمليًّا لها -للسنن- متجليًّا في السيرة النبوية العطرة في كل مراحلها.

ثم تلتها مرحلة الخلافة الراشدة في تنزيلها العملي للسنن الإلهية على واقع الناس، وفي حفظها للدين وسياستها للدنيا من خلالها.

وانتقلت بعد ذلك إلى مرحلة (الوعي النظري بعلم السنن الإلهية) التي تجلت في مصنفات: ابن أبي الدنيا، وابن حزم، والغزالي، وابن تيمية، وابن القيم، وسيد قطب، ومصطفى المراغي، والطاهر بن عاشور، ومحمد أبو زهرة وغيرهم.

وأخيرًا مرحلة (محاولة التأسيس النظري لعلم السنن الإلهية) على يد ابن خلدون (سنن الاجتماع)، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، ثم مع ثلة من المفكرين والباحثين المعاصرين، ثم محاولتنا المتواضعة في هذا الكتاب. وهذه المرحلة الأخيرة متداخلة مع المرحلة السابقة.

هذه أهم النتائج العامة لهذه الدراسة، ونعقبها بعرض موجز لأهم النتائج الجزئية لها:

- إن علم السنن الإلهية لم يأخذ بعد حظه من البحث والدراسة كما هو الحال في باقي العلوم الإسلامية، على الرغم من شدة الحاجة إليه، وما يقدمه من حلول ناجعة للمشكلات العويصة التي تعيشها الأمة، وتفسيرات سديدة صحيحة للأحداث التاريخية والظواهر الاجتماعية والكونية المعاصرة.

- إن السنن الإلهية هي أقدار الله تعالى وأوامره وإرادته في تسيير الكون، وقوانينه التي تحكم سير الحياة وتصرفات الأفراد وسلوك الأمم.

- إن السنن الإلهية قائمة على مبدأ السببية، ولا تنافي القدر الإلهي والأمر الكوني والمشيئة الإلهية المطلقة.

- إن السنن الإلهية بعدِّ مجال تطبيقاتها تنقسم إلى أربعة أقسام: سنن الكون، وسنن السلوك الإنساني، وسنن الشرع، وسنن التأييد الإلهي.

- إن السنن الإلهية لا تجامل أحدًا ولا تحابي أي إنسان مهما علا شأوه ونسبه وارتفعت درجته، ولا تتوقف إذا توافرت شروطها، فهي ثابتة ومطردة ومستمرة ونافذة وصارمة كالمعادلات الرياضية، مما يؤكد عدالتها بين الناس.

- إن السنن الإلهية محكومة بأمر الله تعالى، مما يضفي عليها طابع الربانية والثبات والاطراد والشمول والعموم والكمال والوسطية والواقعية والأجل والتوازن والنفاذ، والاستمرارية.

- إن السنن الإلهية تتصف بصفات مستمدة من صفات القرآن الكريم المعجزة الخالدة، وهي أربعة؛ الصدق، العدل، العلو والرفعة، القول الفصل.

- إن للسنن الإلهية مقاصد نبيلة تجعلها صالحة لكل زمان ومكان إلى قيام الساعة، ومن ثم فهي دليل قاطع على وجود الله تعالى، وصدق نبوة سيدنا محمد ﷺ، وهي وسيلة ناجعة لتحقيق الخلافة وبناء العمران والإنسان والهداية إلى الصراط المستقيم والفوز والنجاة في الدار الآخرة.

- إن من أهم القواعد التي تتأسس عليها السنن الإلهية؛ التخفيف، واليُسر، والتدرج، ورفع الحرج، والتوبة والتطهير وتمام النعمة، وإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وإقامة الحجة على الناس بالبيان الواضح، والهداية لسنن السابقين، ونصرة المستضعفين.

- إن الاهتمام بعلم السنن الإلهية تفرضه وتوجبه دواعي عبادتنا لله تعالى، والدواعي التسخيرية والدواعي العمرانية الحضارية والدواعي الوظيفية المعرفية، فكل هذه الدواعي تجعل معرفة السنن من أوجب الواجبات وأولى الأولويات.

- إن القرآن الكريم والسنة النبوية قد استعملا أساليب متنوعة في عرض السنن الإلهية؛ كالكشف عنها في سياق ترتيب الأحكام الكونية والشرعية والثواب والعقاب على الأسباب، أو في سياق قصص السابقين أو الأمثال والتشبيهات أو في سياق ما يترتب عن الحكم الشرعي من نتائج؛ حيث قد يخالف الإنسان حكما شرعيا، فيترك الواجب أو يرتكب الحرام، أو يصيب ذنبا كبيرا، فيمهله الله تعالى ثم يعاقبه على مخالفته إما في الدنيا أو في الآخرة، ويعرضان السنة الإلهية في سياق الأساليب اللغوية العربية التي فصلناها في بابها.

- إن السنن الإلهية استلهام للعبر من الماضي، وإبصار للحاضر، واستشراف للمستقبل، ومن ثم فإن عدم إدراكها وكشفها هو انطفاء فاعلية وانحسار رؤية لإصلاح الحاضر وبنائه، والتخطيط للمستقبل واستشرافه، بل يشكل ذلك انحشارًا في زمرة من وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾[الحشر: ١٣]، لا يفقهون التاريخ، ولا يفهمون الحاضر، ولا ينظرون إلى مستقبل الأحداث والتحركات الاجتماعية ودلالاتها ومآلاتها.

هذا هو الفقه الأكبر (فقه الحياة)، وهذا هو علم السنن الإلهية الذي ما يزال غائبًا عن حياة الأمة ومغيبًا عن الساحة الاجتماعية والفكرية، والذي نحتاج إلى استدعائه من جديد؛ لبناء العقل المسلم والثقافة الإسلامية المعاصرة -وتجاوز طرح القضايا التقليدية التي ما نزال نبدي فيها ونعيد-؛ للخروج من التيه، والانعتاق من وهدة التخلف والركود والتراجع الحضاري، واسترداد الفاعلية، وإحياء الأمة، وتشييد صرح العمران الإسلامي.

وختامًا لابدَّ من تضافر جهود العلماء والمختصين والباحثين والمؤسسات والمراكز البحثية المتخصصة لدراسة السنن الإلهية والتأسيس العملي لها، وبثّ معرفتها في الأمة

الإسلامية، وبناء مناهج النهضة الإصلاحية في شتى مجالات الحياة على مقتضاها، حتى تتضح الصورة الصحيحة للإسلام، وسعيًّا للحصول على النتائج المثمرة الطيبة، وتجنبًا لما يحيق بالمعرضين عن هدي السنن من عواقب وخيمة في الدنيا والآخرة.

وأخيرًا أدعو الله جلَّ وعلا فأقول: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧).

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية
فهرس الأحاديث
فهرس الأعلام
فهرس المصادر والمراجع
فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقمها	السورة	الصفحة
فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ	١٠	البقرة	٨٢
قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ	١٤	البقرة	٨٣
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾	٣٠	البقرة	٩٦
﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى	٣٨	البقرة	٥١-١٧٧
﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ	٦٠	البقرة	٢٥٥
﴿وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ	١٠٥	البقرة	٢٥
﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ	١٢٦	البقرة	٢٢٤
﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾	١٢٧	البقرة	٢٧٦
﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا	١٤٣	البقرة	٧٨
فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ	١٥٢	البقرة	٢٢٥
﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ	١٥٦-١٥٧	البقرة	١١٣
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ	١٥٩	البقرة	١٧٥
﴿وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ	١٦٤	البقرة	٢٣٢
﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾	١٧٨	البقرة	١٠٨
﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ	١٨٥	البقرة	١٠٩-١٢٣
﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ	٢١٣	البقرة	٢٥٨-٢٦٠
﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ	٢١٤	البقرة	٦٤-٢١١

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾	٢٤٢	البقرة	١١٦
﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا	٢٤٥	البقرة	١٣٧
﴿وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ	٢٤٧	البقرة	٢٦
﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً	٢٤٩	البقرة	٥٢
﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ	٢٥٣	البقرة	١٧٦
﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ	٢٥٦	البقرة	١٧٧
﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ	٢٦٩	البقرة	٢٦-١٧٢
﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ	٢٧٢	البقرة	٢٦-١٧٦
﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ	٢٧٥	البقرة	١٨٧
يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ	٢٧٦	البقرة	١٨٧
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ	٢٧٨	البقرة	١٨٧
فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ	٢٧٩	البقرة	١٨٧
﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ	٢٨٤	البقرة	٢٦
﴿وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ	١٣	آل عمران	٥١
﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ	٢٦	آل عمران	١٧٢
﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ	٤٩	آل عمران	٥٢
﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ	٧٣	آل عمران	٢٦
﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ	٩٢	آل عمران	١٣٧-١٣٨
﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ	٩٦	آل عمران	٢٤٢
فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ	٩٧	آل عمران	٢٤٢
﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا	١٠٣	آل عمران	٢٦٦
﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ	١٢٣	آل عمران	٢٠٩-٢٤٧

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ	١٢٤	آل عمران	٥١-٢٤٧
بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ	١٢٥	آل عمران	٥١-٢٤٧
وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ	١٢٦	آل عمران	٢٤٧
لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا	١٢٧	آل عمران	٢٤٧
﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ...﴾	١٣٧	آل عمران	٧-١٧- ٣٨-٤٧- ٦٠-١٦٠- ١٦١-٢١١
﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى	١٣٨	آل عمران	٧-٦٦- ٢١١
﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ ...	١٣٩	آل عمران	٨٣
إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ	١٤٠	آل عمران	١٧٥-٢٠٩
وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ	١٤٥	آل عمران	٧٨
﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ	١٥٢	آل عمران	١٧٨- ٢٥١- ٢٥٢-٢٥٣
﴿فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾	١٥٩	آل عمران	١٥٩-٢٣٢
﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ	١٦٠	آل عمران	٢٠٩
﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا	١٦٥	آل عمران	٦٤-٢٥١
﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ	١٧٣	آل عمران	١٢٢
﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ	١٧٨	آل عمران	١٧٤
﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾	١٧٩	آل عمران	٢٦-١٧٩

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ	١٨٢	آل عمران	٢٥٧
﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ	٢٦	النساء	١٧-٤٨- ٤٩-١٢٣- ١٦٩
﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾	٢٧	النساء	١١٤-١٧٠
﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ	٢٨	النساء	١٠٨-١٢٣
﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾	٨٧	النساء	٧٩
﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ	٨٨	النساء	١٧٤
﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾	١٢٢	النساء	٢٥-٨٠
﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ	١٢٣	النساء	٦٢-٦٩- ٨٣-١٧٨
﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آَمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا	١٣٧	النساء	١٨٠
﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ	١٤٧	النساء	١١٣
﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ	١٦٥	النساء	١٧٥
﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾	٦	المائدة	١١٢- ١١٤- ١١٥-١٢٣
﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ	١٣	المائدة	٢٣٠
﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ	١٥	المائدة	٨٩-١١٨
﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ	١٦	المائدة	٨٩-١١٨- ٢٣٢
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَ	٤١	المائدة	١١٥

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا	٤٨	المائدة	٢٦
﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾	٥٠	المائدة	٨١
﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾	٥١	المائدة	١٧٧
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ	٥٤	المائدة	١٧٨
﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ...	٦٦	المائدة	٢٢٤
﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ	١١	الأنعام	٣٨-١٦٩
﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ	٣١	الأنعام	١٧٨
﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ	٣٣	الأنعام	١٧٦
﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾	٣٥	الأنعام	٢٦
﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾	٣٦	الأنعام	٨٨
﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ ...	٣٨	الأنعام	٦٧
﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ	٨٢	الأنعام	٢٢٤
﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ	٨٣	الأنعام	٢٦
﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ	١٠٤	الأنعام	١٢٨-١٧٧
﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ	١٠٥	الأنعام	٨٧
﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا	١١٥	الأنعام	٨٠-٨١
﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ	١٢٥	الأنعام	١٢٣
﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ	١٥٣	الأنعام	١٨٠
﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ	١٥٧	الأنعام	١١٧
﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا	٤٠	الأعراف	١٧٩
﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ	٥٤	الأعراف	٥٧
﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا	٩٦	الأعراف	-١٦٣

			-١٧٧
			٢٣٠-٢٢٤
﴿إِنَّ الْأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾	١٢٨	الأعراف	٢٦
﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ	١٣٧	الأعراف	١٢٠
﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ	١٤٦	الأعراف	١٣١
﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا	١٥٨	الأعراف	١٨٨
﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ ...	١٨٢	الأعراف	١١٢
﴿وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ	٧	الأنفال	١٧٥-١١٥
لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ	٨	الأنفال	١١٥
﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ	٩	الأنفال	٥١
﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ	١٣	الأنفال	١٧٤
﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾	١٨	الأنفال	٧٣
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ	٢٩	الأنفال	١٨٦
﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ...	٣٠	الأنفال	٢٤٥
﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا ...	٣٦	الأنفال	٢٢٤
﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ	٣٨	الأنفال	١٦٩-١٦
﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ	٤٢	الأنفال	١١٨
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا	٤٥	الأنفال	٢٣٤
﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها ...	٥٣	الأنفال	٢١٣-٥٤
﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ	٦٠	الأنفال	-١٨٠
			-٢٣٥
			٢٥٤-٢٤٥

﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ	٦٥	الأنفال	١٠٩
﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ	٦٦	الأنفال	١٠٩
إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا	٧٠	الأنفال	٨٢
قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ	١٤-١٥	التوبة	٧٣
﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ	٢٥	التوبة	٢٤٥
﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا	٣٩	التوبة	١٧٨
﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ	٤٠	التوبة	٥١-٨٣- ٢٤٥
﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا	٥١	التوبة	٢٢٧
﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ	٧٠	التوبة	١٨١-٢٢٨
﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ	١١٥	التوبة	١١٧
﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ	٦	يونس	١٦٣
﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ..	١٣	يونس	١٨٠-٢٢٤
﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْض	١٤	يونس	٩٨-١٧٢
وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ	٣	هود	٢٢٦
﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْض إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا	٦	هود	٦٧
﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ	٣٤	هود	١٢٣
﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ	٤٩	هود	٨٦
وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ	٥٢	هود	٢٢٦
﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْض وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾	٦١	هود	٩٦
﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا	٨٢	هود	١٧١
﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ	٨٣	هود	١٧١

﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي	٨٩	هود	٦٤
وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى	١٠٢	هود	٢٢٣
﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا	١١٣	هود	١٧٥-٢٢٧
﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ	١١٦	هود	٢٢٢
وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ	١١٧	هود	٢٢٢
وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً	١١٨-١١٩	هود	٢٦٤-٢٦٦
﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ	٤٦	يوسف	٢٣٦
قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا	٤٧	يوسف	٢٣٦- ٢٣٧-٢٣٨
ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ	٤٨	يوسف	٢٣٦- ٢٣٧-٢٣٨
ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ	٤٩	يوسف	٢٣٧
﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ	٥١	يوسف	٨٢
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم	١٠٩	يوسف	٣٩
﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ ...	١١٠	يوسف	٣٩-١٧٨
﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ	١١١	يوسف	١٨٣
﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ	٣	الرعد	١٧٢
﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾	٨	الرعد	٢٧-٦٦- ١٦١
عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ	٩	الرعد	١٦١
﴿إِنَّ اللهَّ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ	١١	الرعد	٨٨-١٧٩- ٢١٣

﴿ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ	١٦-١٧	الرعد	١١٥
﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ	٢٨	الرعد	١١٣
﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا .	٣١	الرعد	١٨٤
﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾	٣٨	الرعد	٧٨
﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ	٣٩	الرعد	٢٦
﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ	١	إبراهيم	١١٨
وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ	٧	إبراهيم	٢٢٥
﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ	١١	إبراهيم	١٧٦
﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا	١٢	إبراهيم	٢٣٥
﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ	٢٥	إبراهيم	١٨٦
﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ	٣٢-٣٣	إبراهيم	٤٥-٧٠
وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ	٤	الحجر	١٦٢-١٨٠
﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾	٥	الحجر	٧٨-١٦٢
﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾	١٣	الحجر	١٧
﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ	١٩	الحجر	١٧٣
وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ	٢٠	الحجر	١٧٣
وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ	٢١	الحجر	١٧٣
﴿إِلاّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾	٤٠	الحجر	٢٠٥
﴿إِنّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾	٤٢	الحجر	٢٠٥
﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ	٩٧	الحجر	١١٣
فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ	٩٨	الحجر	١١٣

وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ	٩٩	الحجر	١١٣
﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ	٢	النحل	٢٦
﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ	١٢	النحل	١٢٦
وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ	١٣	النحل	١٢٦
وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ	١٤	النحل	١٢٦
﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً	٣٦	النحل	٣٩
﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ ...	٤٠	النحل	٧٥
﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاس	٤٤	النحل	٩٤-١١٦
﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ	٦٤	النحل	٢٥٩
﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ	٨٩	النحل	١١٦
﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا	٩٢	النحل	٢١٢
﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى	٩٧	النحل	٥٠-٢٢٥
﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً	١١٢	النحل	١٧٤-١٨٦
وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ	١١٣	النحل	١٨٦
﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا	٥	الإسراء	١٧٧
﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ ...	٦	الإسراء	١٧٧
إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا	٧	الإسراء	١٧٧
﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾	١٢	الإسراء	٦٧
﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هؤلاء وهؤلاء مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ	٢٠	الإسراء	٤٤
﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ ...	٣٢	الإسراء	١٨٨
﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ ...	٧٦	الإسراء	١٦٩

﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا	٧٧	الإسراء	١٧-٥٨-١٧٠
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ ...	٩٩	الإسراء	١٧٣
﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاس عَلَى مُكْثٍ	١٠٦	الإسراء	١١١
﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾	٤٩	الكهف	٨١-١٨٧
﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى	٥٥	الكهف	١٧
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ	٨٣-٩٨	الكهف	٢٤٠-٢٤١
﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْض	٨٤	الكهف	٢٢٩
فَأَتْبَعَ سَبَبًا	٨٥	الكهف	٢٢٨
﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ	٢٥	مريم	٢٤٣
﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْلَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا	٧٥	مريم	١٧٨
﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهَّ آلِهَةً	٨٢	مريم	١٧٤
﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ	٩٦	مريم	١٧٥
﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾	٤٠	طه	٦١
﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾	٥٠	طه	١٣٣
﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى	١٢٣	طه	٥٠-١١٦-٢٢٥
وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا	١٢٤	طه	٥٠-١١٦-٢٢٥
قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى	١٢٥	طه	١١٦
﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ	١٣٢	طه	١٧٤
﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً	١١	الأنبياء	٢٢٢

فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ	١٢	الأنبياء	٢٢٢
لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ	١٣	الأنبياء	٢٢٣
فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ	١٥	الأنبياء	١٧٣
﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ	١٦	الأنبياء	١٦٠
﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ	١٨	الأنبياء	١١٥
﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ	٧٦-٧٧	الأنبياء	١٨٥
﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ	٩٥	الأنبياء	١٧١
﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ	١٠٥	الأنبياء	١٧٠
﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ	١١٢	الأنبياء	١٧٠
وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ	٥	الحج	٧٨
﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾	١٤	الحج	٧٣
﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ	٣١	الحج	٩١
﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ	٤٠	الحج	٢٧٢
﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ	٤١	الحج	٩٨
﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ	٤٦	الحج	٣٩
﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا	٤٨	الحج	١٧٩-٢٢٣
﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ	٦٠	الحج	١٢٢
﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾	٧٨	الحج	١١٢
﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا	٢٧	المؤمنون	٢٣٩
﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ	٢٨	المؤمنون	٢٤٠
وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً	٢٩	المؤمنون	٢٤٠
﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا	١٤	النور	١٧٦

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ...	٢١	النور	٢٢٧
﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ	٥٥	النور	-١٢٥-٩٧ ١٨١
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ	٥٦	النور	١٢٥
﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾	٢	الفرقان	٥٧
﴿وَقَدِمْنَآ إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً	٢٣	الفرقان	٤٤
﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا	٦٧	الفرقان	٧٧
﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾	٦١	الشعراء	١٢١
﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِين﴾	٦٢	الشعراء	١٢١
﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ..	٦٩	النمل	٣٨
﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا	٥	القصص	١٢٠
﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا	١٣	القصص	١٧٥
﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ	١٧	القصص	٢٢٧
﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ	٣٩	القصص	٢٢١
﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ	٤٠	القصص	٢٢١
﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا	٥٨	القصص	٢١٧-١٧٩
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا	٧١	القصص	٢٦٦
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا	٧٢	القصص	٢٦٦
وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ	٧٣	القصص	٢٦٦
﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ	٧٧	القصص	٩٩
﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي	٧٨	القصص	١٧٣
﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ	٨٥	القصص	٨٠

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ...	٢٠	العنكبوت	٣٨-١٣٢
﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ	٤٠	العنكبوت	١٧٦
﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ	٥٣	العنكبوت	٧٩-١٧٧
﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ	٩	الروم	٣٩
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ	٢٢	الروم	٢٥٨-٢٦٦
﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ	٤١	الروم	١١٣
﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ	٤٢	الروم	٣٨
﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا..	٤٨	الروم	٤٦
﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ	٥٠	الروم	٣١-٣٨
﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا	٢٠	لقمان	٤٥
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ	٢٩	لقمان	٧٩
﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ	٢١	الأحزاب	٢٤٨
﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ	٢٢-٢٧	الأحزاب	١٢٢-٢٤٨
﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ	٣٣	الأحزاب	١٢٣
﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ	٣٨	الأحزاب	١٦-٦٦
﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ	٦٢	الأحزاب	١٦-١٦٢
﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا	١٨	سبأ	٣٩
﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ	١٥-١٩	سبأ	١٨٤- ٢١٨-٢١٩
﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا	٦	فاطر	١٨٠
﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ	١١	فاطر	١٧٣
﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾	٢٨	فاطر	١٥٨

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ	٤٣	فاطر	١٦-٥٩-٨٣-١٤٧-١٦٩-٢٣١-٢٥٧
﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ	٤٤	فاطر	٣٩
﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى	٤٥	فاطر	٧٩
﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا	٩	يس	٥٢
﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾	١٢	يس	٦٧
﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ	٣٧-٤٠	يس	٤٧-٧٥
﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ	١٤٣-١٤٤	الصافات	٢٢٦
﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ	١٧١-١٧٣	الصافات	١٧١
﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا	٢٧،٢٨،٢٩	ص	٥٤
أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ	١٩	الزمر	١٧٣
﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ	٢٧	الزمر	١٨٦
﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ	٦	غافر	١٧١
﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ	٢١	غافر	٤٠-١٧٤
﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ	٣٦-٣٧	غافر	٢٢٨
﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ	٨٢	غافر	٤٠
﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا	٨٥	غافر	١٧-١٥٢
﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ	١٥-١٦	فصلت	٢٢٠
﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ	٤٢	فصلت	١٠٧

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾	٤٦	فصلت	٢٩
﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾	٥٣	فصلت	٧-٤٢
﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ	٢٠	الشورى	٢٥٥
﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ	٣٠	الشورى	٢١٨-٢٣٠
﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا	٥١	الشورى	١٧٩
﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ	١٣	الزخرف	٢٢٦
﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ	٣٢	الزخرف	٢٦٣
﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ	٣٧	الدخان	١٧٥
﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ	١٣	الجاثية	١٢٦
﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ	١٥	الجاثية	٥٠
﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ	٩	الأحقاف	٨٦
﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ	٢٥	الأحقاف	١٨٠
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ	٧	محمد	١٨٦- ٢٣٤-٢٧١
﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ	١٠	محمد	٤٠-٦٥- ١٣٢
﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ	٣٨	محمد	٢٠٩
﴿وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا	٢٠	الفتح	٨٠
﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ	٢٣	الفتح	١٦-٢٧- ٥٨
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى	١٣	الحجرات	١٧٤

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ	٤٩	الذاريات	٢٦٦
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ	٥٦	الذاريات	٩١-١٢٥
﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ	٥٧	الذاريات	٩١-٩٣
إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ	٥٨	الذاريات	٩١-٩٣
﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوح	٩	القمر	١٧٥
﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ	٤٣	القمر	٦٢
﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾	٤٩	القمر	٢٣
﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ	٧-٩	الرحمن	٧٧
﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ	٩	الحديد	١١٨
لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ	٢٥	الحديد	١٢٩
﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي	٢١	المجادلة	١٧٠
﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾	٢	الحشر	٦٠
﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ	٣	الحشر	١٧٧
﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾	١٣	الحشر	٢٧٥
﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ ي	٢١	الحشر	١٨٦
﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ	٢٣	الحشر	١٤٤
﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا	٢	الجمعة	٩٤
﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا	١١	المنافقون	٧٨
﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا	٢	الطلاق	١٧٧
﴿قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾	٣	الطلاق	٦٦-١٥٩- ١٧٧-٢٣٢
﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾	٣	الملك	٧٤

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا	١٥	الملك	٧٢
﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾	٣٥	القلم	١٤٦
﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ	٤٤	القلم	١١٢
كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ	٢٤	الحاقة	٢٣٠
﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ	٤	نوح	٧٩
﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا	١٠-١٢	نوح	٢٢٧
﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا	٢٥	نوح	١٧٦
إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ	٢	الجن	٨٤
﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ	١٥-١٩	المزمل	٦٢
﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ	٣١	المدثر	١٦٤
﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾	٢٩	النبأ	٦٧
﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾	٢٤	النازعات	١٢١
﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ	١١-١٤	الطارق	٨٤
﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ	٦-٨	الفجر	١٤٤
﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى	٥-١٠	الليل	٢٣٣
﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾	٣	العلق	٣١-٨٩
الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ	٤	العلق	٨٩
عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ	٥	العلق	٨٩
فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا	٧	الزلزلة	٨٢
وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا	٨	الزلزلة	٨٣
﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾	١	الفيل	١٤٤
﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ	١-٤	الإخلاص	١٤٤

فهرس الأحاديث

طرف الحديث	رقم الصفحة
أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً	١٩١-٢١١
إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ	٢٠٣
إذا الناس أظهروا العلم وضيّعوا العمل	١٤١
إذارأيتم أُمتي تَهَابُ الظالم	٢٠٢
أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ	١٩٥
أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً	٢٠٤-٢٠٥
إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ	١١٠
إِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ	١٩٩
إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ	١٩٣
أَنَّ النبي ﷺ رَأَى شَيْخًا يُهَادَى	١١٤
إِنَّ اللَّهَ تعالى خلقَ آدمَ مِن قبضةٍ قَبضَها	٢٦٤
إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا	١٩٧
إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ	٢٠٠
إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ	١٩٤
إِنِّي وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لاَ أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ	٢٦١
قَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ	١٩٢
قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ	١٩٧-٢٣٦

كل شيء بقدر	٦٨
كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ	١٣٧
كُنْتُ عَاشِرَ عَشَرَةِ رَهْطٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَسْجِدِهِ	٢١٠
كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ	١٨٩
لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ	٢٠٠
لاَ تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ	٢٤٩-٢٥٠
لاَ تَخْتَلِفُوا، فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا	٢٦٦
لَا تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَفْشُ فِيهِمْ وَلَدُ الزِّنَا	١٩٦
لَا يُصِيبُ عَبْدًا نَكْبَةٌ فَمَا فَوْقَهَا	٢١٨
لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ	٢٦١
لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ	١٠٩
لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا	١٣٧
لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ	١٢١
لو دعيت إليه اليوم لأجبت	٢٧٠
مَا أَسْفَلَ مِنَ الكَعْبَيْنِ مِنَ الإِزَارِ	٢٠٧
مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا	١٩٣
مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ	١٩٣
مَرَرْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَإِذَا النَّاسُ يَخُوضُونَ فِي الأَحَادِيثِ	٨٤
ما مِن قوم يُعمَلُ فيهم بالمعاصي	٢٠٢
ما من قوم يكون بين ظهرانيهم	١٤٠

مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاَءَ	٢٠٧
مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ	٩٩
وَلَا فَشَا الزِّنَا فِي قَوْمٍ قَطُّ	١٨٨
هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ	١١٠
وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ	٢٠١
يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ	١٩٨

فهرس الأعلام

آدم عليه السلام	٢٦٥
أبو بكر الصديق رضي الله عنه	١٢١-١٣٧-٢١٠-٢٣١-٢٤٦
أبو بكر الجصاص	١٨
ابن الأثير	١٣٩
ابن أبي الدنيا	١٤٠-١٤١-٢٧٣
أبو حيان الأندلسى	٧٨-١٣٩
أبو حامد الغزالي	١٤٣-١٤٤-١٤٥-١٤٦-٢٢٩-٢٣١-٢٧٣
أبو الخطاب قتادة	٨٢
أَبُو الدّحْدَاح رضي الله عنه	١٣٧
أبو محمد ابن حزم	١٤١-١٤٢-٢٧٣
إبراهيم عليه السلام	٢٤٢-٢٤٣
إبراهيم بن علي الوزير	٥٠-١٠٢-١٦٧
أبو زيد الدبوسى	١٤
أبو السعود	٦٥-٦٦-١٣٩
أبو سعيد الخدري رضي الله عنه	٢٠٠-٢١٠
أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي	١٤
أَبُو طَلْحَةَ	١٣٧
أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاح رضي الله عنه	١٣٦-١٩٢
أبو علي الطبرسى	١٨
أبو موسى الأشعري رضي الله عنه	١٩٤-٢١٨

أَبو هُرَيْرَةَ﷜	١١٠-٢٠٠-٢٠٦
أحمد حسن فرحات	١٦٦
أحمد رحماني	١٦٥
أحمد سريرات	١٦٦
أحمد بن عجيبة	١٨
أحمد كنعان	٢١-١٦٤
أحمد المراغي	١٥٩-١٨٢-٢٣٢
أسماء بنت أبي بكر	٢٤٦
إسماعيل ؏	٢٤٣
أفلاطون	٧٢
أكرم ضياء العمري	٢٠٩
الآلوسي	١٣٩
أنس بن مالك﷜	٩٩-١١٤-١٣٧-١٩٧
إياد الركابي	١٦٦
البغوي	٦٧-١٣٩
بكار جاسم	٢١-١٦٦
تقي الدين السُّبكي	٢٤٧
ابن تيمية	٥٠-٦٢-١٢٢-١٤٦-١٤٧-١٤٨-٢٣٤-٢٧٣
ثوبان ﷜	١٩٧-١٩٨
جمال الدين الأفغاني	١٥٣
جودت سعيد	٢٠-١٦٦-٢١٣
ابن الجوزي	١٣٩

ابن حجر العسقلاني	٢٠٧
حذيفة بن اليمان رضي الله عنه	٢٠١-٢١٠
الحارث الأعور	٨٤
حازم زكريا محي الدين	١٥٧-١٦٧
حسن بن صالح الحميد	١٦٦
حسين شرفه	١٦٦
حامد محمد خليفة	٢٠
حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه	٢٤٩
خباب بن الأرت رضي الله عنه	١٩١-٢١١
خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها	٢٠٨
الخضر عليه السلام	٢٦١
خالد بن الوليد	٢٥٠
خالص جلبي	١٦٧
الذهبي	١٣٩
ذو القرنين	٢٤٠-٢٤١-٢٤٢
ربعي بن أبي عامر	١٣٨
الرازي	٤٢-١٣٩-٢١٧-٢٢٠
راشد شهبون	١٦٦
رشيد كهوس	١٦٥-١٦٦-١٦٧
الراغب الأصفهاني	١٠
رافع بن خديج رضي الله عنه	٢٥٠
رمضان خميس زكي	١٦٧

الزمخشري	٤٨-١٣٩-٢٥٩-٢٦٣
زيد بن حارثةﷺ	٢٠٨
زينب بنت جحش أم المؤمنين	٢٠٨
زينب عطية محمد	١٦٥
السعدي	٢١٣-٢٢٣-٢٥٩
سعد بن أبي وقاصﷺ	١٣٦
سيد قطب	٤٩-١٠٣-١٢٩-١٥٧-٢٣٢-٢٣٥-٢٥١-٢٧٣
شريف الخطيب	٢١-١٦٥-١٩٣
الشاطبي	١٥-٦٠
الشافعي	١٣-١١٧-١١٨-٢٦٢
الشعراوي	١٩
الصابوني	٢١٩
صهيب ﷺ	١٨٩
الطبري	١٣٩
طه جابر العلواني	٢٦٢
الطاهر بن عاشور	٨٠-١٦٠-٢٧٣
الطيب برغوث	١٦٨
الضحاك	٧٨
عبد الحميد محمود طهماز	١٦٥
عبد الرحمن بن عوف ﷺ	٢١٠
عبد الرحمن بن خلدون	٣٤-١٥٠-١٥١-١٥٢-١٥٣-٢٧٣

ابْن عَبَّاس رضي الله عنه	١٠٩
عادل بن بوزيد عيساوي	١٦٧
عبد الحليم عويس	١٦٧-١٦٨
عبد السلام ياسين	١٦٦
عبد الكريم زيدان	٢٠-١٣٠-١٦٥
عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنه	٢٤٦
عبد الله بن أُرَيْقِط	٢٤٦
عبد الله التليدي	١٦٤
عبد الله بن عمر رضي الله عنه	١٩٥-١٩٩-٢٠٢-٢٠٣-٢١٠
عبد الله بن مسعود رضي الله عنه	١١٦-١٣٧-٢١٠
عثمان بن عفان رضي الله عنه	٢١٠
العز بن عبد السلام	٢٠٤
ابن عطية	١٣٩
العُليمي	١٣٩
علي بن أبي طالب رضي الله عنه	٢١٠
علي محمد الصلابي	٢٢
عماد الدين خليل	٧٠-١٦٥
عمر بن الخطاب رضي الله عنه	١٣٦-٢١٠
عمر عبيد حسنه	٢٠-٣٥-٤٠-١٢٧-١٣٠-١٣٥-١٦٨
عامر بن فُهَيْرة	٢٤٦
الفراء	٧٨
الفارابي	٧٢

فرعون	١٢١
القرطبي	١٨-٢٥٥
القاري	٢٠٢
القشيري	١١٤
ابن قيم الجوزية	١٩-٦٧-١٤٨-١٩٥-٢٠٥-٢٠٦-٢٢٩- ٢٣٠-٢٣٤-٢٦٢-٢٧٣
ابن كثير	١٨-٨٢-١٣٩-٢١٤-٢١٩
لبيد	١٠
مجدي عاشور	٢٠-١٦٥
محمد أبو زهرة	١٨-٧١-١٦٠-١٧٢-٢٢٢-٢٦٧-٢٧٣
محمد بن إسحاق	٢٤٩
محمد أمحزون	٢٠-١٠٦-١٦٥
محمد باقر الصدر	١٦٥
محمد جابري	١٩-١٦٥
محمد رشيد رضا	٢٧-٣١-٣٤-٦٣-٩٨-١٥٥-١٥٧-١٨٢- ٢١٤-٢٣٢-٢٧٠-٢٧٣
محمد رشاد خليل	١٨٦
محمد سعيد رمضان البوطي	١٦٨
محمد السيسى	٢٠
محمد الصادق بوعلاق	١٦٧
محمد الصادق عرجون	١٦٦
محمد صِدِّيق القِنَّوجِي	١٤

محمد عبده	١٩-١٠٣-١٥٣-٢٧٣
محمد عمارة	١٦٧-١٦٨
محمد الغزالي	١٠٦-٢٥٦
محمد قطب	١٦٥-٢٢٥
محمد تقي الأمين	١٦٨
محمد متولي الشعراوي	١٦٢
محمد المكي الناصري	١٨-٩٥-٩٧-١٦٢-٢٤٢-٢٥٣
محمد هيشور	٢١
محمود محمد عيد نفيسة	١٦٧
مريم عليها السلام	٢٤٣
المسعودي	١٣٩
مصعب بن عمير رضي الله عنه	٢٤٦
مصطفى الزرقا	١٣
مصطفى الشكعة	١٦٥
معاذ بن جبل رضي الله عنه	٢١٠
مقتدى حسن الأزهري	١٦٨
مالك بن نبي	١٦٨
موسى عليه السلام	١٢١-٢٦١
ابن منظور	٢١٣
ميمونة أم المؤمنين رضى الله عنها	١٩٦
النعمان بن بشير رضي الله عنه	١٩٣-٢٠٤
نوح عليه السلام	١٨٥-٢٢٧-٢٣٩-٢٤٠

النووي	٦٨-٢٠٢
هاجر عليها السلام	٢٤٢
هارون عليه السلام	٢٦١
هود عليه السلام	١٨٠-٢٢٦
وهبة الزحيلي	١٤-١٦٣
يوسف عليه السلام	٢٣٦-٢٣٧-٢٣٨-٢٣٩

فهرس المصادر والمراجع:

١ - القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

أولا: الكتب

٢ - الإبهاج في شرح المنهاج، شرح على منهاج الوصول إلى علم الأصول للقاضي البيضاوي (ت٦٨٥هـ)، تأليف: علي بن عبد الكافي السُّبكي (ت٧٥٦هـ)، وولده تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي (ت٧١١هـ)، دراسة وتحقيق: أحمد جمال الزَّمزمي ونور الدين عبد الجبار صغيري، سلسلة الدراسات الأصولية (١٧)، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، الإمارات العربية المتحدة، دبي، ط١/ ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

٣ - الإحسان، عبد السلام ياسين (ت: ١٤٣٤هـ)، مطبوعات الأفق الدار البيضاء، ط١/ ١٩٩٨م.

٤ - أحكام القرآن، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (ت: ٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٥ - الإحكام في أصول الأحكام، أبو الحسن سيد الدين علي بن أبي علي بن محمد الآمدي (ت: ٦٣١هـ)، علق عليه: عبد الرزاق عفيفي، دار الصميعي، الرياض، ط١/ ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٦ - أحلام في السياسة وكيف يتحقق السلام، جوهري طنطاوي، طبع مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م.

٧ - إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت: ٥٠٥هـ)، دار المعرفة، بيروت.

٨ - الاختلاف في العمل الإسلامي الأسباب والآثار، ناصر بن سليمان العمر، كتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية.

٩ - أدب الاختلاف في الإسلام، طه جابر فياض العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

١٠ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود)، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١١ - إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، محمد بن علي الشوكاني اليمني (ت: ١٢٥٠هـ) ، عن طبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، مصورة دار المعرفة، بيروت، ط١/ ١٣٩٩هـ.

١٢ - أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، أحمد كنعان، تقديم: عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة (٢٦) الصادر عن مركز البحوث والمعلومات برئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر، ط١/ المحرم١٤١١هـ.

١٣ - أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين والمنحرفين، أبو الفتوح عبد الله التليدي، دار البشائر الإسلامية، بيروت-لبنان، ط٢: ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

١٤ - أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات في سورة الأعراف، عبد الحميد محمود طهماز، دار القلم-دمشق والدار الشامية-بيروت، ط١: ١٤٢١هـ/ ١٩٩٢م.

١٥ - أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله فخر خوارزم محمود بن عمر الزمخشري(ت: ٥٣٨هـ)، قدم له وشرح غريبه وعلق عليه: محمد أحمد قاسم، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط١/ ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

١٦ - الإسلام عقيدة وشريعة، محمد شلتوت (ت: ١٣٨٣هـ)، دار الشروق، القاهرة، ط١٧/ ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

١٧ - الإسلام دين الإنسانية، عبد الرشيد سالم، مكتبة التراث الإسلامي، ط: د.ت.

١٨ - أصول الفقه الإسلامي، وهبة الزحيلي (ت: ١٤٣٦هـ)، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط٢/ ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

١٩ - أضواء على الاقتصاد الإسلامي (١١)؛ المدخل لدراسة التاريخ الاقتصادي والحضاري رؤية إسلامية، حسين غانم، دار الوفاء، المنصورة، ط١/ ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٢٠ - الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده، محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط/ ١٩٩٣م.

٢١ - الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، أبو الخير شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت: ٩٠٢هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت: ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٢٢ - إعلام الموقعين عن رب العالمين، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي (ت: ٧٥١هـ)، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل - بيروت، ١٩٧٣م.

٢٣ - إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض.

٢٤ - الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت: ٥٠٥هـ)، وضع حواشيه: عبد الله محمد الخليلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١: ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

٢٥ - اقرأ وربك الأكرم، جودت سعيد، دار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان، إعادة الطبعة الثانية ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٢٦ - إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني العبيدي المقريزي (ت: ٨٤٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١: ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٢٧- البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي-(ت٧٩٤هـ)، بيروت: دار الكتبي، ط١: ١٤١هـ/ ١٩٩٤م.

٢٨ - البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي ابن عجيبة الحسني (ت١٢٢٤هـ)، تحقيق: عمر أحمد الراوي، راجعها ودققها على الأصل المخطوط: عبد السلام العمراني الخالدي العرائشي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢/ ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٢٩ - بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

٣٠ - البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط١: ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٣١ - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة-مصر، ط٣: ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٣٢ -تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم (أنواعه -شروطه وأسبابه - مراحله وأهدافه)، عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي، مكتبة الصحابة، الشارقة-الإمارات، مكتبة التابعين، مصر-القاهرة، ط١: ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٣٣ - التجديد في علم أصول الفقه بين السنن الإلهية وجهود الصادقين وانتحال المبطلين، سلسلة السنن الإلهية ضوابط العلوم المعرفية(١)، محمد جابري، مؤسسة الندوي مكتب الدراسات والأبحاث العلمية، وجدة، ط١/ أبريل٢٠٠٣م.

٣٤ - التجديد في دراسة الحديث النبوي على نور السنن الإلهية، سلسلة السنن الإلهية ضوابط العلوم المعرفية (٣)، محمد جابري، قدم له: أبو أسامة المصطفى عبد القادر غانم الحسني، مؤسسة الندوي مكتب الدراسات والأبحاث العلمية، وجدة، ط١/ جمادى الأولى ١٤٢٤هـ.

٣٥ - تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد (تفسير التحرير والتنوير)، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي. (ت: ١٣٩٣هـ) الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤م.

٣٦ – تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي الطبري (ت: ٣١٠هـ)، دار التراث، بيروت، ط٢: ١٣٨٧هـ.

٣٧ - التصوير الفني في القرآن، سيد قطب (ت: ١٣٨٥هـ)، دار الشروق، ط١٨/ ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٣٨ - التعريفات، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحسيني الجرجاني الحنفي (ت٨١٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط٢: ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٣٩ - تعليل الأحكام؛ عرض وتحليل لطريقة التعليل وتطوراتها في عصور الاجتهاد والتقليد، محمد مصطفى شلبي، دار النهضة العربية، بيروت، ط/ ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٤٠ - التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤/ نوفمبر١٩٨٣م.

٤١ - تفسير القشيري المسمى: لطائف الإشارات، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك النيسابوري القشيري (ت٤٦٥هـ)، تحقيق: سعيد قطيفة، قدم له: منيع عبد الحليم محمود، المكتبة التوفيقية، ط/ د.ت.

٤٢ - تفسير القرآن (تفسير السمعاني)، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد المروزى السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (ت: ٤٨٩هـ)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم ابن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض-السعودية، ط١: ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٤٣ - تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، ط٢: ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٤٤ - تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا القلموني الحسيني (ت: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٤٥ - تفسير الشعراوي- الخواطر، محمد متولي الشعراوي (ت: ١٤١٨هـ)، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م.

٤٦ - تفسير الكشاف، محمد بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، دار الفكر، القاهرة، ط١/ ١٩٧٧م.

٤٧ - تفسير الماوردي (النكت والعيون)، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت: ٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

٤٨ - التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط٢: ١٤١٨هـ.

٤٩ - تفسير مبهمات القرآن، الموسوم: بصلة الجمع وعائد التذييل لموصول كتابي الإعلام والتكميل، أبو عبد الله محمد بن علي البلنسي. (٧١٤-٧٨٢هـ)، دراسة وتحقيق: حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١/ ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٥٠ - التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢/ كانون الثاني (يناير)، ١٩٧٨م.

٥١ - تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (ت: ١٣٧١هـ)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط١: ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.

٥٢ -التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الناشر: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ط١: ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٥٣ - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، للحافظ أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري(ت: ٤٦٣هـ)، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب.

٥٤ - التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري (ت: ١٤١٤هـ)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١: ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٥٥ - تيسير التحرير، محمد أمين أمير بادشاه الحنفي (ت٩٧٨ هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط١/ ١٣٥٠هـ.

٥٦ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٥٧ - الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢: ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٥٨- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، أبو جعفر الطبري ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١: ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٥٩- الجامع لأحكام وأصول الفقه المسمى: حصول المأمول من علم الأصول، محمد صِدِّيق حسن خان القِنَّوجي (١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م)، تحقيق ودراسة: أحمد مصطفى قاسم الطهطاوي، راجعه وقدم له: أبو الحسن عطية مُسعد العكَّاري، دار الفضيلة، القاهرة، ط/ د،ت.

٦٠ - جامع الرسائل، تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت: ٧٢٨هـ)، تحقيق: محمد رشاد سالم، دار العطاء – الرياض، ط١: ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٦١ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت: ٧٢٨هـ)، تحقيق: علي بن حسن وعبد العزيز بن إبراهيم وحمدان بن محمد، دار العاصمة، السعودية، ط٢: ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

٦٢ - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء، ابن قيم الجوزية، دار المعرفة، المغرب، ط١: ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٦٣ - حجية السنة، عبد الغني عبد الخالق، المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن، ألمانيا الغربية –شتوتغات، دار القرآن الكريم، بيروت، ط١/ ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

٦٤ - حتى يتحقق الشهود الحضاري، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي، بيروت،ط١: ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

٦٥ - حتى يغيروا ما بأنفسهم، سلسلة سنن تغيير النفس والمجتمع، جودت سعيد، دار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان، ط٧/ ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣من تصوير:١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٦٦ - حول إعادة تشكيل العقل المسلم، عماد الدين خليل، سلسلة كتاب الأمة (٤)، قطر، ط١: ١٤٠٢هـ.

٦٧ - حول التفسير الإسلامي للتاريخ، محمد قطب (ت: ١٤٣٥هـ)، دار الشروق، القاهرة، ط١ - ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٦٨ - خصائص الأمة المحمدية، محمد بن علوي بن عباس المالكي المكي الحسني (ت: ١٤٢٥هـ)، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط١/ ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

٦٩ - خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب، دار الشروق، ط١٦ - ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٧٠ - الخصائص العامة للإسلام، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٠/ ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٧١ - دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، دار النفائس، بيروت، ط١: ١٤١٨هـ/ ١٩٩٩٧م.

٧٢ - - الدراسات المستقبلية بين السنن الإلهية والدراسات المعاصرة، سلسلة السنن الإلهية ضوابط العلوم المعرفية (٥)، محمد جابري، مؤسسة الندوي مكتب الدراسات والأبحاث العلمية، وجدة، ط١/ ربيع الأول ١٤٢٥هـ/ ماي٢٠٠٤م.

٧٣ - دفاع عن التاريخ الإسلامي: المنهاج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره، محمد رشاد خليل، تمهيد وتقديم: محمد أمحزون، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١/ ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٧٤ - ديوان شوقي، أحمد شوقي (ت: ١٣٥١هـ)، دار صادر، بيروت لبنان، ط١/ ١٩٩٣م.

٧٥ - ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (تاريخ ابن خلدون)، أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن خلدون الحضرمي الإشبيلي (ت: ٨٠٨هـ)، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط٢: ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٧٦ - رؤية في منهجية التغيير، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان، ط١/ ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

٧٧ - الرد على المنطقيين، أحمد ابن تيمية، دار المعرفة، بيروت.

٧٨ - رسائل ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (ت: ٤٥٦هـ)، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٣م.

٧٩ - الرسالة، محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠-٢٠٤هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، المكتبة العلمية، بيروت، ط/ د.ت.

٨٠ - زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت: ١٣٩٤هـ)، دار الفكر العربي.

٨١ - السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى السباعي، دار السلام، القاهرة، ط٢/ ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

٨٢ - سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق:أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢: ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٨٣ - سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ)، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط ومحَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط١: ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٨٤ - سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد (ماجة) القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (ت: ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية-فيصل عيسى البابي الحلبي.

٨٥ - سنن النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي (ت: ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢: ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٨٦ - السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، عبد الكريم زيدان (ت: ١٤٣٥هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١/ ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٨٧ - السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم: أصول وضوابط، مجدي محمد عاشور، إشراف: مصطفى محمد الشكعة، تقديم: علي جمعة، دار السلام، القاهرة، ط١/ ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٨٨ - السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع-الرياض، الدار العثمانية-عَمَّان، ط١: ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٨٩ - السنن الإلهية في السيرة النبوية، رشيد كهوس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١: ٢٠١٠م.

٩٠ - السنن الإلهية في النفس البشرية، عمر أحمد عمر، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ط١/ ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٩١ - سنن الطبيعة والمجتمع في القرآن الكريم دراسة تأصيلية تطبيقية، بكار محمود الحاج جاسم، دار النوادر، دمشق-بيروت، ط١: ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

٩٢ - سنة الله، عبد السلام ياسين، مطبعة الخليج العربي، تطوان-المغرب، ط٢/ ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٩٣ - سنة الله في جهاد رسول الله ﷺ: نحو قراءة جديدة للسيرة النبوية، رشيد كهوس، دار الحكمة، القاهرة، ط١: ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

٩٤ - سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم، حسن بن صالح الحميد، دار الهدي النبوي-مصر، دار الفضيلة-السعودية، ط٢: ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٩٥- سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، محمد هيشور، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية (٣٠)، القاهرة.

٩٦ - سورة يوسف دراسة وتحليل، أحمد نوفل، دار الفرقان، عمان-الأردن، ط١: ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٩٧ - السيرة النبوية، أبو جمال الدين محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، (ت: ٢١٣هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٢: ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

٩٨ - السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير)، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٦م.

٩٩ - السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث (دروس وعبر)، علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ط٣/ ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١٠٠ - السير والمغازي (سيرة ابن إسحاق)، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المدني (ت: ١٥١هـ)، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر - بيروت، ط١: ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

١٠١ - شرح القواعد الفقهية، أحمد بن محمد الزرقا، صححها وعلق عليها: مصطفى أحمد الزرقا، دار القلم، دمشق، ط٦/ ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١٠٢ - شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: عبد العلي عبد الحميد حامد،

أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد-الرياض، الدار السلفية بومباي بالهند، ط١: ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

١٠٣ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن قيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

١٠٤ - الشاكلة الثقافية مساهمة في إعادة البناء، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

١٠٥ - صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه)، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (ت: ٢٥٦هـ)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١: ١٤٢٢هـ.

١٠٦ - صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ)، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٠٧ -صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي، علي محمد الصلابي، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط/ ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

١٠٨ - صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار الصابوني، القاهرة، ط١: ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

١٠٩ - الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١: ١٤٠٨هـ.

١١٠ - طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن قيم الجوزية، دار السلفية، القاهرة، مصر، ط٢: ١٣٩٤هـ.

١١١ - طوق الحمامة في الألفة والألاف، أبو محمد علي ابن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢: ١٩٨٧م.

١١٢ -العروة الوثقى، جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣/ ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١١٢ - العقوبات (العقوبات الإلهية للأفراد والجماعات والأمم)، أبو بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا (ت٢٨١هـ)، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، ط١: ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

١١٣ - العقد الفريد، أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي. (ت: ٣٢٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١: ١٤٠٤هـ.

١١٤ - العلوم الاحترازية والوقائية القرآنية دراسة مقارنة مع توقعات الدراسات المستقبلية لكل من فوكوياما وهتغتون، ضمن سلسلة السنن الإلهية ضوابط العلوم والمعارف (٥)، محمد جابري، مؤسسة الندوي، وجدة، ط٢/ ٢٠٠٧م.

١١٥ - على مشارف القرن الخامس عشر الهجري، دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر، إبراهيم بن علي الوزير، دار الشروق، مصر-لبنان، ط٤: ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

١١٦ - عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني (ت: ٨٥٥هـ)، دار إحياء التراث العربي-بيروت.

١١٧ - العمل قدرة وإرادة، سلسلة سنن تغيير النفس والمجتمع، جودت سعيد، دار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان، ط٢/ ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م من تصوير:١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

١١٨ - عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داؤود وإيضاح علله ومشكلاته، أبو عبد الرحمن شرف الحق محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر الصديقي العظيم آبادي (ت: ١٣٢٩هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط٢: ١٤١٥هـ.

١١٩ - فتح الباري شرح صحيح البخاري، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي (ت: ٨٥٢هـ)، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

١٢٠ - الفتاوى الكبرى، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت: ٧٢٨هـ)، تحقيق : حسنين محمد مخلوف، دار المعرفة – بيروت، ط١/ ١٣٨٦هـ.

١٢١ - الفصل في الملل والأهواء والنحل، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي-القرطبي الظاهري (ت: ٤٥٦هـ)، مكتبة الخانجي، القاهرة.

١٢٢ - في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت- القاهرة، ط١٧: ١٤١٢ هـ.

١٢٣ - الفوز الكبير في أصول التفسير، ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدَّهْلَوي (١١١٤-١١٧٦هـ)، نقله من الأصل الفارسي إلى اللغة العربية ووضع عناوينه الجانبية: سلمان الحسيني النَّدْوي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٢/ ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٢٤ - القاموس الفقهي، حسن مرعي، دار المجتبى، بيروت، ط١/ ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢.

١٢٥ - القاموس القويم في القرآن الكريم، إبراهيم أحمد عبد الفتاح، مجمع البحوث الإسلامية، ط/ ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

١٢٦ - القرآن وقضايا الإنسان، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار العلم للملايين، ط٥/ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٢م.

١٢٧ - قواعد الأحكام في مصالح الأنام، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (ت: ٦٦٠هـ)، راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩١م.

١٢٨ - الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (ت: ١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٢٩ - كيف نتعامل مع القرآن، محمد الغزالي، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار الوفاء، المنصورة، ط٣، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

١٣٠ - لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن على ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت: ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط٣: ١٤١٤هـ.

١٣١ - مبدأ السببية في الفكر الإسلامي في العصر الحديث: دراسة تأصيلية مقارنة، محمود محمد عيد نفيسة، دار النوادر، دمشق-بيروت، ط١: ١٤٢١هـ/ ٢٠١٠م.

١٣٢ - المجتمع المدني في عهد النبوة: خصائصه وتنظيماته الأولى، أكرم ضياء العمري، منشورات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، المجلس العلمي، إحياء التراث الإسلامي (١٠)، ط١: ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٣٣ - مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط/ ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م.

١٣٤ - مجموعة رسائل ابن أبي الدنيا: كتاب التوكل على الله، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (ت: ٢٨١هـ)، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١: ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

١٣٥ - مجموع الفتاوى، ابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

١٣٦ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت: ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١: ١٤٢٢هـ.

١٣٧ - مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، دار الفكر، بيروت، ط١/ ١٩٩٧م.

١٣٨ - مختصر تفسير القرآن العظيم المسمى: عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، اختصار: أحمد محمد شاكر (ت: ١٣٧٧هـ)، تحقيق: أنور الباز، دار الوفاء، المنصورة، ط١/ ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

١٣٩ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣: ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

١٤٠ - المدخل الفقهي العام، سلسلة الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد، مصطفى الزرقا (ت: ١٤٢٠هـ)، دار الجيل، دمشق، ط٢/ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

١٤١ - المدخل إلى الشريعة والفقه الإسلامي، عمر سليمان الأشقر (ت: ١٤٣٣هـ)، دار النفائس، الأردن، ط١/ ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م.

١٤٢ - مدرسة الحافظ أبي عمر ابن عبد البر في الحديث والفقه وآثارها في تدعيم المذهب المالكي بالمغرب، إعداد: محمد بن يعيش، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط/ ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

١٤٣ - المذهب الإصلاحي للإمام محمد عبده، محمد عمارة، دار السلام، القاهرة، مصر، ط١: ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

١٤٤ - مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، عمر عبيد حسنة، منشورات المعهد العالي للفكر الإسلامي، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، ط٢: ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

١٤٥ - مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، صفي الدين عبد المومن بن عبد الحق البغدادي (ت٧٣٩هـ)، وهو مختصر معجم البلدان لياقوت الحموي، تحقيق وتعليق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ط١/ ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.

١٤٦ - مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت: ٢٤١هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث - القاهرة، ط١: ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

١٤٧ - المصباح المنير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ط٣/ ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١٤٨ - المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (ت: ٢٣٥هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط١: ١٤٠٩هـ.

١٤٩ - مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣: ١٤٢٠هـ.

١٥٠ - مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (ت٤٢٥هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ط٣/ ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

١٥١ - مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي، حازم زكريا محي الدين، دار النوادر، دمشق-بيروت، ط١: ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

١٥٢ - معجم ألفاظ القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مجمع اللغة العربية، ط٢/ ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م.

١٥٣ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه: محمد فؤاد عبد الباقي (ت: ١٣٨٨هـ)، دار الحديث القاهرة، ط/ ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١٥٤ - معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ)، دار صادر، بيروت، ط/ ١٤٠٤هـ.

١٥٥ - معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضيع، عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (ت٤٨٧هـ)، حققه وضبطه: مصطفى السَّقا، عالم الكتب، بيروت، ط٣/ ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٥٦ - مع قصص السابقين في القرآن، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط٤/ ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

١٥٧ - معالم التنزيل (تفسير البغوي)، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦هـ)، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤/ ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

١٥٨ - معيار العلم في فن المنطق، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت: ٥٠٥هـ)، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، ١٩٦١م.

١٥٩ - المعين في تفسير كلام الأصوليين، عبد الله ربيع عبد الله محمد، دار السلام، القاهرة، ط١/ ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

١٦٠ – المغازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني الواقدي (ت: ٢٠٧هـ)، تحقيق: مارسدن جونس، دار الأعلمي، بيروت، ط٣: ١٤٠٩/ ١٩٨٩.

١٦١ –المقدمة، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تحقيق: درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا–بيروت، ط٢/ ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

١٦٢ – مكانة السنة في بيان الأحكام الإسلامية والرد على ما أثير حول حجيتها وروايتها، علي الخفيف، هدية مجلة الأزهر، شوال ١٤٢٠هـ.

١٦٣ – من فقه التغيير ملامح من المنهج النبوي، عمر عبيد حسنه، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان، ط١/ ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

١٦٤ – المنهج السنني أفق حضاري متجدد، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي، بيروت–عمان، ط١: ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

١٦٥ – المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢: ١٣٩٢هـ.

١٦٦ – منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، محمد محمد أمزيان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٢: ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

١٦٧ – منهاج الفتوى على ضوء السنن الإلهية القرض الربوي من أجل السكن –أنموذجًا–، ضمن سلسلة الفقه المنهاج (٤)، محمد جابري، مؤسسة الندوي مكتب الدراسات والأبحاث العلمية، وجدة، ط١/ د.ت.

١٦٨ – منهاج السنة النبوية، أبو العباس أحمد بن تيمية الحراني، تحقيق: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، ط١/ ١٤٠٦هـ.

١٦٩ - موسوعة الألفاظ القرآنية، مختار فوزي النَّعال، تقديم: بكري شيخ أمين، مكتبة دار التراث-حلب، اليمامة-دمشق، بيروت، ط١/ ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

١٧٠ - الموطأ، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (ت: ١٧٩هـ)، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية -أبو ظبي- الإمارات، ط١: ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

١٧١ - الموافقات، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (ت: ٧٩٠هـ)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط١: ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

١٧٢ - مواقف إسلامية، عبد العزيز كامل، سلسلة اقرأ، دار المعارف، ١٩٧٠م.

١٧٣ - الموقف من التاريخ الإسلامي وتأصيل الهوية، حامد محمد الخليفة، دار القلم، دمشق، ط١: ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١٧٤ - نشر البنود على مراقي السعود، عبد الله بن إبراهيم العلوي الشنقيطي، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة جولة الإمارات العربية المتحدة، ط/ د.ت.

١٧٥ - نظام الإسلام العقيدة والعبادة، محمد المبارك، دار الفكر، دمشق، ط١: ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

١٧٦ - نظريات الإعجاز القرآني، أحمد رحماني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١: ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

١٧٧ - الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١: ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

ثانيا: الدوريات:

١٧٨ -"الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية"، محمد عبده، مجلة المنار، ١٦ جمادى الآخرة، المجلد الخامس، ١٣٢٠هـ.

١٧٩ -"الإعجاز السنني في القرآن الكريم"، محمد أمحزون، بحث مقدم في المؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، الذي انعقد في دولةالكويت في الفترة من ٥-٨ من ذي القعدة ١٤٢٧هـ.

١٨٠ -"حدوث العالم في نظر الإسلام والفلسفة"، محمد رشيد رضا: مجلة المنار، غرة شعبان، المجلد الخامس، ١٣٢٠هـ.

١٨١ -"الحق والباطل والقوة"، محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد التاسع، غرة المحرم ١٣٢٤هـ.

١٨٢ -"دعاية الرفض والخرافات والتفريق بين المسلمين"، محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد: ٢٩، ربيع الآخر ١٣٤٧هـ.

١٨٣ -"رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ"، محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد الأول، ٩ جمادى الآخرة ١٣١٦هـ-١ نوفمبر ١٨٩٨م.

١٨٤ -"السنن الاجتماعية في القرآن الكريم"، محمد السيسي: مجلة رسالة القرآن -المغرب-، العدد الأول: محرم-صفر-ربيع الأول ١٤٢٥هـ/ مارس- أبريل- ماي ٢٠٠٤م.

١٨٥ -"السنن الإلهية في القرآن الكريم ودورها في استشراف المستقبل"، عماد عبد الكريم خصاوونة وخضر إبراهيم قزق: مجلة المنارة للبحوث والدراسات ، المجلد ١٥، العدد ٢، ٢٠٠٩م.

١٨٦ -"العلم بالسنن الربانية"، محمد أمحزون: مجلة البيان، العدد ١١٥، يوليو ١٩٩٧م.

١٨٧ -"كيف تفسر التاريخ؟"، السلمي محمد بن صامل: مجلة البيان، العدد ٥٠، سنة ١٩٩٢م.

١٨٨ -"المسلمون وفقه السنن.."، محمد أمحزون: مجلة المنار الجديد، العدد٢٤، القاهرةالسنة السادسة شعبان ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

١٨٩ -"مهمة الدين الإسلامي في العالم: دعوته إلى تعرف السنن الإلهية في الجماعات البشرية"، محمد فريد وجدي: مجلة الأزهر، القاهرة، السنة السادسة، الجزء الخامس، ١٣٥٤هـ.

١٩٠ -"وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون"، محمد رشيد رضا: مجلة المنار، المجلد:١، العدد: ٣١: جمادى الآخرة ١٣١٦هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوعات	الصفحة
خطبة الكتاب	٧

المبحث الأول

السنن الإلهية: تعريف وتأصيل

أولا: تعريف السنن الإلهية	١٠
١ - السنة لغة	١٠
٢- السنة في الاصطلاح الشرعى	١١
٣- معنى السنن الإلهية في الفكر الإسلامى	١٩
ثانيا: السنن الإلهية والقول بالصدفة	٢٢
ثالثا: بين الإرادة والمشيئة الإلهيين	٢٥
رابعا: السنن الإلهية والجبرية	٢٨
خامسا: مصادر المعرفة السننية	٢٩
١ - القرآن الكريم (الكتاب المسطور)	٢٩
٢- السنة النبوية	٣٣
٣- التاريخ	٣٤
٤- الكون (الكتاب المنظور)	٣٨

المبحث الثاني

أقسام السنن الإلهية

١ - السنن الكونية (آيات الآفاق)	٤٢

٢- السنن الإنسانية ٤٦
٣- سنن الهداية (التشريعية) ٤٨
٤- سنن التأييد ٥١

المبحث الثالث

السنن الإلهية: خصائص وصفات

أولا: خصائص السنن الإلهية ٥٦
١-الربانية ٥٧
٢- الثبات ٥٨
٣- الاطراد ٥٩
٤- العموم والشمول ٦٢
٥- النفاذ والصرامة وعدم المحاباة ٦٩
٦- التسخير ٧٠
٧- الواقعية ٧٢
٨- التوازن والتناسق ٧٤
٩- الوسطية ٧٦
١٠- الأجل ٧٨
ثانيا:صفات السنن الإلهية ٧٩
الصدق ٧٩
العدل ٨١
العلو والرفعة ٨٣
القول الفصل ٨٤

المبحث الرابع

السنن الإلهية: مقاصد وآثار

أولا: مقاصد السنن الإلهية ٨٦

١- إثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ ٨٦

٢- توحيد الله تعالى ٨٩

٣- عبادة الله تعالى ٩١

٤- بناء الإنسان الصالح ٩٤

٥- تحقيق الخلافة وبناء العمران البشري ٩٦

٦- الاستعداد للآخرة ٩٨

٧- القدرة على تفسير الأحداث وفهم التاريخ ١٠٠

ثانيا: أثر الكشف عن السنن الإلهية وتسخيرها في حياة الأمة ١٠١

المبحث الخامس

القواعد الكلية للسنن الإلهية

١-التخفيف ١٠٨

٢- اليُسر ١٠٩

٣- التدرج ١١١

٤- رفع الحرج ١١٢

٥- التوبة والتطهير وتمام النعمة ١١٤

٦- إحقاق الحق وإزهاق الباطل ١١٥

٧- إقامة الحجة بالبيان الواضح ١١٦

٨- الهداية لسنن السابقين ١١٨

٩- نصرة المستضعفين ١٢٠

المبحث السادس

دواعي الاهتمام بالسنن الإلهية

١- دواعى العبودية ١٢٥
٢- الدواعى التسخيرية ١٢٦
٣- الدواعى العمرانية الحضارية ١٢٧
٤- الدواعى المعرفية ١٢٩
٥- الدواعى الوظيفية ١٣١

المبحث السابع

السنن الإلهية بين الوعي العملي والوعي النظري

١- الوعى العملى بالسنن الإلهية في عهد النبوة والخلافة الراشدة ١٣٤
٢- الوعى النظري بعلم السنن الإلهية عند القدامى من علماء المسلمين ١٣٩

المبحث الثامن

منهج القرآن والسنة في عرض السنن الإلهية

المطلب الأول: منهج القرآن الكريم في تقرير السنن الإلهية ١٦٩
أولا- أسلوب القرآن وصيغه في بيان السنن الإلهية ١٦٩
ثانيا- سياقات عرض السنن الإلهية ١٨١
١ - القصص القرآني ١٨١
٢ - الأمثال القرآنية ١٨٥
٣- الآيات التى ورد فيها ربط النتائج بالمقدمات ١٨٦
٤- عرض السنن الإلهية في سياق الأحكام التكليفية ١٨٧

المطلب الثاني:منهج الحديث النبوي في بيان السنن الإلهية ١٨٨
١- بيان السنن الإلهية عن طريق قصص السابقين ١٨٩
٢- عرض السنن الإلهية من خلال الأمثال النبوية ١٩٢
٣- بيان السنن الإلهية من خلال الأحاديث التي ورد فيها ربط الأسباب بمسبباتها ١٩٤
٤- الكشف عن السنن الإلهية أثناء الحديث عن فتن آخر الزمان ١٩٧
٥- بيان السنن من خلال ما يترتب على أفعال البشر السيئة من نتائج ١٩٩
٦- تقرير السنن الإلهية عن طريق التوكيد في سياق القسم ٢٠٠
٧- عرض السنن الإلهية في سياق جملة الشرط والجزاء ٢٠١
المطلب الثالث:منهج استمداد السنن الإلهية من السيرة النبوية ٢٠٦
١- استحضار مقاصد الشريعة في عملية الاستمداد ٢٠٦
٢- استقراء نصوص القرآن المتعلقة بالسيرة النبوية للوقوف على ما فيها من السنن الإلهية ٢٠٧
٣- استقراء نصوص الحديث المتعلقة بالسيرة النبوية لاستمداد السنن الإلهية منها ٢٠٩
٤- تتبع كليات السيرة النبوية وجزئياتها للوقوف على السنن الإلهية فيها ٢١١

المبحث التاسع

نماذج من السنن الإلهية

المطلب الأول:سنة الله في تغيير النعم ٢١٣
١- تعريف التغيير ٢١٣
٢- تغيير النعم في القرآن الكريم ٢١٣
٣- أسباب تغيير النعم ٢١٧
٤- أسباب زيادة النعم والحفاظ عليها ٢٢٤
المطلب الثاني:سنة الله في الأسباب والمسببات ٢٢٨

أولا- تعريف السبب ٢٢٨
ثانيا- نماذج من الأخذ بالأسباب عند الأمم والأفراد في القرآن الكريم ٢٣٣
١- يوسف الصديق عليه السلام وتخزين القمح ٢٣٦
٢- نوح عليه السلام وصناعة الفلك ٢٣٩
٣- ذو القرنين والأخذ بالأسباب ٢٤٠
٤- السيدة هاجر -عليها السلام- والسعى بين الصفا والمروة ٢٤٢
٥- السيدة مريم -عليها السلام- وهز جذع النخل ٢٤٤
٦- سيدنا محمد ﷺ والأخذ بالأسباب ٢٤٤
ثالثا- المستفاد من سنة الله في الأسباب والمسببات ٢٥٥
المطلب الثالث: سنة الاختلاف ٢٥٨
أولا- مفهوم الاختلاف وتأصيله ٢٥٨
ثانيا- الاختلاف والأمر القدري الكوني ٢٦٣
ثالثا- الاختلاف والأمر الشرعي الديني ٢٦٦
خاتمة ٢٧٣

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية ٢٧٩
فهرس الأحاديث النبوية ٢٩٧
فهرس الأعلام ٣٠٠
فهرس المصادر والمراجع ٣٠٨
فهرس الموضوعات ٣٣١